الأب فيرجيل جيُورجيُو

٧٠٢١
ع

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم



www.christianlib.com

تعريب

الاسقف جبران الرملاويّ

تعاونية النور الارثوذكسية
للنشر والتوزيع م.م

الأب فيرجيل جيُورجيُو

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم

تعريب
الأسقف جبران الرملاويّ

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة
للنشر والتوزيع م. م.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.
جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠١١.

طبعة أولى السنة ١٩٦٤

أنجزت مَطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر تموز ٢٠١١

الفصل الأوّل

في عصور المسيحيّة الأولى، كانوا يُطلقون لقب «مصارعون» على الرجال والنساء المجاهدين للحصول على مجد القدّيسين. والقدّيس يحقّق، في حياته، نتائج يصعب تحقيقها على سائر الناس. هذه النتائج- الانتصارات عندما تعترف بها الكنيسة رسميًّا، يظهر اسم صاحبها في التقويم، ويُعتَبر الاعتراف الرسميّ بقدّيسٍ ما، امتيازًا خاصًّا يُمنح لفئة ضئيلة من الناس. وكم من قدّيسٍ لم نقرأ اسمه في التقويم؟ أمّا الذين توصي الكنيسة بإكرامهم، وهم قليلون جدًّا، فإنّهم لا ينالون التكريس إطلاقًا وهم على قيد الحياة، بل بعد انتقالهم.

وكثيرون أرادوا أن يسلكوا درب القداسة وكان نضالهم، للحصول على النقاوة اللازمة للقداسة، نضالاً مدهشًا يفوق عنفًا وقساوةً مصارعة الوحوش الضارية. وكان القدّيسون يصارعون أجسامهم بالذات، ويصارعون ضدّ النوم، ضدّ الجوع، ضدّ الألم، ضدّ أفكارهم الشخصيّة وضدّ غرائزهم. هي مصارعة لا هوادة فيها، نهارًا وليلاً، مستمرّة استمرار الحياة.

والذهبيّ الفم، منذ صباه، صمّم على بلوغ القداسة تصميمًا واعيًا فيه نضجُ تفكير. وكان ما يزال على مقاعد الدراسة. كثير من الشبّان يطمحون إلى أن يصيروا قادة، أو أبطالاً رياضيّين أو مخترعين أو مكتشفين. يوحنّا اختار القداسة مثلاً أعلى، أخلصَ له طيلة حياته. وقد حارب على كلّ الجبهات وجابهَ الخصوم على تنوّعهم، ولكنّه انتصر في معاركه جميعًا.

وتاريخ حياته طافح بالانتصارات المثبتة قطعًا، ما جعله بين القدّيسين النادرين، الذين تتوافق على قداستهم الكنيستان الشرقيّة والغربيّة.

والقداسة ممكنة للجميع. كلّ إنسان يصبح قدّيسًا بشرط واحد: أن يحبّ المسيح. ولمّا كان الذهبيّ الفم يعرف هذا، راح يحثّ المؤمنين على الاقتداء بالرسول بولس، لأنّ أيّ إنسان يقدر على الاقتداء به والصيرورةِ مثله. يقول: «اقتدوا به، يا إخوة، لأنّه إنسان وطبيعته مثل طبيعتنا. ولكنّ حبّه المسيح حبًّا كبيرًا جعله يجتاز السماوات، وهو الآن جالس مع الملائكة. وإذا جاهدتم وأذكيتم في حشاكم اللهجة التي اشتعلت في حشاه، فإنّ الاقتداء به ميسور ولا شكّ. وإلاّ لما طلب هو منّا قائلاً: «اقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح».

«التقويم» إن هو إلاّ برهان على أنّ طريق القداسة مفتوح أمام كلّ إنسان، بدون أيّ اعتبار للعمر أو الجنس أو المهنة، أو العرق أو التبعيّة الوطنيّة. فإنّنا نجد فيه أسماء قدّيسين من الجنسيّات المتباينة والألوان المختلفة.

هناك قدّيسون أباطرة إلى جانب قدّيسين عبيد. كما أنّ المهنة لا تقدّم ولا تؤخّر في اكتساب القداسة. فثمّة قدّيسون ملوك، رهبان، أمراء، تجّار، أساتذة مدارس، فلاحون، بستانيّون، رعاة، محامون، أطبّاء، جباة ضرائب، قضاة، شحّاذون، نجّارون، حدّادون، صيّادون...

ولكن، هل يؤدّي العصر دورًا في الحصول على القداسة؟ الجواب: لا. فقدّيس نال هذا المجد في العصر الأوّل للمسيحيّة، وآخر عاش في القرون الوسطى، وثالث صار قدّيسًا في عصرنا الحاضر.

إلاّ أنّ البطولات العالميّة، والمعارك مع الوحوش، والألعاب الأولمبيّة، كلّها ألعاب أطفال إذا قورنت بالمعارك التي يخوضها الإنسان حتّى يصبح قدّيسًا.

والذهبيّ الفم كان واحدًا من أولئك المغبوطين، الذين عرفوا كيف ينساقون مع النعمة، ويُدركون هذا المجد العظيم.

وتميّز القدّيس يوحنّا على زملائه في المجد، لكونه ناضل على جبهتين:

١- جاهد لاكتساب القداسة الشخصيّة، الذاتيّة، وكان جهادًا قاسيًا لأنّه قهر جسمه حتّى الخلايا، وسحق كلّ عدوٍ من شأنه عرقلة بلوغه السماء.

٢- ومن ثمّ، فتح النار على الجبهة الثانية، ليرفع كنيسة المسيح مع جمهور المؤمنين، إلى قيم القداسة والطهارة المسيحيّتين. والكنيسة هي أشبه بقلعة. أمّا الرجال العاديّون، الذين ليس لهم صفات مميّزة في أسوار هذه القلعة، فلا يُحرمون من الحماية. لأنّ العراك من أجل الكنيسة ما هو إلاّ محبّة كاملة لجميع الناس. على أيّ حال، كانوا يسمّون الكنيسة، في ذلك العصر، «الفلسفة الحقيقيّة»، والداخل ضمن حدود الكنيسة يقدر على أن يعيش كإنسان يقطن بناءً عصريًّا مرتفعًا: هو أعلى من الأرض ببضعة أمتار، وأقرب إلى السماء ببضعة أمتار، والأبطال الذين يجاهدون لأجل الكنيسة، إنّما يقصدون، في الواقع، أن يؤهّلوا الناس لبلوغ حالة إنسانيّة سامية.

يوحنّا الذهبيّ الفم كافح في المرحلة الثانية من حياته، ببطولة، ليقود الناس إلى قلب الكنيسة، ومن ثمّ ليرفع الكنيسة، بمن فيها من بشر، أعلى من الأرض، أقرب إلى السماء، على ارتفاع يعيش فيه الإنسان حياة أنقى وأسمى وأهدأ.

لم يأتِ إنسان إلى العالم قدّيسًا. هل سمعتم بمولود قدّيس؟ إنّما الإنسان يصير قدّيسًا. القداسة تُكتسب. ولادة الذهبيّ الفم مشابهة لولادة أيّ شخصٍ آخر. ليس لها ما يميّزها عن غيرها. كلُّ ما في الأمر أنّ والديه كانا غنيّين، وهذا جدير بالملاحظة لأنّه امتياز خاصّ أن يولَد إنسان غنيًّا. والده قائد فرقة الخيّالة الرومانيّة في سوريا، وكانت رتبته رفيعة على مستوى جنرال. أمّا اسمه الكامل فمجهول لأنّ السوريّين كانوا يتّبعون العادات اليونانيّة، التي لا تطلق على الشخص إلاّ اسمًا واحدًا، على خلاف العادات الرومانيّة، لذلك لم يبقَ لنا من أسماء الوالد إلا واحد: سيكوندوس. كما

هي الحال مع قدّيسنا يوحنّا (الذهبيّ الفم).

وتزوّج القائد بفتاة أنطاكيّة، عمرها ستّ عشرة سنة اسمها أنثوسة، فولدت له فتاة، ثمّ صبيًا سمّي يوحنّا. أمّا تاريخ ميلاد يوحنّا فيتراوح بين ٣٤٥ و٣٤٩. وبُعيد ولادته مات أبوه فترمّلت أمّه، وهي لم تبلغ بعد العشرين ربيعًا.

وكرّست الأرملة الصبيّة بقيّة حياتها لتربية ولديها، وإدارة الأملاك الموروثة عن زوجها. وحدّثنا يوحنّا عن أمّه. قال: «كانت تقول لي: يا ولدي، لم أتمتّع إلاّ قليلاً بالحياة مع أبيك. وقد سلبتني العناية الإلهيّة سريعًا هذه السعادة. وتضافرت آلام موت والدك مع أوجاعي في ولادتك. إنّها آلام لا يعرفها إلاّ من مارسها. ليس من كلمات تقدر على أن تعبّر عن الاضطرابات والعواصف التي تتعرّض لها صبيّةٌ، عديمة الخبرة، إذ تجابهها مصيبة جامعة للعنف والفجاءة، فتلفي ذاتها إزاء واجبات لا تتوافق مع طبيعتها وعمرها: تلاقي إهمال الخدم، إحباط أحابيلهم وحيَلهم، الصمود أمام مناورات الأقارب، الانتصار على جشع جباة الضرائب...».

لكن، أنثوسة تدبّرت الأمر على أكمل وجه، رغم صغر سنّها وانعدام خبرتها، وعرفت كيف تواجه الصعوبات الملازمة للترمّل. وهكذا قالت لابنها، القدّيس العتيد: «هل تقدر على أن تنسب إليّ تفريطًا في الأملاك والأرزاق، التي تركها لك والدك؟ والمصاعب والمخاطر الناجمة عن الترمّل قد ألحقت الضرر بكثيراتٍ من الأرامل مثيلاتي. إلاّ أنّي، أنا، حافظت على ميراثك كما تسلّمته، فضلاً عن أنّي أمّنت لك تربية متينة وناجحة».

إنّها بطلة، تلك المرأة، كما هو مفروض في كلّ نساء العالم. عرفتْ بحدسها الطبيعيّ، هذا الحدس الطبيعيّ في النساء، أن تتغلّب على المصاعب. مشاغلها، يأسُها، أملها لم تكن لتختلف عنها عند النساء الأرامل شبيهاتها، في كلّ الأزمان وكلّ الأماكن.

والذين تناولوا حياة الذهبيّ الفم قالوا: «أمّه كانت مسيحيّة تقيّة ورعة. وبالطبع هي تقيّة بالقدر الذي تكون عليه النساء المسيحيّات،

الباقيات وحيداتٍ في هذه الدنيا. وتقوى الأمّهات الوحيدات كبيرة وعميقة وأصيلة.

ولكنّ التقوى أو القداسة لا تنتقل بالوراثة.... فإذا كانت أمّ يوحنّا تقيّة، فهذا لا يعني أنّ جهادات الذهبيّ الفم كانت أخفّ حدّة...

هناك حدث مهمّ في حياة الذهبيّ الفم، ألا وهو ظهور الفيلسوف ليبانيوس، الوثنيّ، وهو صاحب أشهر مدرسة في القسطنطينيّة. ولكنّه طُرد منها فأسّس مدرسة في نيقوميذيا، حيث كان نصيبه الطرد أيضًا، فقفل راجعًا إلى مسقط رأسه أنطاكية، طريدًا ومشهورًا. وما كاد الخبر ينتشر أنّ ليبانيوس فتح مدرسة، حتّى تدفّق عليه التلاميذ من كلّ حدبٍ وصوب. وكان المعلّم ليبانيوس يتمتّع بمكانة عالية، ليس فقط عند الأباطرة فحسب، بل كانت له كرامة خاصّة عند القدّيسين أنفسهم. فالقدّيس باسيليوس الكبير كان يفاخر بصداقته للفيلسوف، ويُقرّ بنبوغه ومقدرته. وكما أنّ الوردة تفوح برائحة طيّبة وفيها شوك، هكذا كان ليبانيوس بالنسبة إلى القدّيس باسيليوس الكبير. ومَن منّا لا يحبّ الورد؟

ولماّ أنهى يوحنّا دراسته الابتدائيّة، أرادت أمّه أن يتابع دروسه العليا على يد أشهر أستاذ. ولما استشارت أسقف أنطاكية، قرّرأيهما معًا على أن يذهب الشابّ إلى المعلّم ليبانيوس.

ونبغ يوحنّا وانتزع إعجاب أستاذه وزملائه، حتّى إنّ ليبانيوس كتب له يقرّظه على فصاحته وبلاغته وصفاء فكره. إلاّ أنّ مؤرّخي هذا القدّيس، لا يريدون أن تكون هناك علاقة أوصداقة بين القدّيس والفيلسوف الوثنيّ، وذلك زيادة في التزمّت وحرصًا على سمعة القدّيس. وقد سها عن بالهم أنّ يوحنّا كان تلميذًا من تلاميذ ليبانيوس، وأنّ الصداقة العلميّة ممكنة بين الذين اختلفت آراؤهم وعقائدهم. ألم يكن بين القدّيس باسيليوس والفيلسوف صلة مستمرّة؟

وتخرّج يوحنّا من مدرسة ليبانيوس، وسجّل اسمه في نقابة المحامين. ولا شكّ في أنّه اشتهرفي علومه الدنيويّة. إلاّ أنّ الذي وصل لنا عن نشاطه

في هذا الحقل، قليل وذلك عائد، عند مؤرّخيه، إلى السبب الآنف الذكر.

وهكذا نرى أنّ التاريخ لا يذكر لنا شيئًا ذا قيمة عن حياة القدّيس قبل انخراطه في الكنيسة.

تمكّنت الصداقة بين الأستاذ وتلميذه، حتّى إنّ ليبانيوس فكّر جدّيًّا في أن يخلفه يوحنّا في إدارة مدرسة أنطاكية. ولكن حدث ما لم يكن ضمن نطاق علم الفلسفة والفلاسفة، فتغيّر مجرى الأمور، ولم تنجح خطّة ليبانيوس. ففي السنة ٣٦٧ أصبح يوحنّا قارئًا في كنيسة أنطاكية. ومن هنا ابتدأت سلسلة الجهاد في سبيل بلوغ القداسة.

الفصل الثاني

وكان يوحنّا فخورًا بأنّه نالَ نعمة العماد في كنيسة أنطاكية، لأنّها من أقدم الكنائس، ولأنّ الرسل هم مؤسّسوها.

وبدون أثر للندامة أو الأسف، أدار الذهبيّ الفم ظهره لأستاذه ليبانيوس وللعالم الوثنيّ. الوثنيّة ماتت بموت الأمبراطور جوليانوس الجاحد: هياكلها هُدمت، وأحرقت كتب الفلاسفة والشعراء الوثنيّين: أفلاطون، أريستطاليس، هوميروس...

وشبّه الذهبيّ الفم الفلسفة القديمة بـ«امرأة مبرقعة لا جمال طبيعيّ لها». كما قال عن المسيحيّة، الفلسفة الحقيقيّة: «الحمقى والجهّال أصبحوا بها فلاسفة».

وانهيار المعتقدات القديمة، رافقه انهيار الأمبراطوريّة الرومانيّة. انتشر الفساد في جسم الأمبراطورية الرومانيّة، والأشياء القديمة تكون أكثر عرضة للفساد. هذا في الداخل. أمّا في الخارج فكانت جيوش البرابرة تحوط بها وتهدّدها بالغزو والفتح. في هذا الحين، فيما الأمبراطوريّة تغور كالمركب تبتلعه اللجج، كانت الشبيبة والسواد الأكبر من الناس يفتّشون عن الخلاص. والغرائز قويّة عند هؤلاء الناس، وبخاصّة غريزة الحياة أو المحافظة على الحياة. يريدون أن يعيشوا. وفي هذه المرّة وجدوا خلاصهم في الكنيسة. وتزايد الارتداد إلى الكنيسة، بالألوف المتلاحمة، كانوا يقبلون إلى خشبة الخلاص. الشبيبة والجماهير، لا ينظرون البتّة إلى الوراء، كما لا يلقون نظرة إلى ما تدوسه أرجلهم. هذا في طبيعتهم. عيونهم شاخصة أبدًا

إلى الأمام. والذهبيّ الفم عاد لا ينظر إلى الوراء، بعد انضوائه تحت لواء المسيحيّة، «من وضع يده على المحراث لا يلتفت إلى الوراء».

أمّا ليبانيوس المتقدّم في السنّ والمعرفة، فقد تأكّد له أنّ يوحنّا أعرض عنه، ليسير في ركاب العالم المنتصر. وهل المعرفة تنفي الحسرة والألم؟ وليبانيوس تألّم كثيرًا لإفلات تلميذ هو أكثر تلاميذه محبّة في قلبه. إلاّ أنّ هذا الفيلسوف لم يكن عاجزًا عن التجرّد والترفّع فوق وضعه كوثنيّ، فيعجب ببعض النواحي في الديانة الجديدة. قال يوحنّا: «في يومٍ تكلّم أستاذي علنًا عن والدتي. قال: «آه! ما أعظم النساء المسيحيّات». وسئِل ليبانيوس مرّةً عمّن سيخلفه في إدارة مدرسته فأجاب: «يوحنّا، لو لم يسرقه منيّ المسيحيّون».

واستمرّ إعجاب الأستاذ بتلميذه إلى ما بعد انتقال يوحنّا إلى المعسكر الخصم، كما كانت حاله تجاه باسيليوس الكبير وغريغوريوس، إذ تركاه وانضمّا إلى المسيحيّة. وقد ذهب أبعد من ذلك، فعبّر عن إعجابه في رسالة إلى القدّيس باسيليوس، قال فيها: «كنتَ شابًّا وكنتُ أعجب برجاحة أخلاقك، وحكمة الشيوخ الناضحة من عقلك. وتساءلت بعد رجوعك إلى وطنك: هل يمتهن التعليم أم ينخرط في سلك المحاماة؟ وجاءني الجواب بأنّك سلكت طريقًا أفضل، وبأنك تفضّل أن تصبح صديقًا للربّ على ربح الأموال. أهنّئ أبناء كبادوكية وأهنّئك أنت، لأنّك أحسنت الاختيار وهم، لأنّ لهم مواطنًا كبيرًا مثلك.» ليبانيوس.

وبالتأكيد، ليبانيوس كتب أيضًا إلى الذهبيّ الفم يهنّئه «على اختيار الربّ صديقًا دون الأموال، التي يربحها من تعليم الفلسفة أو ممارسة المحاماة». لأنّ هذا الأستاذ منسجم مع وضعه الإنسانيّ. والرجل المتقدّم في السنّ يرتفع بسهولة فوق الأهواء والميول، هذا إذا كان فيلسوفًا.

كان الأنطاكيّون يعتبرون أسقف المدينة أبًا لهم لأنّه محبّ وتقيّ. والأسقف ملاتيوس، وهذا اسمه، أرمنيّ الأصل ذاق طعم المنفى ثلاث مرّات أثناء أسقفيّته، وتمتّع بمحبّة اليهود والوثنيّين، فضلاً عن المسيحيّين.

وأجمع سكّان المدينة على اعتباره قدّيسًا. قال عنه الذهبيّ الفم: «وجهه ينضح قداسة كأنّه يبشّر بوجهه». وكتب عنه غريغوريوس النزينزيّ: «رجل بلا مظهر، بسيط السريرة، مملوء من الله، تنمُّ تقاسيم وجه عن هدوء قلبه. إنّه واحد من أولئك الرجال الحاملين في كلّ خليّة من كيانهم سلام الله، الذين مجرّد وجودهم يسكّن العواصف الهائجة».

وليس إعجاب القدّيس باسيليوس الكبير أيضًا بالأسقف ملاتيوس، أقلّ من إعجاب يوحنّا وغريغوريوس. واندفع الذهبيّ الفم في مدرسة معلّمه الجديد بكلّ زخم سنّه. على كلّ حال، السكّان جميعًا يظهرون تعلّقًا متينًا بأسقفهم. والقدّيسون، في بدء حياتهم، لا ينجون من تأثير العصر الذي يعيشون فيه. يوحنّا إذًا لم يشذّ عن أبناء مدينته. يعطي الفلاسفةُ الوجوديّون، المعاصرون، تحديدًا للإنسان بأنّه مجموعة الأعمال التي يقوم بها. ولكنّ أعمال الإنسان غالبًا ما يمليها عليه عصره. هكذا انجرف الذهبيّ الفم بالتيّار عينه الذي أسر سكّان أنطاكية.

وكتب يوحنّا يقول: أعطى الشعب اسم الأسقف لأولادهم، وكأنّهم بهذه الوسيلة يُدخلون القدّيس إلى بيوتهم، نورًا للعائلة ونداء إلى التقوى، حتّى أصبح اسم ملاتيوس على كلّ شفة ولسان، وفي كلّ مكان.

وعندما عاد ملاتيوس من النفي إلى أنطاكية، قال الذهبيّ الفم: «بفرحٍ عارمٍ استقبل الأنطاكيّون أسقفهم: الواحد يقبّل يديه، والآخر رجليه، والذين حرمهم الزحام الوصول إليه، اعتبروا أنفسهم سعداء، فقط لأنّهم كحّلوا عينيهم برؤية وجهه. ولكنّ حظ يوحنّا كان أكبر من سكّان أنطاكية المستقبلين المهلّلين. لماذا؟ لأنّ يوحنّا أصبح تلميذًا للأسقف، يعايشه، تنساب نظراته على وجهه غيرَ مرّةٍ في النهار، وتسكر شفتاه بخمرة القداسة الطافحة على يديه.

ولا ننسى أنّ والدة يوحنّا أدّت دورًا إيجابيًّا في هذا كلّه، لأنّها كانت واحدة من أولئك النساء الأرامل التقيّات، اللواتي كنَّ يقدّمن المساعدة للكهنة والأساقفة. وبحكم تقرّبها من الأسقف ملاتيوس قدّمت ابنها إليه،

فـ تَحْـد تحت رعايته، وأوكل أمر توجيهه إلى أشهر أساتذة اللاهوت وأقدرهم في أنطاكية، هو الأستاذ ذيوذوروس.

لم يصل إلينا من كتابات ذيوذوروس، الذي أصبح في ما بعد أسقف مدينة طرسوس، إلاّ بعض شروحات للكتاب، وهو فيها، يتبع طريقة المدرسة الأنطاكيّة، أي الرجوع إلى الإطار التاريخيّ، والاعتماد على الحرف. فاللاهوتيّون الأنطاكيّون بعيدون عن التصوُّف (Mysticisme)، يدرسون الكتاب حرفيًّا كما هو مكتوب. اعتاد يوحنّا أن يقرأ بصبرٍ وتأنٍ متوقّفًا عند كلّ كلمة، عند كلّ حرف، كأنّه ينظر عبر مجهر، يتفحّص الدقائق ويتمهّل عندها. فأصبح من أحسن العارفين بالكتاب. وقارئ كتاباته يحسب أنّه حفظ الكتاب المقدّس عن ظهر قلب.

وأثناء الدراسة اللاهوتيّة، اختار يوحنّا طريقه وصمّم على أن يصير، مثل الرسول بولس، قدّيسًا. فإنّ إعجابه بالرسول كان كبيرًا جدًّا. وقد قال: «قلب بولس هو قلب المسيح. فاقتدوا به أيّها الأخوة، كما اقتدى هو بالمسيح». ويجدر القول إنّ شبهًا جسديًّا موجود بين الاثنين: كلاهما قصير القامة: «من هذه الجهة ليس للرسول بولس عليَّ أيّ امتياز». وكانت أيقونة بولس موجودة في غرفة يوحنّا. ويعرف الذهبيّ الفم أنّه لن يُدرك بولس في ما حقّقه الرسول على الأرض، ولكنّ الله لا ينظر فقط إلى النجاحات، بل إلى الجهود أيضًا. «كلّ إنسان يحاسَب على الأتعاب التي بذلها، أي ليس بالنسبة إلى عظمة الأعمال التي يكمّلها، بل بالنظر إلى المحَن والمصائب التي يتحمّلها. لهذا يفاخر بولس بآلامه ولا يعدّد الأعمال. وإذ يقابل نفسه بالرسل الآخرين، لا يشعر بأنّه أدنى منهم، بل على العكس. ولكن بماذا يفضّلهم؟ هل بالتبشير؟ هل بالأعمال الصالحة؟ بل إنّه يعدّد آلامه وأوجاعه». بهذا يمتاز إنسان عن إنسان بالمجهود وليس بالنتيجة (١كور ٣: ٨).

وهكذا قرّر يوحنّا أن يصير مثل بولس. طالما أنّ القداسة لا تقاس بالقوّة، إنّما بقبول الآلام وتحمّلها، فهو إذًا سيحصل على النعمة ويغدو قدّيسًا. ولهذا ضحّى أو هو بدأ التضحية بكلّ شيء، واندفع بزخمٍ وحماسٍ

إلى صميم المعركة. منذئذٍ لم يعش الذهبيّ الفم إلا لتحقيق غايته. درس ليلاً ونهارًا، وتعمَّق في تعليم المسيح، مريدًا أن يطبّقه حرفيًّا في حياته. قلَّل من النوم، وقلَّل من الطعام. وقطع كلّ صلةٍ بالعالم. وكان يعرف، على كلّ حال، أنّ هذه بداءة. وليست إلا بداءة. لم يعطِ قيمة للثمار والظواهر، هذا صحيح، ولكنّه أظهر كثيرًا من الجلَد والصبر. وبدأ الناس يقدرّونه ويمدحونه. أنطاكية بأسرها تكلّمت على ابن أنثوسة، الشاب الذي بزَّ رفاقه جميعًا. وأدرك يوحنّا خطر العظمة المداهم، وأراد صدّه لأنّ كلّ ما حقّقه، حتّى هذا التاريخ، ما هو إلاّ من ثمار النعمة. وأعلن بقوّة أنّه لا يستحقّ هذا الانتباه من أبناء مدينته. ولماذا كلّ هذا التقدير؟ ألأنه «عبَّس وقطَّب، وارتدى وشاحًا أسود، وأسدل على جبينه ستارًا من التواضع مزيّفًا؟».

ويوحنّا مخلص في إدراك هدفه، ويعرف أنّ الطريق طويل. أخطأ الذين ظنّوه قطع الشوط فمدحوه. ولكن، هذا واقع الحياة: العالم يعطيك ما لست فيه راغبًا. وأنطاكية قدَّمت للذهبيّ الفم المجد الذي كان يهرب منه. إلاّ أنّ يوحنّا كان أشهر خادم للكنيسة، بعد الأسقف ملاتيوس. اشتهر كخطيب، واشتهر بالفضيلة.

«تعالوا نسمع ما يقول هذا الفم الذي صنع خلاصه. نقدر على أن نقول في هذا الفم، ما قاله موسى عن أرض الميعاد. وماذا قال موسى؟ سمّاها أرضًا يجري فيها اللبن والعسل. فلننقل إذًا الكلام ذاته في هذا الفم، الذي يقطر عسلاً ولبنًا. تذوّقوا هذا اللبن وتغذّوا بهذا العسل. وأخيرًا أصيخوا سمعكم لهذه القيثارة وهذا البوق: قيثارة بعذوبة ألفاظه، وبوق حربيّ بقوّة أفكاره» (ذيوذوروس).

وفي الحقيقة، سيطر يوحنّا على مستمعيه سيطرة شاملة وعميقة: يُبكيهم متى شاء، ويُفرحهم متى شاء، أو يدهشهم، أو يرعبهم، أو يثير فيهم اللذّة. بالاختصار كان يتلاعب بعقولهم على هواه. وما أقدسه هوًى!

المجد يولّد لذّةً مسكرة. إنّه مثل الخمرة. ولكنّ الذهبيّ الفم رفض المجد. هو يريد قداسة، قداسة أصيلة مثل بولس. والعالم يقدّم له المجد.

وعندما أصبح يوحنّا معبود الجماهير، «ضمّ الجماهير» عندما تكابر مجده، حتّى ملأ أنطاكية وعندما شعر أنّ هذا المجد حاجز منيع في سبيل القداسة، عندئذٍ ماذا فعل؟ قرّر أن يترك المدينة.

لم يكن يوحنّا الوحيد في بني جنسه الذي يترك العالم. فأخبار الرجال والنساء، من عليّة القوم، يتركون المدينة وزخرفها وأمجادها، متوغّلين في أعماق البراري والصحاري طلبًا للقداسة، هذه الأخبار أصبحت عاديّة وما عاد الأنطاكيّون يدهشون لها. ولكنّ الذهبيّ الفم أراد أن يصطحب معه شخصًا آخر. في المخاطرات يُستحسن ألا ينطلق الإنسان وحده. ورفيق يوحنّا في معارج القداسة، تلميذ للمعلم ذيوذوروس اسمه باسيليوس. قد يكون باسيليوس أصبح قدّيسًا، إلاّ أنّ اسمه لم يُكتب في التقويم (لائحة القدّيسين) قدّيس على حسابه الخاصّ! والكنيسة تعرف أنّ قدّيسين كثيرين ظلّوا مجهولين وهي تصلّي إليهم.

وحدّثنا يوحنّا عن رفيقه قال: «كان باسيليوس لا ينفكّ يترجّاني أن نهرب من البيت الأبويّ، فنختار مسكنًا مشتركًا». هذا الهرب إلى المجهول هو أقصر الطرق الموصلة إلى القداسة. هكذا كان يفكّر الناس في تلك الأيّام. يقول القدّيس باسيليوس الكبير إنّ الهرب من العالم هو الطريق الوحيد المؤدّي إلى الله. قال: «قرأت الإنجيل وأدركت أنّ أسلم الطرق لبلوغ الكمال، هي أن يبيع الإنسان كلّ ما له، ويوزّعه على أخوته المحتاجين، وينعتق من كلّ الاهتمامات العالميّة، فتنجو النفس من الاضطراب الناشئ عن التعلّق بالأشياء الحاضرة».

يوحنّا وباسيليوس يريدان الانفصال عن العالم، وترك الماضي وعواطفه ومصالحه ولذائذه، ليحاوطا نفسيهما بهدوء، يضمن لهما التحرّر فتصبح نفسهما وكأنّها صفيحة من الشمع لم ينطبع عليها شيء وبعد الانقطاع عن العالم يذهبان إلى البرّيّة، حيث يقدر الإنسان على أن يجترح الخوارق.

وأوّل كسب يجنيه اللاجئ إلى البرّيّة، هو تجاوز المعقول الإنسانيّ

كانت أخبار المتوحّدين في القرن الرابع، تُلهبُ الإعجاب وتُضعف مناعة الشباب أمام تجربة البرّيّة، فيندفع الشبان إلى تعدّي حدود الإنسان، إلى بلوغ القداسة، إلى صنع العجائب.

ويحدّثنا يوحنّا بإعجاب لاهب عن المتقشّفين وحياتهم فيقول: «في برّيّة مصر أجواق من الملائكة في أجسام بشريّة. جماهير من الشهداء وجماعات من العذارى. إنّ نجوم السماء لأقلّ لمعانًا من خلايا الرهبان المتألّقة في برّيّة مصر».

الراغبون في القداسة من أهل الإسكندريّة، يقصدون صحراء النيل العليا، وسكّان أورشليم يقصدون الصحراء العربيّة. وأبناء أنطاكية كانوا يلجأون إلى جبال طوروس، أو إلى المناطق الصحراويّة المحيطة بالبحر الأسود. «أن تلجأ إلى الدير يعني أن تفرغ من الأرض إلى السماء» (الذهبيّ الفم).

وكان الصديقان الحميمان عارفين بالمعجزات التي يقوم بها آباء البرّيّة. القدّيسون يقدرون على كلّ شيء. أن يصير الإنسان قدّيسًا، يعني أن يقهر المستحيل بمساعدة الله. فالناسك (سيزاريون) عاشَ على الثلوج عاريًا وقهر البرد. وعلى بضع عشرات الكيلومترات من أنطاكية، عاش الناسك سمعان مدّة ثمانية وأربعين عامًا على عمود (سمعان العموديّ). بالنسبة إلى الناسك المتكامل المستحيل يغدو ممكنًا. المحال يصبح عاديًّا لأنّ القداسة تتجاوز الطبيعة. ناسك حقيقيّ يقدر مثلاً على أن يقطع نهر النيل من ضفّة إلى أخرى على ظهر تمساح. «يروى أنّ هيلاريون الناسك زار جماعة من المؤمنين على ضفاف النيل، ولم يكتم دهشته لعدم الاحتفال بالخدمة الإلهيّة، إذ كان اليوم يوم أحد. وسألهم عن السبب فكان الجواب أنّ الكاهن يسكن في الضفّة الأخرى، وأنّ تمساحًا سطا على النهر فعاد المرور غير ممكن. فقال الناسك: أنا أذهب وآتي بالكاهن. واقترب من النهر، وأشار بيده إشارة كان بعدها التمساح يقدّم ظهره لنقل الناسك إلى الضفّة الأخرى. ولكنّ هيلاريون لم يفلح في إقناع الكاهن بمرافقته على

ظهر التمساح».

كانوا يتناقلون، في تلك الأيّام، أخبار سكّان البراري المدهشة: هم يعيشون بلا نوم، بلا طعام. لا يحسّون بالبرد ولا يشكون التعب. ويعتبر الذهبيّ الفم أنّ حياة المتوحّد، هي أعلى درجة يقدر إنسان على أن يرقاها، في طريق القداسة. وقد وضع دراسة بعنوان: «مقابلة حياة الملك بحياة الراهب». كان فيها مجد الراهب أكبر بما لا يقاس من مجد الأمبراطور. «الرجل المنخرط في خدمة المسيح، يشبه إنسانًا يقف على مرتفع يطلّ على البحر، فيرى الذين في اليمّ وكأنّ العاصفة أسرتهم، تارة يغوصون في أعماق اللجج، وتارة ترميهم الأمواج على الصخور فيتحطّمون. أمّا هو، فهو في مأمنٍ من أمواج الحياة الصاخبة، لأنّه على صخرة المسيح». والراهب في رأي الذهبيّ الفم يعيش مغمورًا بالهدوء المطلق والسكينة العميقة، وإذ هو ملكٌ لله يشعر أنّ نفسه مجنّحة، خفيفة، نقيّة، أنقى من الأثير الصافي. ويذهب يوحنّا الذهبيّ الفم إلى أنّ رقاد هؤلاء الرجال يختلف عن رقاد سائر الناس: «رقادهم حلوٌ خفيف بشكل يسمح لهم فقط بالراحة. لا غطيط ولا أحلام مزعجة ولا تقلّبات، كما يحدث لأصحاب النوم العميق الذين يشبهون الأموات».

أتمّ يوحنّا وباسيليوس كلّ التدابير اللازمة، ولم يبق لهما إلاّ أن يرتميا في المخاطرة الكبرى. وفي اللحظة الحاسمة حدث شيء صغير، صغير جدًّا إذا قسناه لأوّل وهلة، بهدف سامٍ ورفيع. هذا الشيء الصغير ألقى بكلّ المقرّرات والتصاميم في المياه، دفعةً واحدة. وقد يكون هذا المانع تافهًا، في نظر الناس العاديّين، حتّى يعرقل مشاريع القداسة عند يوحنّا. لقد تدخلت أمّ يوحنّا. لا شكّ في أنّ أنثوسة امرأة مسيحيّة طيّبة، ولكن من الصعوبة بمكان أن ترضى أمّ بذهاب ابنها إلى أعماق البراري. ولم تتصرّف أنثوسة إلاّ كما تفعل كلّ أمّ. بكتْ واستعطفت ابنها ليظلّ بقربها. ونفهم عبر حديثها إلى وحيدها، أنّ شقيقة يوحنّا قد ماتت. فلم يبقَ إذًا لهذه الأرملة المسكينة إلاّ عزاء واحد هو بقاء ولدها عندها. وكسائر النساء، توسّلت بالدموع.

وللدموع تأثير فعّال وقلّ من صمد له. وكتب يوحنّا يقول: «ما كدنا نبدأ بتنفيذ ما رسمنا حتّى تدخّلت أميّ، المحبوبة جدًّا، ضدّ المشروع. لقد أمسكت بيدي وقادتني إلى غرفتها الخاصّة. وأجلستني، وجلست قربي، على الفراش ذاته حيث شاهدتُ النور لأوّل مرّة. وهنا فاضت دموعها وكانت زفراتها تقطّع نياط قلبي، وعباراتها العذبة الحنونة تمعن في التقطيع... وممّا قالته لي: «انتظر فراقي هذا العالم، ربّما يكون قريبًا. لقد بلغت سنًّا لا يُنتظر معه إلاّ الموت. وعندما تعيدني إلى التراب، وتجمعني إلى أبيك، اذهب حيث تشاء؛ سافر إلى البعيد البعيد، إرمِ بنفسك في لجّة اختيارك فعندئذٍ ليس من يمنعك. ولكن طالما أمّك تتنفّس وتتألّم، لا تتركها ولا تُغضب الربّ إلهك، إذ تلقيني بلا مبرّر وبلا فائدة في لجج من الآلام، أنا التي لم أصنع لك شرًّا». وتابعت أنثوسة: «يا بنيّ إذا استطعت أن تنسب إليّ أنّي أزيد همومك الحياتيّة، فأنت حرٌّ من شرائع الطبيعة. دسْها برجليك ولا تأخذ في الاعتبار شيئًا، واهرب منّي كعدوةٍ تنصب لك الكمين... إذا كنتُ صنعتُ بك شرًّا!!».

وكان هذا الحادث نقطة الثقل في حياة يوحنّا، وعلى ضوئه سيتقرّر نهائيًّا مصير الذهبيّ الفم: هل يصبح قدّيسًا أم لا؟ من الأكيد أنّ الحصول على الطهارة المسيحيّة يفرض الهرب من العالم. هذه النجوة هي الطريق الأقصر نحو القداسة. ولكنّ الذي يدوس برجليه كائنًا إنسانيًّا، إذ يهرب من العالم، فإنّه يسدّ على نفسه طريق القداسة إلى الأبد.

سحقُ الإنسان قد يجعلك مصلحًا اجتماعيًّا، قائدًا كبيرًا. دليلاً للشعوب، مكتشفًا مخترعًا... ولكنّك لن تصير قدّيسًا إذا محوتَ ولو إنسانًا واحدًا. الخطوة الأولى نحو القداسة هي محبّة الناس وبالتحديد كلّ الناس، والفضيلة المسيحيّة لا تُدرَك إلاّ إذا أحببنا كلّ خليقة إنسانيّة. طريق القداسة مسدود أمام الذين لا يخضعون لشريعة المحبّة. قد يأتي يوم تقترب فيه الإنسانيّة أكثر فأكثر من العدالة وذلك بفضل الاشتراكيّة. بل هذا ممكن. والذين يبشّرون بهذه النظريّة نعتبرهم مصلحين اجتماعيّين إنسانيّين. ولكنّ هذا المجتمع، العادل بفضل الاشتراكيّة، يسير برجلٍ

واحدة ولن يتمتّع بالمجد الخالد، إذ إنّ تحقيقه ارتكز على تصفية بعض الفئات الاجتماعيّة الأخَر. فهو مجرّد إذًا من القدسيّة. تمامًا كالتطوّر التقنيّ الذريّ الذي يدفع ثمنه البحّارةُ اليابانيّون من حياتهم. كلّ إصلاح يقوم على التفريط بالإنسان، ينتهي إلى مجد عالميّ زائل، خالٍ من أيّ جمال إلهيّ خالد. أمّا القداسة فتبدأ بمحبّة الإنسان.

يعرف الذهبيّ الفم أنّ قيمة النفس أكبر من مُدنٍ كثيرة ومن أمبراطوريّات العالم. ولو أنّه سحق قلب أمّه، لما ظهر اسمه أبدًا في لائحة القدّيسين، ولكنّه اختار التصميم الأكبر الذي يقوده نحو الله. وهكذا بقي إلى جانب أمّه.

التقشّف، الوحدة، التنسّك، الصلاة، الصوم كلّ هذه الأمور الصالحة، لا تساوي بادرة الحبّ تجاه تلك المرأة، ذات الشعر الأبيض، الباكية المستعطفة. ومن هي تلك المرأة؟ إنّها الأمّ!

وبقي يوحنّا وذهب باسيليوس.

وضع يوحنّا يَده على المحراث، وخطا الخطوة الأولى في طريق القداسة. ولكنّ الطريق طويل، أطول من الطريق إلى النجوم. وإذا كان يوحنّا لم يذهب إلى القفر، فإنّه أتى بالقفر إلى المدينة، وأسكنه معه تحت سقفٍ واحد. أمّه لم تطلب منه إلاّ شيئًا واحدًا. وطلبها واضح: أن يبقى معها طالما هي على قيد الحياة. أطاع. ظلّ في البيت. ولكنّه من تلك اللحظة بدأ يعيش تمامًا كما لو كان في البرّيّة.

فأعاد النظر في ترتيب غرفته: السرير ألقاه خارجًا مع كلّ أثاث الغرفة. ورفض الخدمة التي تقدّمها له خادمات أمّه. وراح يهيّئ حاجاته بنفسه على مثال قاطني البراري. واختصر ساعات النوم قدر الإمكان. عاد لا يقابل أحدًا، لا يخرج من غرفته ولا يستقبل أحدًا فيها. يتناول وجبة واحدة يوميًّا من الخضار المسلوقة. كرّس وقته للدرس والصلاة. سعى إلى السيطرة على شهواته وغرائزه، كما يسعى أبناء البرّيّة. عاش في وحدة مطلقة بين جدران غرفته العارية.

يقول: «لم تخمد شهواتي، إنّما أصبحت مُعاركتها أسهل. كما أنّ الوحوش الضارية، إذا شبعت تطرح بسهولة مهاجميها، وإذا جاعت تخفّ حدّة هيجانها وتتدنّى قوّتها، هكذا شهوات النفس وغرائزها... وأنا، في عزلتي، جاهدت للسيطرة على شهواتي، وتوصّلت بالنعمة الإلهيّة إلى السيادة عليها، وغدوت أسمع عواءها وكأنّه صاعد من وادٍ عميق. هذا هو السبب الذي يجعلني ألازم غرفتي وأغلقها في وجه أي زائر».

والأعداء الألدّاء، بل ألدُّ الأعداء، ليوحنّا المعتكف في غرفته، يسمّيهم لنا فيقول: «نفسي ضعيفة فلا الإهانات تتقبّلها بتروٍ ولا المدائح». ولكنّه لم يكن معرّضًا للإهانات. إنّما كانت المدائح تنهال عليه. وهنا الخطر الذي يخافه. لأنّ مجده كان يتعاظم بقدر ما كان اعتزاله كبيرًا. المدينة كلّها تلهج بحكمته، بفضيلته، بفمه الذهبيّ، بعبقريّته: شابٌّ يعيش في قلب المدينة كما يعيش المتوحّدون في البراري والقفار! لم تتحمّل أنطاكية هذه القداسة النادرة فاقتحمت قدسيّة عزلته، لتنتزعه من وحدته وتجلسه على عرش الأسقفيّة.

وأرسلت أنطاكية من يقول لباسيليوس، وهو في أحد الأديار القريبة، إنّ الكنيسة التي أسّسها الرسل قررت أن تجعله مع يوحنّا أسقفين من أساقفتها. وحاول يوحنّا أن يُفلت. ليس لأنّه لا يؤمن بسموّ الكهنوت، بل لأنّه لم يقتنع بأنّه حصل على الكمال الذي يؤهّله لارتداء الثوب الكهنوتيّ. هذا الكمال يحتاج إلى جهودٍ لم يكن يوحنّا مقتنعًا بأنّه أكملها. ولكنّ الأنطاكيّين رفضوا هذه الحجّة. ولجأ يوحنّا إلى غيرها. قال لهم إنّه ما يزال صغير السنّ، فليختاروا أسقفًا بين المتقدّمين في السنّ. «لأنّه لا يليق إبعاد الذين عاشوا حياتهم الطويلة في خدمة الكنيسة، وتسليم زمام السلطة إلى شبّان: فيخضع الآباء لطاعة الأبناء».

إذًا، رفض يوحنّا الأسقفيّة وضع الركيزة الثانية في بناء القداسة. الأولى كانت المحبّة، والثانية الرصانة، رجاحة العقل. العلاقة بين الإنسان والله هي أرصن عمل يقوم به المخلوق الإنسانيّ على الأرض. والكهنوت

يتطلّب العمق والنضج والوقار. ولم يكن يوحنّا يرى في نفسه الاستعداد لهذا العمل. كان متأكّدًا أنّه يقدر على أن يرتفع أيضًا أكثر ممّا فعل. لهذا رفض الأسقفيّة. ولكنّ أنطاكية أجمعت على اختيار يوحنّا. الرؤساء الروحيّون، الأصدقاء، الشعب، كلّهم أصرّوا على أن يصير يوحنّا أسقفًا مع باسيليوس. وتجاه هذا الإصرار الحازم خضع يوحنّا. ولكنّ هذا الخضوع كان من باب التهدئة. انحنى لتمرّ العاصفة. وفي اليوم المعيّن اختفى، وبدون أن يترك أثرًا يدلّ عليه أو يُطلع أحدًا على نيّته. ويعترف بذلك فيقول: «وبعد قليل من وصول الأسقف المكلّف بوضع الأيدي هربتُ». ولمّا يئسوا من العثور عليه سقّفوا باسيليوس وحده.

أراد يوحنّا أوّلاً أن يدرك البطولة في المسيح، وأن يحوز الشجاعة الكبرى التي تخوّله الصمود أمام مواطنيه، في ما يتعلّق بالإيمان وبالله. فرفض إرضاءهم إذ لم يقبل الأسقفيّة. «إذا أرضيت الناس فلست إذًا خادمًا للمسيح». هذا التعليم أخذه يوحنّا من بولس الرسول، واقتنع به شعارًا في حياته على الأرض: لا يضحيّ بالله من أجل إرضاء الناس.

وكانت الصدمة عنيفة على باسيليوس. ويوحنّا يعرف أنّ صديقه الصدوق حزن لهذا العمل. إلاّ أنّه غير مستعدّ لأن يقبل الكهنوت إرضاءً لأحسن صديق. لا يهمّه إرضاء الأصدقاء. لا يريد أن يخدم إلاّ المسيح. بهذا التصميم الشجاع ترك أنطاكية. هذه المرّة لن يتراجع لأنّ أمّه ماتت. وسيتابع طريقه نحو الكمال. هذه الطريق تمتدّ عبرَ الصحراء، عبر التقشّف، عبر الامتحانات العنيفة التي يجتازها الإنسان، للسموّ فوق الطبيعة الإنسانيّة والتقرّب من الله.

الفصل الثالث

الممتلكات والثروة التي ورثها يوحنّا عن أبيه، وحافظت عليها أمّه بأمانة، وزّعها هو على الفقراء. ولم يحتفظ إلاّ «برداء وحذاء ومفروش». هذا كلّ ما حمله معه إلى الدير. على أيّ حال، لم يشعر يوحنّا قطّ بحبّ الامتلاك. وزّع ثروته على إخوته المساكين، وكرّس نفسه فقط للربّ. ولم يكن تنازله عن أملاكه ذا قيمة في نظره. سوف يتنازل عن الأكثر. بدخوله الدير، تنازل أيضًا عن لحمه ودمه. وأصبح الرهبان أخوته. وكفى. بقي عليه أن يتنازل عن «ذاته» وهذا الأصعب. واجب الراهب طاعة رئيسه. وخضع يوحنّا لهذا الواجب، وكأنّه ينكر عينيه وحواسه. وانسجم مع هدفه الأعلى: تحويل نظراته عن الأشياء الخارجيّة المحيطة به، والتطلّع فقط إلى الله والأبديّة.

ومن القواعد الرهبانيّة التي وضعها القدّيس مكاريوس، ألاّ يلاحظ الراهب إذا كان شيء من ممتلكاته، الرداء والحذاء والمفروش، قد سُرق أو ضاع أو تمزّق. لأنّ قول الراهب بأنّ لا مفروش له، مجرَّد هذا القول، يعني أنّه ما يزال يهتمّ بالأمور الخارجيّة... الاهتمام بهذه الأشياء منوط بالمدبّر الشخصيّ الوحيد، المسموح له بمراقبة حاجات الأخوة الرهبان. الماضي، حتّى صور الماضي، يجب أن تزول من ذاكرة الراهب. والنوم يُختصر إلى ساعات قليلة. والاستيقاظ يحدث مباشرة بعد انتصاف الليل. «خدّام الربّ يعتبرون نصف الليل ما يعتبره سائر الناس بزوغ الفجر» (باسيليوس). ولا يسمح للراهب بالخروج من الدير منفردًا، ولا بأن ينظر

إلى وجه امرأة، حتّى ولا إلى ملابسها. والراهب يقبل ما يُنسب إليه من خطأ حتّى ولو لم يرتكبه، ولا يدافع عن نفسه ولا يقول إنّه لم يخطئ حتّى ولو كان بريئًا، بل، وفي كلّ الأحوال، يطلب المغفرة بانسحاق صادق. والعمل الجسديّ إجباريّ، إلاّ أنّ الصلوات المشتركة تتوزّع على ستّ مراحل، لئلا يتأثّر الجوّ الروحانيّ الداخليّ. دراسة الكتب الإلهيّة مستمرّة. والانعتاق من العالم المادّيّ، من الجسد عينه، بلغ درجة التحريم على الراهب أن ينظر إلى جسده حتّى في وقت الاستحمام، لأنّ الجسد هو من العالم الخارجيّ «من الأشياء المنظورة الزائلة».

وعاش يوحنّا أربع سنوات حسب القواعد التي ذكرناها. وكتب في هذه الأثناء دفاعًا عن الحياة الرهبانيّة، ينصح فيه الأهل والأقرباء بتشجيع أولادهم على اعتناق حياة المتوحّدين. وأصبح يوحنّا محامي الرهبان ضدّ العائلات الكثيرة، التي تجمّعت لتشنّ حملة عنيفة على الرهبان المتوحّدين.

وعند انقضاء أربع سنوات، وبعد إدراك نقطة جديدة في طريق الانعتاق من الذات، فتّش يوحنّا عن الكمال الأبعد. فترك الدير وانسحب وحيدًا إلى أحد الكهوف «حيث بقي أربعة وعشرين شهرًا، محرومًا من النوم، غير منقطع عن التعمّق في درس الإنجيل. وأثناء عامين كاملين لم يذق طعم الكرى لا ليلاً ولا نهارًا» (بلاذيوس).

وحدة مطلقة ونكرانُ ذات مطلق: هذا مجهود رائع وعنيف، استمرّ سنتين: وحدة، صوم، صلاة وفضيلة. وهل من طريق أخرى لبلوغ القداسة؟ وانتهت السنتان. وعاد يوحنّا إلى العالم، ولكن ليس كما تركه على كلّ حال. عاد متحوّلاً تحوّلاً جذريًّا.

وكتب بلاذيوس أنّ القدّيس ترك كهفه، وعاد إلى المدينة بسبب شللٍ أصابه في رجليه، وكان عمل العناية الإلهيّة رائعًا إذ مرض يوحنّا جسديًّا، وأصبح عاجزًا عن متابعة عيشته التقشّفيّة، وهكذا انتشلته العناية من الكهف لخير الكنيسة. ظلّ يوحنّا يشكو الآلام في رجليه طيلة حياته.

بعد ستّ سنوات من الغياب، رجع يوحنّا إلى أنطاكية. رجع بعد إحرازه درجة رفيعة من الكمال. ولكنّ المسافة شاسعة بين الكمال الشخصيّ والقداسة. وهذه المسافة عليه أن يجتازها في العالم، لا في الصحراء: التقشّف، الكهف، الإماتات الكثيرة طيلة ستّ سنوات في الصحراء، كلّها تكوّن مرحلة رائعة، ولكنّها ليست أكثر من مرحلة، في طريق القداسة.

رجع يوحنّا إلى أنطاكية، وقد شُلّت رجلاه وتقرّحت معدته من كثرة الأصوام. يُخيل إلى الناظر إليه أنّ لا لحمَ له، ولا دمَ يجري في عروقه. «جسم مجرود، تكاد عظامه تتفكّك» (إيرونيموس). ولكنّه عاد بانعتاق وانفلات مطلقين من الأمور المنظورة، يحمل حبًّا عميقًا لا نهاية له نحو الله ونحو أخوته البشر... وظلّ طابع الفضائل المكتسبة في الصحراء يمهر حياة القدّيس حتّى الموت. والمدهش حقًّا ألاّ يرضى يوحنّا عن حالته الروحيّة، مع كلّ هذه الفضائل الرائعة. فيقول: «لا تكلّموني في ما بعد عن الجبال المتعرّجة، عن الوديان المفروشة بالغابات، عن الوهاد، عن الوحدة الصعبة. هذه الأشياء التي لا تكفي وحدها لإزالة القلق من النفس. لا يمحو القلق والاضطراب من النفس، إلاّ تلك الشعلة التي وضعها المسيح في قلب بولس».

التقشّف والفضيلة، إذا لم يضعهما القدّيس في خدمة الناس، باطلان. هذا مفهوم جديد عند يوحنّا، مفهوم ننعته اليوم بالاجتماعيّ «ما يميّز مُحبّ المسيح اهتمامه بخلاص الآخرين».

وكتب، موجّهًا كلامه إلى المتوحّدين، يقول: «يا جميع الرهبان المتوحّدين على قمم الجبال، الصالبين ذواتكم بشتّى الأشكال. إسمعوا ما أقول: ساعدوا، ضمن إمكاناتكم، الذين على رأس الكنائس، شجّعوهم بصلواتكم، بتعاطفكم، بمحبّتكم. إعلموا جيّدًا أنّكم إذا لم تساندوا، رغم بعدكم، الذين وضعتهم النعمة الإلهيّة في الخطر، وعرّضتهم للإزعاجات المختلفة، إذا لم تسندوهم فحياتكم قُطعت وحكمتكم بُتِرَتْ».

ما أرهب الكلمات الأخيرة على فم قدّيس. إنّه يحذّر النسّاك الذين ضحّوا بكلّ شيء في سبيل الله، بضياع حياتهم... والأكثر خطورة أن تصدر هذه الكلمات عن رجلٍ خَبرَ الإماتات جميعًا في الصحراء، للدخول في القداسة.

يستعدّ الذهبيّ الفم لعبور طريق جديد. لقد حصل على أسمى فضيلة شخصيّة. وها إنّ الحقل الكهنوتيّ ينفتح أمامه فسيحًا، فقرّر الانخراط فيه.

ولكنّ المدّة التي قضاها الذهبيّ الفم في البراري والكهوف، كفيلة بأن تنسيه كلّ معالم الحياة السياسيّة والتاريخيّة. ألم نقل إنّ التطلّع إلى الخارج محرَّم على الراهب؟ اهتمام واحد كان يشغل يوحنّا: تطهير قلبه. ويقول كيركغارد: «طهارة القلب أن ينصبّ الإنسان على فكرة واحدة». وانصبَّ الذهبيّ الفم على الفضيلة الذاتيّة فأدركها. فماذا يعمل؟ هل يكتفي بها؟ هل يرتاح وانفتح أمامه حقل نشاط جديد: تخليص الناس بإيصالهم إلى الإيمان الحقيقيّ المستقيم». «خير للإنسان أن يكون أقلّ فضيلة، ويهدي الآخرين، من أن يعيش على قمم الجبال، ويرى إخوته البشر يهلكون» (يوحنّا).

ولم يكن النسيان متبادلاً بين يوحنّا والأمبراطوريّة التي تشعر بوجوده، ووجود الكثيرين أمثاله. الدولة تعرف رعاياها وتتمنّى أن يعود الرهبان إلى الحياة الاجتماعيّة. على هذه النقطة تمَّ الالتقاء بين الكنيسة والدولة. فقد كتب القدّيس باسيليوس الكبير في «القواعد الرهبانيّة» قال: «كلّنا يحتاج إلى الآخر. فلا يتبجحنَّ أحد بالاستغناء عن غيره، حتّى في حاجاته الخاصّة. التعاون ضرورة حياتيّة. والله خالقنا يريد استمرار هذا الاحتياج، حتّى يُضمَن ترابطنا ببعضنا البعض. وعلاوة على هذا، فالمحبّة المسيحيّة لا تسمح بأن يحصر الإنسان تفكيره بذاته فقط. ولكن ماذا نلاحظ؟ الذي يعيش منعزلاً لا يربح في النهاية إلاّ خلاص نفسه. وهذا معاكس للمحبّة التي بموجبها حاول الرسل أن يتكيّفوا مع الجميع

ليخلّصوا أكبر عدد ممكن، وأن يصيروا الكلّ في الكلّ ليربحوا الجميع».
ويتابع القدّيس باسيليوس: «وفي حياة الوحدة المطلقة يتعذّر على الإنسان معرفة نقائصه، إذ ليس مَن يدلُّه أو يوبّخه، أخويًّا، عليها. والتوبيخ، حتّى ولو صدر عن عدوّ، يخلق في الإنسان الكريم الرغبةَ في التفكير. والصديق الصادق يتناول بشجاعة أخطاءَ صديقه. ولكن من أين يأتي الصديق في الوحدة المطلقة؟ لذلك قيل: الويل للعائش وحيدًا إذ ليس له مَن يُنهضه إذا سقط. وأضرار كثيرة تنشأ للمتوحّد، أجلّها خطرًا الرضى عن النفس. هل يوجد من يحكم على ما يحدث في داخله؟ يظنّ أنّه بلغ الكمال في كلّ أمر. فهو، بابتعاده عن مناسبات تطبيق وصايا الله، لا يعرف ما ينقصه بعد، وتاليًا ما حقّقه من تقدّمٍ في الفضيلة. كيف يعرف أنّه متواضع، إذا لم يوجد الإنسان الذي يتواضع أمامه؟ ومن أين تأتيه الفرصة لإظهار الشفقة وهو لا يرى إنسانًا متألّمًا؟ كيف يتمرّن على الصبر، إذ لا يوجد مَن يعصي إرادته؟ عندما أراد السيّد أن يقدّم مثالاً عن الكمال، أخذ منشفة وائتزر بها وغسل أرجل التلاميذ. ولكن أنت أيّها المتوحّد أرجلَ من تغسل، ولمن تكون خادمًا؟ كيف تكون أخيرًا وأنت وحيد؟».

ويضيف القدّيس باسيليوس: «حياة الجماعة هي الميدان الحقيقيّ، هي طريق التقدّم الحقيقيّة، هي التمرّن الحقيقيّ على الفضيلة، وهي التطبيق الحقيقيّ لشريعة الربّ».

لا بدّ من أن تكون هذه الآراء وصلت إلى الذهبيّ الفم في كهفه. مطلقوها لا تنقصهم المهارة. يجب أن تؤثّر هذه الأفكار في أولئك العناصر الخيّرة، النافعة، وتنتشلهم من مغاورهم، وتضعهم في خدمة الجموع، لأنّ التقدّم لا يكون إلاّ في الجماعة، في الكنيسة.

وهناك نوع من الدعاوة المداورة، غير المباشرة. وهذا ما حصل بالفعل لعميد المتوحّدين في آسيا العليا، القدّيس أفرام السريانيّ، الذي يروي لنا كيفيّة اقتناعه بالعودة إلى الحياة الجماعيّة فيقول: «كنت مارًّا في بلدة من الكبادوك، (لا يعرف اسمها لأنّها من الأشياء الخارجيّة)، وسمعت

صوتًا يقول لي: يا أفرام انهض، وتعال كُلْ أفكارًا. وسألته: وأين أجد هذا الغذاء يا سيّد؟ فأجاب الصوت: في بيتي، تجد وعاء ملوكيًّا مليئًا بالغذاء الذي يناسبك». وكان أفرام يعرف بيت الله. إنّه الكنيسة. هناك وجد كاهنًا أقنعه بالدخول في حياة الجماعة. لقد أخرجه من انفراده وردّه إلى عقيدة المسيحيّة الاجتماعيّة.

وجمهور غفير انسلخ من الصحاري ومن قِمَمِ الجبال، فاندمج المتوحّدون في الحياة الجماعيّة في الأديار، ومن ثمّ انخرطوا في الجماعة الكنسيّة. في هذا العصر ترك الذهبيّ الفم أيضًا كهفه. وليس من السهل تعيين السبب الحقيقيّ، الذي أرجع يوحنّا إلى العالم، إنّما نرجّح أنّ غيرة بولس الرسول كانت الدافع الرئيس. أراد يوحنّا أن يقتدي بنشاط بولس التبشيريّ. وربّما فكَّر يوحنّا في أن يرفع الناس إلى المستوى القدسيّ الذي أدركه: هذا التكاتف الإنسانيّ هو من طبيعة الإنسان. ونسمح لنفسنا فنجزم بأنّ الدافع الأوّل والأساس عند يوحنّا، كان حبّه الكبير للمسيح وفكرة تخليص الناس بواسطة المعموديّة.

في هذه المرحلة الجديدة كرّس يوحنّا نفسه للجماعة المسيحيّة. صار شمّاسًا السنة ٣٨١. ومهمّة الشمّاس مساعدة الفقراء. كانت تأسّست في كنيسة أنطاكية هيئة مساعدة اجتماعيّة مثل «الصليب الأحمر» في أيّامنا. فأُسندت إدارتها إلى يوحنّا، الذي تفرّغ لهذا العمل الجديد بنشاط بطوليّ، تمامًا كما سبق له أن فعل في وحدته سابقًا. ولكنّ هذا العمل ظهر له مجدبًا وغريبًا عن عمل الكاهن، فكتب يخاطب المؤمنين: «كثرت الحقول والعربات والخيول في الكنيسة بسبب قساوة قلوبكم. لقد خاف أساقفتكم أن يموت الأيتام والأرامل والعذارى من الجوع، فاضطرّوا إلى تجميع الممتلكات... ولا نجرؤ على أن نفتح فمنا لأنّ الكنيسة، في حالتها الحاضرة، ليست أفضل من الناس العاديّين. ورزح أساقفتكم تحت عبء المشاغل المادّيّة أكثر من الاقتصاديّين والتّجار، في حين أنّ اهتمامكم يجب أن ينحصر فقط في نفوسكم. لقد صرنا، نحن الكهنة، مهزأة ومسخرة!

نضيّع وقتنا في مناقشة أسعار الأشياء، بدلاً من أن نهب أنفسنا للصلاة والتعليم».

ولكن يوحنّا، رغم ثورته، قام بعمله الجديد، على منوالٍ لا يترك مجالاً لأقلّ لوم. كان يعرف أنّ كلّ ما يعمله، حتّى مناقشة الأسعار مع التجّار، هو من أجل المسيح. ودام عمله خمس سنوات، لم يُهمل أثناءها عمله اللاهوتيّ. فقد كتب عن البتوليّة وعن الكهنوت، ورسائل إلى أرملة وغير ذلك.

وفي السنة ٣٨٦ رقّاه أسقف أنطاكية، فلافيانوس، إلى درجة القسوسيّة، فانفتح أمامه مجالٌ جديد للعمل في سبيل الحقيقة الوُحدى، حقيقة الإنجيل.

الفصل الرابع

في يوم رسامة يوحنّا قسّيسًا، ازدحمت الجماهير في الكنيسة. مسيحيّون ووثنيّون جاؤوا ليسمعوا ذلك البطل ويشاهدوه، هذا الذي يحمل في جسده سماتِ الجهاد ومعالم المعارك العنيفة، التي تعرّض لها سنين في البراري والكهوف. يوحنّا، ليس في نظر الأنطاكيّين ابن أنثوسة وسيكوندوس، بل هو البطل المنتصر. كان أصلع إلاّ من بعض الشعرات البيض. جسمه صغير، نحيل هزيل لا يزيد وزنه عن الأربعين كلغ. لقد أمات جسده حسب قول الرسول بولس: أميتوا أعضاءكم التي هي على الأرض، أعضاء الجسد الترابيّ، إنهدوا إلى الأمور العليا، ولا تتعلّقوا بأمور الأرض. السماء فقط موجودة في فكريوحنّا. هذا الرجل الشاحب الجبين، القيثاريّ الصوت، وضع نصب عينيه، وهويتقبّل سرّالكهنوت، هدفًا كبيرًا حتّى إنّه يجعلنا نرتعش: كان يريد أن يصرخ مع الرسول بولس«ما ينقص آلام المسيح سأكمّله فيَّ» هو، يوحنّا، الأنطاكيّ، ابن أنثوسة وسيكوندوس، هو سيحقّق ما ينقص آلام المسيح!! إنّها فكرة هائلة!

بهذه النيّة اعتلى يوحنّا، للمرّة الأولى، منبر الكنيسة. آلام المسيح، الصلب، الجلجلة، أليست القمّة في التضحية؟ أليست الملء؟ وهل يزاد على الملء شيء؟! فما هو المقصود إذًا «بالنقص» و«التكميل» هنا. يشدّد بولس على أنّ المسيح حمل الصليب من أجل خلاص البشر. ويوحنّا يقول بهذا أيضًا. إلاّ أنّ تضحية المسيح تظلّ بلا ثمر، عقيمة، إذا لم تصادف تجاوبًا عند الناس. ومفهوم الخلاص هذا، عند بولس ويوحنّا، جعل

الذهبيّ الفم يعتلي منبر كنيسة أنطاكية. وعرف يوحنّا، كما عرف بولس قبله، أنّ المسيح يحتاج إليهما لئلا تتعطّل آلامه.

والتهب يوحنّا بهذه الفكرة. وأراد أن يقنع سكّان أنطاكية بحقيقة المسيحيّة، أن يجعل كلَّ مسيحيّ يحيا تعاليم الكنيسة، تمامًا كما وضعها يسوع، وأراد أن يضمّ تحت لواء الكنيسة حتّى الغرباء. هذا كان مطمحه. هو يعرف أنّ مثل هذا المطمح يتطلّب جهدًا بطوليًّا، كما يعرف أنّ الضعف استولى على عضلاته، على لحمه ودمه، لو توكّأت نسمة على جسمه لانهدم. ولكنّه يذكر أنّ النحلة، على صغرها وضعفها، تصنع العسل الذي هو ألذّ ما في العالم.

بهذه الروح ارتقى المنبر بشجاعة ليقول: «ما ينقص آلام المسيح سأحقّقه من أجل جسد المسيح أي الكنيسة». وأدركت الجماهير، بحدسها الطبيعيّ، جرأة الكاهن، وأنّها ستشاهد معارك لم يسبق أن وقع مثلها. وكان يوحنّا يعرف ما هو السلاح الذي به يحارب وبه يموت. الكلمة. في يوم رسامته، ألقى خطابًا قدّمه إلى الله ذبيحة كلاميّة. بالكلمة سيحارب، وبالكلام الخارج من فمه سيموت: «ارتأيت، وأنا للمرّة الأولى افتح فمي في كنيسة، أن أخصّص للربّ كلمتي، هذه الموهبة الواصلة إلينا من الله». ويقول: «أَحبُّ الذبائح إلى الله الكلمة».

وحصر الكاهن نشاطه في إيصال الناس جميعًا إلى المسيحيّة، وفي تصييرهم مسيحيّين حقيقيّين. كان يقول للمؤمنين: «أريد أن تصبحوا كاملين. وليس من خطر على الإنسان، في هذه الحياة، إلاّ الخطيئة». لذلك سعى إلى تخليص الناس من خطر الخطيئة. وتحمّس الشعب الأنطاكيّ لمواعظ يوحنّا، وصرخوا وبكوا ولوّحوا بالمناديل. وهل تكلّم يوحنّا من أجل هذا؟ «ما بدأت عملي لذّة في الكلام، أو تذوّقًا لحماس الجماهير. إنّما تكلّمت لأهدي الضالّين إلى سبيل الحقّ». ونهى عن السكر والكذب والسرقة والكبرياء وغيرها. إلاّ أنّ الشعب يحبّ التأجيل.

يقول الفيلسوف كيركغارد: «المسيحيّة علاج جذريّ. والمريض

بالخطيئة مقتنع بفعاليّة هذا العلاج. ولكنّه طالما هو قادر على الحركة، على الاستمرار في الحياة، فإنّه يؤخّر المبادرة الجريئة ويؤجّلها إلى الغد». هذا الكلام ينطبق على الأنطاكيّين، الذين تحت تأثير كلام القدّيس، صمّموا على أن يضعوا أقواله موضع التنفيذ، ولكن بعد حين. أيّام الله طويلة. واستمرّوا في حياتهم، مع خطاياهم الصغيرة، على أمل التخلّص منها في يوم من الأيّام.

وكم من مرّة يئس يوحنّا من هذا الشعب، الذي يصرف الساعات، واقفًا في الكنيسة، يصغي إلى مواعظه، ولكنّه لا ينفّذ إرشاداته. إلاّ أنّ يومًا يأتي، يرى فيه يوحنّا، بعينيه، شعب أنطاكية بكامله مسيحيًّا. «وفي الواقع، الفضائل على نوعين: منها ما هو إراديّ، ومنها ما هو اتّفاقيّ أي ابن المناسبات». (بلاذيوس).

ويوم ٢٦ شباط ٣٨٧ هو بدء المناسبة التي جعلت من الأنطاكيّين مسيحيّين حقيقيّين.

لم يكن الذهبيّ الفم يهتمّ بالجو السياسيّ. القدّيس هو فوق التاريخ. علاقة الكنيسة وقدّيسيها بالحقائق السياسيّة، مثل علاقة الماء بالزيت: في وعاء واحد. الزيت يطفو والماء يرسب ولا يتمازجان أبدًا. صحيح أنّ الكنيسة والسياسة تعيشان في حدود واحدة، وعصر واحد، ولكنّ الواحدة تظلّ منفصلة عن الأخرى. طبيعة الكنيسة تختلف عن طبيعة السياسة. ويحدث أحيانًا ما يعكّر صفاء التعايش غير الممتزج، فتضطرب الرؤية وتضيع المعالم، ويصعب التمييز بين الزيت والماء: السلطة الأبديّة تختلط بالسلطة الزمنيّة، فيقع القدّيسون في معسكر الجنود، والجنود في عالم الكنيسة، ولا يعود ممكنًا التفريق بين الكنيسة والسياسة.

مثل هذه العاصفة نشبت في أنطاكية السنة ٣٨٧ في السادس والعشرين من شهر شباط. كان يوحنّا وقتئذٍ، واعظًا يناضل نضال الأبطال ليجنّب الناس الخطيئة، ويرسّخهم في الفضيلة. هذا شغله الشاغل. وانتشر في المدينة خبرٌ مفاده أنّ ضريبة جديدة فرضت على الشعب. لو

أنّ هذا الحدث وقع في الماضي لما اهتمّ له يوحنّا. أمّا الآن فإنّه ملزم على الاهتمام بالضرائب. إنّه مسؤول عن الشعب. ولكن ما حدث بالتفصيل؟

جرى ذلك في أيّام الملك ثيوذوسيوس الملقّب بالكبير. كان الملك يحتفل بعيد ميلاده الخمسينيّ، ووافق ذلك مرور عشر سنوات على تنصيبه. ومثل هذه الاحتفالات تتطلّب مالاً كثيرًا، وبخاصّة الاحتفال بالجلوس على العرش. وفي نشوة العيدَين «زلق» لسان الأمبراطور، فوعد بتقديم هديّة لكلّ جنديّ من جنود الأمبراطوريّة. والهديّة هي خمس ليرات ذهبيّة. ولم تكن المشكلة في الوعد، إنّما في كيفية تأمين المال للاحتفالات من جهة، وللهدايا من جهة ثانية. وهنا لم يجد الملك «الكبير» بدًّا من استعمال الوسائل، التي سبقه إليها الأباطرة «الصغار»، عندما كانوا يحتاجون إلى المال: الجزية. وفرض ثيوذوسيوس جزية جديدة. ونزل هذا الخبر على سكّان أنطاكية نزول الصاعقة. لا هجوم الجراد، ولا انتشار الكوليرا، ولا أيّة كارثة أخرى كانت تفعل في شعب أنطاكية فعل ذلك الخبر المشؤوم. وخرج الشعب في الشوارع متضعضعًا، النساء يندبن والرجال يبكون. وقسم من الشعب غادر المدينة هربًا من جباة الضرائب، وقسم آخر يتهيّأ للرحيل. حتّى إنّ بعضهم فضَّل الانتحار على تحمّل ضريبة جديدة. ولكنّ السواد الأعظم كانوا في الشوارع يفتّشون عن حلّ، يفتشون عن رجلٍ متطوّع، يستعطف الملك أن يعفيهم من هذه الضربة القاسمة التي اسمها: الضريبة.

ولم يكن الباعث على هذا الرعب حبّ المال. فلماذا إذًا لا يخضع أهل أنطاكية لتدابير الحكومة ويدفعون الضريبة. إذا أردت أن تعرف سبب الخوف، فاسمع ما يقوله أحد كتَّاب العصر: «أثناء جباية الضرائب كان الموظّفون يقيسون الحقول، يعدّون جذور الكرمة والحيوانات ويسجّلون الناس... لم يكن يُسمع سوى ضربات السياط وصراخ المعذّبين. العبد الأمين يخضع للتعذيب لتقديم وشاية بسيّده، والمرأة بزوجها، والابن بأبيه. وإذا لم يجدوا واشيًا فإنّهم يعذّبون الشخص نفسه حتّى يشي

بنفسه، فيعترف بما ليس عنده. ولا يتورّع الجباة عن تسجيل ما لم يقله أصحاب الأملاك. والويل للناس إذا أرسل مفتّشون يحقّقون في التقرير الأوّل. عندئذٍ سترتفع الأرقام حتمًا لئلا يُقال إنّ المفتّشين المحقّقين لم يقوموا بواجبهم. وهكذا ينزل الظلم بالشعب البريء».

وارتأت الجماهير التائهة في الشوارع، أن تقصد قصر الحاكم تستعطفه ليدافع عنها أمام الأمبراطور، فتُعفى من هذه الضريبة الرهيبة. والحاكم صديق الأمبراطور فينتقل إلى القسطنطينيّة حيث يُقنع الملك بإعفاء الشعب... والحاكم رجل طيّب، فالأمل كبير بأن يقبل بالتوسّط. وسار الأطفال والشبّان والشيوخ، نساءً ورجالاً، بدون استثناء، إلى قصر الحاكم، يحدوهم الأمل بالفرج القريب.

ولكنّ الحكّام تكاد تنعدم فيهم الحساسيّة. وانعدام الحساسيّة إجمالاً، في الحاكم، شرط وصفة ملازمة للوظيفة. إلاّ أنّ، الحكّام يحتفظون بعاطفة كبيرة إزاء الجماهير، غالبًا ما تكون عاطفة خوفٍ ورعب. هؤلاء الرجال القساة، الآمرون بتنفيذ الأحكام الشرسة تحت أنظارهم، والابتسامة على ثغورهم، المشتركون بإنزال التعذيبات البربريّة، ولا يستشعرون لذلك شبه ألمٍ، هؤلاء الرجال يرتعدون كالأطفال لمشاهدتهم الجموع متّجهةً نحوهم. يشحبون، وفي بعض الأحيان تكاد الدموع تطفر من عيونهم. وحاكم أنطاكية لا يشذّ عن نمط هؤلاء الحكّام. فعندما رأى الجماهير تقصده، أصدر أوامره السريعة بأن توصد أبواب القصر. ولم يقدر أحدٌ على إقناعه بأنّ الشعب مسالم، طيّب النيّة. كان يرتجف. الحكّام يخافون حتّى مواكب الجنازات. الخوف من الجماهير هو الإحساس الأوحد المتبقّي فيهم. ولأنّ هذا الاحساس فريد فإنّه يبلغ الذروة. وبعد إعطاء الأمر باقفال الأبواب، هرب الحاكم متسلّلاً من بابٍ خلفيّ سريّ. وظلّت الجماهير في الساحة، تترجّى ظهور الحاكم إلاّ أنّه غادر القصر.

واحتار الناس. ما العمل؟ إلى من يلتجئون؟ وتوجّهت دفّة الجماهير نحو قصر الأسقف فلافيانوس، خليفة الأسقف ملاتيوس. الأسقف

صديق الأمبراطور أيضًا. صار فلافيانوس أسقفًا على أنطاكية، رغم إرادة الكهنة والمؤمنين. إذ فرضه ثيوذوسيوس. فالشعب لا يحبّه. إنّما الخطر المداهم جعلهم يفكّرون بإنسان له مكانة عند الأمبراطور. وأمام القصر الأسقفيّ صرخت الجماهير... ولكنّ الأسقف لم يظهر. وغلى اليأس في نفوس الجماهير، التي ثارت وكسّرت باب القصر الأسقفيّ. وكسرُ الباب، في هذه الحالة، مثل عود الثقاب، كفيل بإشعال المدينة كلّها. وعرم اليأس. أسقفهم يغيب عنهم ساعةَ هم في أمسّ الحاجة إليه. وهدموا الحمّامات القائمة جانب القصر. ودخلوا فلم يجدوا أسقفهم. فهل يكون هرب مثل حاكمهم؟ هذا مستبعد! لأنّ الأساقفة لا يخافون الجماهير. الحكّام فقط يخافون.

وإذ أخفق الشعب في دار الأسقف، عاد أدراجه إلى قصر الحاكم. الأبواب ما زالت موصدة. منذ دقائق اقتحم الجمهور أبواب الأسقف، وأصبح قادرًا على الدخول من الباب المغلق. يكفي أن يكسره. وحطّم الأنطاكيّون الأبواب ودخلوا القصر فوجدوه خاليًا. لم يصادفوا لا الحاكم ولا واحدًا من مساعديه، يقدر على أن ينجدهم في محنتهم. المؤلم المبكي أن يفرغ القصر عندما يحتاج الشعب إلى أيّ إنسان. ولكنّ الجدران والأثاث لا تسعف. هناك تمثال للملك وعائلته. نظرت الجماهير إلى تمثال الأمبراطور. إنّه هو الذي يريدون أن يستعطفوه ليجنّبهم المحنة: الضريبة. كان التمثال رائعًا، من الذهب، من الفضّة، من المرمر. ومهما كان جميلاً وشبيهًا للأمبراطور فإنّه عاجز عن مساعدتهم. إنّه أصمّ، أبكم. واعتبرت الجماهير وجود التمثال تحدّيًا لها، فقلبه الثائرون وكسّروه. ألم يحدث لك أنّك تفتّش عن شيء فتصادف شيئًا آخر، فتغضب وتحطّمه لأنّه سكّر عليك طريقك؟ وانطلقت الشرارة واندلعت ألسنة اللهيب. حمل الجمهور التمثال المكسّر المشوّه، وطافوا به في الشوارع، وراح الغاضبون يحطّمون التماثيل: تمثال الأمبراطورة الراقدة، تمثالي أركاذيوس وأونوريوس، ابني الأمبراطور. في غمرة الغضب وسورة اليأس حطّم الأنطاكيّون التماثيل

الأربعة.

الذهاب إلى قصر الحاكم ثمّ إلى قصر الأسقف، وتهديم الحمّامات، ثمّ الرجوع إلى قصر الحاكم وأخيرًا، تحطيم التماثيل الأمبراطوريّة، هذه الحوادث كلّها لم تستغرق أكثر من ثلاث ساعات. هذا الوقت كان كافيًا لأن يهرب الحاكم من باب الخدم، ثمّ يعود برفقة العديد من أفراد الشرطة والجيش. وابتدأت المجزرة. أصدر الحاكم أمره فنفَّذ الجنود. وكانت الجماهير قد هدأت. ولكنّ هذا لا يهمّ الحاكم: ثائرة أو ساكنة، الجماهير يجب أن تُذبح. هذا شرعيّ. كلّ ما يفعله الجنود هو دائمًا شرعيّ وقانونيّ.

حاكم المدينة لا يعطي لأجفانه نعاسًا، أو راحة لصدغيه لانشغاله بالذبح والتقتيل. واستعان بالجنود من المعسكرات المجاورة، من سوريا، من كلّ مكان. وحوصرت أنطاكية بجيشها الخاصّ. الناس مطاردون في الشوارع، في منازلهم، في حدائقهم وحيثما كانوا. الرجال والنساء والأطفال تعرَّضوا للقتل والاستشهاد. التعذيب يجري في الأماكن العامّة. ولم يكن الحاكم أكثر شراسة من زملائه. إلاّ أنّ الموقف في أنطاكية شديد الخطورة. إهانة تمثال الأمبراطور أفظع جريمة، يمكن اقترافها، تحت الشمس. هذا اعتقادهم في ذلك العصر. ومهما كان القصاص فظيعًا، فإنّ الحاكم يعتبر نفسه مقصّرًا في الانتقام للأمبراطور. أصدر أوامره لجنوده بأن يحصدوا الأخضر واليابس. وبعث رسولاً إلى القسطنطينيّة يستعلم إذا كان يُبقي حجرًا قائمًا في أنطاكية، أم أنّه يدمّر المدينة. لأنّ تحقير تمثال أمبراطوريّ يقتضي مثل هذا القصاص.

وعرف الأنطاكيّون ما ينتظرهم. لن يعيشوا أكثر من خمسة عشر يومًا، الوقت اللازم لذهاب رسول الحاكم إلى العاصمة ورجوعه منها. فمن لم يأتِ دوره اليوم سيأتي، وعلى أبعد مدى، بعد أسبوعين.

كان الذهبيّ الفم يهيّئ مواعظه. لا يكتبها بل يفكّر بها جيدًا، ويرتّبها في ذهنه بتأمّلٍ عميق. ويتنقل من كنيسة إلى كنيسة، يُسمع صوته ليس في الأعياد فقط، بل كلّ يوم تقريبًا، حتّى يتسنّى لأكبر عددٍ من الناس سماع

الكلمة. وعندما أمر الحاكم بتلك المجزرة ترك الذهبيّ الفم موعظته التي يهيّئها إلى الغد. كان يحثّ الناس على تطبيق تعاليم الإنجيل. فماذا يقول لهم اليوم، وأيّة نصيحة يسديها لذلك الشعب!؟ وهل الوقت ملائم لإسداء النصح والإرشاد؟ ثلاثة أيّام ويوحنّا مُطبق شفتيه.

المؤمنون مهدّدون في كلّ ساعة من النهار والليل. كلٌّ ينتظر موته. والإنسان المهدّد بالموت ينسى كلّ شيء. هذا في الطبيعة الإنسانيّة. قال الذهبيّ الفم في إحدى مواعظه: «إنّ الناس يموتون منذ كان الإنسان على الأرض. ولكنّ عدم التأكّد من ساعة الموت، وبشاعة الموت جعلا الناس لا يألفون هذه الحقيقة. وكلّ مرّة يموت إنسان يظهر الحدث غريبًا كأنّه يجابه الناس لأوّل مرّة». هذه الحقيقة التي لم يقدر الناس على أن يألفوها، كانت تهدّد كلّ شخص من الخمس مئة ألف الساكنين أنطاكية. الرعب شامل. والحاكم يقوم بواجبه ككلّ موظّف. وبلغت مطاردةُ الإنسان أشدّها. لذلك قرّر يوحنّا أن يعتصم عن الكلام. إنّه يحبّ الناس. ولكن إلامَ يحتاج الناس اليوم. لا كلامًا ولا نصائح. أنّهم يبغون النجاة من شراسة الرعب الناتج من الموت. امتنع يوحنّا عن الكلام، وراح يصلّي من أجل الشعب. هو يودّ أن يعمل لهم شيئًا، أن ينقذهم من الرعب الذي فيه يعيشون، أن يخلّص الأنطاكيّين من الموت.

هناك طريقة واحدة لتخليص الأنطاكيّين: تليين قلب الأمبراطور ثيوذوسيوس، الوحيد القادر على إيقاف المجزرة. ورجا يوحنّا الأسقف فلافيانوس الذهاب إلى القسطنطينية. باعتباره صديقًا للأمبراطور فهو المرشّح للنجاح بمثل هذه المهمّة. كان مخطّط يوحنّا رائعًا ومستوفيًا كلّ عناصر النجاح. إلاّ أنّ عقبةً تكاد تهدمه. ذلك بأنّ فلافيانوس متقدّم في السنّ، «كانت سنُّه تلامس نهاية حدود الشيخوخة». ومن طبيعة الشيوخ أن يتجنّبوا التنقّل. حتّى إنّهم لا يتركون مقعدهم ليقتعدوا آخر. وغضب الأسقف الشيخ عند علمه بأمر السفر، وانزعج كثيرًا، إذ عرض عليه يوحنّا أن يقطع مسافة طويلة، تفصل أنطاكية عن القسطنطينيّة: ألف

ومئة كيلومتر. أسابيع عدّة لا تكفي لاجتيازها. انزعج الأسقف ولم يرد أن يسمع بمثل هذا الاقتراح. نحن في شباط، في قلب الشتاء. وفلافيانوس مريض، كما هو طبيعيّ أن يكون من«بلغ نهاية حدود الشيخوخة».

وكانت شقيقة الأسقف متقدّمة في السنّ هي أيضًا، وتنتظر الموت بين ساعة وساعة. وبالطبع لا تقبل أن يتركها أخوها لمدّة طويلة. والرجال الشيوخ يفتّشون عن الأعذار، تحت أظفارهم، ليلبثوا في أماكنهم ويتجنّبوا التنقّل.

فإقناع الأسقف، إذًا، بالذهاب إلى القسطنطينيّة، في أوج الشتاء، مهمّة من أشقّ ما صادف يوحنّا في حياته. قال لأسقفه: «الراعي الصالح يبذل نفسه عن خرافه» (يو ١٠: ١١). وأعدَّ له حوائجه وهيّأ له الخطابات التي سيلقيها أمام الأمبراطور، وزوّده بمعلومات واضحة عن كيفيّة تصرّفه مع الملك. وفوق ذلك قال يوحنّا للأسقف إنّه لا يحقّ له الرجوع، إلاّ بعد حصوله على العفو عن الأنطاكيّين. وكان قد زجَّ في خطابه قول موسى: «إذا غفرت خطاياهم أرجعني إليهم، وإذا لم تغفر لهم فأمتني وإيّاهم» (خروج ٣٢: ٣٢).

وقبل الأسقف بالذهاب إلى القسطنطينيّة. وارتاح ضمير يوحنّا لأنّه عمل شيئًا ملموسًا من أجل خلاص المؤمنين في أنطاكية. وانقطع عهد الصمت وعاد يوحنّا إلى مكالمة رعيّته. ولكنّه لم يقل لهم شيئًا عن سفر الأسقف: فالشيوخ كثيرًا ما يكونون «سويعاتيّين» متقلّبين، وقد يغيّر الأسقف فكره ولا يذهب. فالأفضل كتمان الأمر حتّى يجلس الأسقف في عربته، وتتحرّك الخيول تاركة أنطاكية إلى القسطنطينيّة.

إنّها لشجاعة نادرة أن يتكلّم يوحنّا إلى شعب يائس، يلاحقه الجنود مع الموت. قال: «لقد لزمنا الصمت مثل أصدقاء أيّوب. والآن اسمحوا لي بأن أفتح فمي نادبًا هذه المصيبة الشاملة. لم يكن يوجد أجمل من مدينتنا، وما أمرّ حالتها الراهنة. إنّها خالية. وكما يطرد الدخان جماعة النحل من القفير فقد فعل الخوف هكذا بسكّان أنطاكية. وبدأ التزعزع

بالمدينة ثمّ انتقل إلى النفوس، وتمايلت المدينة على أساساتها، ثمّ تمايلنا نحن في أعماق قلوبنا. الموت ماثل أمامنا، المخاوف تسيطر علينا، والحصار مفروض. المحاصَر من الخارج يقدر على أن يتجوّل في مدينته، أمّا نحن فلا نجرؤ. الخروج من البيت يعني الاستلقاء في أحضان المعذّبين القاتلين. لا تمييز بين بريء ومذنب. الظلم شامل. الأحرار والعبيد قابعون في منازلهم يتساءلون: مَن قُبض عليه اليوم وسبقنا إلى الموت. لأيّ سبب مات وبأيّة وسيلة؟ الموت ذاته لا يعادل شقاوة الحياة المفروضة على السكّان. إنّهم يندبون الذين سبقوهم إلى ساحة العذاب، وشبحُ الموت والتعذيب في أذهانهم يُميتهم في كلّ لحظة».

ويتابع يوحنّا كلامه، فيقول إنّ الحزن عمَّ المدينة وألقى وشاحه القاتم على الطبيعة كلّها. حتّى قرص الشمس يبدو حزينًا. فهل تغيّر الكون؟ لا!! إنّما عيون الأنطاكيّين الطافحة بالدموع ترى البؤس والشقاء والسواد أينما نظرت.

كان يوحنّا يتكلّم وعيناه مليئتان بالدموع. إنّه قدّيس. والقدّيس يتألّم مع الإنسان. الحاكم يحبُّ الشريعة. القدّيس يحبّ الإنسان. «أكاد لا أقدر على أن أفتح فمي، أكاد أعجز عن تحريك لساني. لقد عقد الحزن لساني، وألصق شفتيّ فمنعني عن الكلام». وبكى يوحنّا وقال للشعب: «أعطوني نفوسكم، حاولوا أن تضعوها بين يدي الربّ. الله يعتني أكثر منّا بخلاصنا، لأنّه خالقنا».

وفي اليوم الثاني تكلّم يوحنّا. هذه المرّة أعلن للشعب الخبر السارّ. سافر الأسقف فلافيانوس إلى القسطنطينيّة، ليتوسّط عند الأمبراطور من أجل الأنطاكيّين. ومن باب التشجيع قال للشعب: «إنّ أسقفكم انطلق مثل شاب شجاع كأنّ له جناحين». وزيادة في التطمين أردف قائلاً: «أنّا متأكّد من أنّ مجرّد ظهور الأسقف أمام الأمبراطور التقيّ سيهدّئ سورة غضبه علينا. لأنّ النعمة الإلهيّة تشعّ ليس فقط من كلام القدّيس، بل من وجهه أيضًا».

يوحنّا متفائل جدًّا، لأنّه عارف أنّ الترتيبات الموضوعة لأجل الأمبراطور مكتوب لها النجاح. فما هي إذًا هذه الترتيبات؟ علاوة على الخطابات التي سيلقيها الأسقف أمام ثيوذوسيوس، فقد هيّأ يوحنّا أناشيد وأغاني يلقّنها مرافقو الأسقف لجوقة القصر الملكيّ. هذه الأناشيد والأغانيّ موضوعة خصّيصًا لترقيق عواطف الأمبراطور، وحمله على إعفاء الأنطاكيّين. حتّى الرقص في حضرة الملك، يجب أن يكون حزينًا معبّرًا عن حالة شعب أنطاكية المؤلمة. وبالاختصار رتّب يوحنّا أن يشترك كلّ سكّان القصر بعمليّة الاسترحام، حتّى ينجو الشعب الأنطاكيّ.

وفي الخطاب الذي أكّد نجاح مهمّة الأسقف، طلب يوحنّا من الشعب أن يكونوا مسيحيّين ليس بالاسم، بل بالفعل: «أبونا فلافيانوس يقوم بمهمّته بعيدًا. ونحن، في المدينة، فلنقم بمهمّتنا قرب ملك السماء، فلنساعد فلافيانوس بصلواتنا». وجاءت كلمات الذهبيّ الفم التعزية الوحيدة لشعبٍ غرقت مدينته في الدماء، وزاره الموت بلهفة، فقط لأنّه كسر بعض التماثيل الأمبراطوريّة. والإنسان لا يعيش بدون أمل. وتشتدّ حاجته إلى الأمل بخاصّة في حالات الذعر والرعب. الأمل ضرورة أكثر من الخبز. وأعطى الذهبيّ الفم هذه الضرورة لأهل أنطاكية فأصبح «صنم» الجماهير. كلّ السكّان التصقوا به. كلّ الشعب أصبح مسيحيًّا، وصاروا يتنافسون في الفضائل. «كأنّ المدينة أصبحت كنيسة، وأنطاكية امرأة نبيلة». ومارس الأنطاكيّون الفضائل المسيحيّة، تمامًا كما طلب منهم الذهبيّ الفم أن يفعلوا. الشوارع مقفرة. أمّا الكنيسة فملآنة ليلاً ونهارًا. الرجال لا يسكرون، لا يعربدون لا يكذبون. وطلب يوحنّا من الشعب تطبيق أصعب فضيلة: محبّة الأعداء. «أقول وأعلن وأصرخ بملء صوتي: إنّ كلّ من له أعداء لا يتقدمنَّ من المائدة المقدّسة، ولا يتناولنَّ جسد السيّد. كلّ من يقربُ القدسات فليطهّر قلبه من عواطف العداوة. هل تبغضون أعداءكم؟ إذًا لا تتقدّموا».

وبلغ من إصغاء الشعب ليوحنّا أنّه أصبح قادرًا على أن يوجّه حتّى

عواطفهم الصميمة. ونجح الأنطاكيّون في اجتياز أعنف امتحان تفرضه المسيحيّة: محبّة الأعداء. محبّتهم بإخلاص. محبّتهم كأخوة. ولكن كم دامت هذه المرحلة السامية المثاليّة؟

في الخامس عشر من آذار السنة ٣٨٧ انفرط الأنطاكيّون من حول الذهبيّ الفم. تركوه كلّهم. وأداروا له ظهورهم. وفجأة وجد نفسه وحيدًا وعيناه تتطلّعان إلى يسوع. الجميع تحوّلوا عنه، تحوّلوا عن الكنيسة، تحوّلوا عن المسيح. ودخل القدّيس في وحدة أعنف من وحدة الكهف.

الحدث الذي جرى في ١٥ آذار عرفه جميع سكّان أنطاكية قبل بزوغ الفجر. وانتظر الناس الأعمال الرهيبة التي ستحلّ بهم بين فينة وأخرى. ومفاد الخبر أنّ الأمبراطور أرسل قاضيَين رفيعي الرتبة، ومعهما جنود ليبيدوا المدينة حتّى الأساسات، ويمحوا سكّانها على بكرة أبيهم. وكان الموكب قريبًا من المدينة.

وعند الفجر نفر الناس من بيوتهم لاجئين إلى الكنيسة. هذه المرّة لم يأتوا للصلاة ولا لسماع موعظة. انقطع الأمل فماذا تنفع الصلاة! الأمر صدر. وبعد ساعات معدودات يبدأ الجنود بالتنفيذ، ولا يأتي الليل إلا والمدينة أثر بعد عين. وجاء الناس إلى الكنيسة ليجتمعوا. ففي حالات الخطر يلتصق البشر الواحد بالآخر. وصمَّم الجميع على الهرب. إذًا يجب أن يتركوا المدينة قبل وصول الموكب إليها. كانوا ينتحبون ويزمجرون حتّى كادت جدران الكنيسة ترتجف. والذهبيّ الفم حاضر، يفتّش عن حلّ. في بعض الأحيان يعجز الإنسان عن إيجاد حلّ واحد. والقدّيسون يعجزون أيضًا. لقد صلّى بحرارة إذ كانت الجماهير البائسة تهدّد. هو عمل كلّ ما بوسعه لإنقاذ أنطاكية. ولم يدَّخر وسيلة لترقيق قلب الأمبراطور. لقد أرسل فلافيانوس إلى القسطنطينيّة، ومعه خطاب كتبه القدّيس، مصحوبًا بجماعة تسانده على تحريك الشفقة في قلب ثيوذوسيوس.

سافر فلافيانوس كأنّه شاب ذو جناحين، ولكنّه لم يصل بعد. وكان رسل الأمبراطور يتقدّمون نحو أنطاكية بسرعة الشباب الأصيل. وتساءل

الذهبيّ الفم إذا كان الأفضل أن يترك الشعب يهرب، أو أن يمسكه عن ذلك. فإذا تركهم، فهذا يعني أنّه يئس من النعمة الإلهيّة. والمسيحيّ يرقب النعمة باستمرار. وإذا أبقاهم ونصحهم بعدم الهرب، فإنّه سيشاهد ذبحهم بأمّ العين. وهو يُذبح معهم. والموكب على الأبواب!! الله فقط يقدر على أن يعطّل المجزرة. يوحنّا لا يستطيع ذلك. هو يصلّي. كلّ ما في مقدور إنسان فعله: الصلاة. حتّى ولو كان قدّيسًا.

في هذا الوقت ظهر الحاكم في الكنيسة. بلغه الخبر بتصميم الناس على الهرب. فجاء يطمئنهم. الحاكم وثنيّ. ولكنّه حاكم ويحقّ له أن يدخل حيث يشاء. دخل الكنيسة وتوجّه إلى المنبر حيث يقف الواعظ يوحنّا. وطمأن الشعب: الخبر المنتشر في المدينة كاذب. رسولا الأمبراطور لا يحملان أيّ أمرٍ بهدم المدينة وقتل الناس. تنحصر مهمّتهما في إجراء تحقيق ثمّ رفع تقريرٍ إلى الحاكم. وبعد ذلك يُنظر في أمر القتل والتدمير. وأكّد الحاكم كلامه إذ أقسم بشرفه على صدق ما يقول. وزال الكابوس عن النفوس وارتاح الناس. وخمد الخوف في عيونهم. لقد تأجّل إعلان الحكم بالموت. ونظر الأنطاكيّون إلى الحاكم الوثنيّ كما إلى الله، بشكر وإجلال. وفي هذه اللحظة نسي المؤمنون يسوع، والكنيسة والذهبيّ الفم. شيء واحد يهمّهم: لن يموتوا هذا اليوم.

عندما رأى الذهبيّ الفم أنّ المؤمنين تحوّلوا عن مذبح الربّ، وحصروا أملهم في الحاكم الوثنيّ، صاريبكي؟ بكى لأنّ نفوس المؤمنين تميل إلى أيّ شخصٍ بشرط الخلاص من الموت. وأوشك الأنطاكيّون على الهلاك. في نظر الذهبيّ الفم إنّ خسارة نفس واحدة من جهة الإيمان، لهي أكبر خسارة تقع في العالم. «أبكي هلاك نفسٍ يفوق ثمنها قيمة أممٍ وشعوب». وهذه المرّة ليست نفس واحدة تهلك. إنّما نفوس كثيرة أخذت طريقها نحو الهلاك.

كان الذهبيّ الفم وحيدًا كما لم يكن مرّةً في حياته. حتّى في أعماق الصحراء.

بعد ذهاب الحاكم اعتلى يوحنا المنبر، المنبر ذاته الذي تركه الحاكم. وقال: «وددْت لو أنّ الأرض انشقّت وابتلعتني عندما سمعت رجلاً غريبًا يخاطبكم، يهدّئ مخاوفكم ويؤنّبكم على استسلامكم لضعفاتكم». وذكّرهم القدّيس بأنّ المسيحيّ لا يخاف خسارة بيته، خسارة أملاكه وأرزاقه الأرضيّة. المسيحيّ «غريب، سائح في هذه الأرض». وطنه السماء. على المسيحيّين الأنطاكيّين أن يعلّموا الوثنيّين كيف لا يهابون الموت أو الألم. لا أن يتعلّموا منهم. «ليس لكم أنتم أن تتقبّلوا مثل هذه الأمثولات، بل عليكم بالأحرى أن تكونوا أساتذة». صحيح أنّ الأنطاكيّين توصّلوا، في الزمان الأخير، إلى أن يصيروا مسيحيّين حقيقيّين، واستحقوا لذلك مديح الذهبيّ الفم، إلاّ أنّ القوّة خانتهم بالضبط حيث دعتهم المناسبة إلى تطبيق الفضيلة المثلى أي: ازدراء الموت. لقد تخاذلوا. لم ينجحوا في هذا الامتحان. لم يكونوا أبطالاً. «لا تدلّوني على البطل أثناء تمارينه الرياضيّة، بل دلّوني عليه في وطيس المعركة. لا تحدّثوني عن التقوى الظاهرة في الإصغاء، بل عن التقوى الظاهرة في العمل». ويتابع: «من يسمع كلامي، ولا يعمل به، يشبه إنسانًا بنى بيته على الرمل»، (متّى ٧: ٢٦-٢٧). وتألّم يوحنّا لضعف الأنطاكيّين، كما لو كان الألم في ذاته. «إنّ تقهقركم قد نشر في نفسي ظلمة وألمًا، ولا أتوصّل إلى السيطرة على روحي، لقدر ما هي حزينة بائسة. وكيف لا أتألّم وقد أهملتم تعاليم الكلمة المقدّسة، فوقعتم في الحاجة إلى تعاليم اليونان لإنعاش معنويّاتكم، ولإقناعكم بالصمود للإرهاب المحيط بكم». وأصغى الأنطاكيّون إلى الذهبيّ الفم. هو على صواب. ولكن ماذا يستطيعون إزاء الخطر؟ وعرف يوحنّا فكرهم: «ستقولون لي: ماذا نقدر؟ ألسنا بشرًا؟» أجل أنتم بشر ولكنّكم مسيحيّون. «عوض اهتمامكم برسل الأمبراطور كان عليكم أن تحنوا ركَبكم، أن تنادوا الربّ بتنهداتٍ حارّة، والربّ يبعد عنكم الخطر». إذا إراد الربّ أن يُذبح الأنطاكيّون، فعلى هؤلاء أن يخضعوا فيموتوا، والابتسامة على شفاههم، مقتنعين بأنّهم يكمّلون مشيئة الربّ. كان عليهم أن يقبلوا الذبح بكبر نفسٍ مسيحيّ يبهرُ الجنود

والمعذِّبين. «هذي هي نفس القدّيسين. القدّيسون، عندما يداهمهم الخطر، لا يفكّرون بطريقة الخلاص منه، بل يحصرون كلّ جهودهم ليربحوا، لقضيّتهم العادلة، معذِّبيهم ومضطهدِيهم».

ولكنّ يوحنّا يعرف صعوبة أن يصير الإنسان مسيحيًّا، أو قدّيسًا. وأن ينتصر على الألم، ويكسب المعذّبين إلى الإيمان بكِبَر الموت، هذا في منتهى الصعوبة. ولكنّه، على عسره، الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أنطاكية، المدينة التي أسّسها بطرس وبولس وبرنابا، وفيها دعينا «مسيحيّين».

رسل الأمبراطور، الذين بحكم وظيفتهم شابهوا الحجر قساوةَ قلب، يجب أن يندهشوا من سمو المسيحيّة. يجب أن يعتنقوا المسيحيّة. وإلاّ، فأنطاكية لا تنال الخلاص. ووضع الذهبيّ الفم مخطّطه، إنّه أجرأ عمل يقوم به في حياته: يجب أن يقتنع بالمسيحيّة أولئك الرجال، ذابحو الشعب وهادمو المدينة. وبسرعة قصوى يجب أن يسيروا في طريق الإيمان.

الدماء تسيل. ولا يتوقّف سيلها إلاّ إذا انضمّ الذين يسيلونها إلى المسيحيّة.

هناك إمكانيّة واحدة لكسب الجنود إلى الإيمان: أن يتحمّل الأنطاكيّون التعذيبات والآلام والموت بكبرٍ وهدوء رائعين، ينتزعان إعجاب المعذّبين أنفسهم. هذا ممكن. الإنسان قادر على ذلك. والدليل أنّ بولس فعله. كان بولس أمام المحكمة كبيرًا، جديرًا، قويًّا بإيمانه لدرجة أدهشت الذين يحاكمونه وتركتهم في حيرة. وكاد هذا الموقف النبيل أن يربح القضاة أنفسهم إلى قضيّة المسيح. وإذا لم يعلن الخصوم انضمامهم إلى الإيمان، فإنّ شعورهم، على الأقلّ، أمام بولس كان انتصارًا للرسول. وقد صرّح الحاكم نفسه بأنّه كاد يقتنع بعقيدة الرسول وينضمّ إلى المسيحيّين. (أعمال ٢٦: ٢٥).

ودعا الذهبيّ الفم الأنطاكيّين إلى الاقتداء ببولس: «كان عليكم اليوم أن تتصرّفوا مثل بولس. أن تفسحوا للحاكم مجال الإعجاب بكبَر نفوسكم، وبصبركم العابق بالهدوء والنبالة، فيخرج من هنا وكلُّه ثناء

على ثباتكم، لامسًا الفرق بين المسيحيّ والوثنيّ». هكذا كان على الأنطاكيّين أن يجابهوا فكرة موتهم في ذلك اليوم. المسيحيّ الحقيقيّ هو الذي يجاري بولس القائل شاء الله، بقليل كان أم بكثير، أن تصير، لا أنت فقط بل جميع الذين يسمعونني اليوم أيضًا، أن يصبحوا مسيحيّين مثلي (أعمال ٢٦: ٢٩).

في تلك الساعات الحرجة لو تصرَّف المؤمنون، كما يجب عليهم، بجرأة. لو أقدموا على الموت بشجاعة، إذًا لتراجع الجنود وانتصرت المدينة على الدمار. لكنّهم ضعفوا، وجبنوا أمام التجربة. إلاّ أنّ يوحنّا يحبّ الناس، حسب تعاليم يسوع على الجبل. يحبّهم ليس لصفاتهم الحسنة فقط، بل أيضًا لنقائصهم. يحبّهم وهم ضعفاء. في ضعفهم يحبّهم. ويريد أن يخلّصهم. كيف العمل؟ هذا الخلاص لا يضمنه إلاّ مسيحيّون حقيقيّون يُقبلون على الموت بنفوس كبيرة، وعلى وجوههم ابتسامة الرضى والاطمئنان. فمن أين يأتي بهم؟

وتذكّر يوحنّا أنّه يوجد على الأرض مؤمنون أصيلون، يعطون حياتهم بسهولةِ من يعطي ثوبًا باليًا. هؤلاء هم العائشون في البراري والجبال، هم المتوحّدون. زملاؤه في التقشّف والانعزال. «النسّاك هم خزانةُ عقيدةِ الرسل وتعاليمهم». ظهورهم أمام المعذِّبين سيدهش هؤلاء بعظمة المسيحيّة، ويجرّدهم من سلاحهم ويعطلّ أعمالهم الدمويّة، وتنتهي المجزرة.

العثور على هؤلاء الأبطال صعب جدًّا. الصحاري شاسعة والجبال وعرة. وعلاوة على ذلك فإنّ بعض النسّاك كان يعيش في كهفٍ مسدود إلاّ من طاقة ضيّقة يتناول منها ما يأتيه به أحد الأخوة من ماءٍ وخضار. بعضهم الآخر يعتصم بالقمم الشامخة حيث الطيور فقط تقدر على الوصول. وآخرون يلجأون إلى أقاصي الغابات... ولكنّ هذه المخابئ والملاجئ لا تخفى على زميل قديم خبير. فالذهبيّ الفم ابن الصحراء وابن الجبال والكهوف. وبعث رسالة إلى زملائه يحثّهم على الظهور في أنطاكية لتخليص

أخوة لهم من التعذيب والموت.

كيف انتشرت الرسالة؟ لا ندري. الذي نعرفه أنّ الخبر وصل إلى الجميع. وبدأت تحرّكات المتوحّدين نحو المدينة. إنّهم مسيحيّون أصيلون لا يهابون التعذيب ولا الموت. هم مثل بولس. وتوافدوا الواحد بعد الآخر. منهم عراة. ومنهم مَن يرتدي جلود الوحوش. وظهروا في المدينة: عظام مجرّدة إلاّ من الجلد. شعور ذقونهم ورؤوسهم تغطي نصفهم وبيدهم عصا كبيرة. جاؤوا إلى المدينة لينقذوها. هم وحدهم قادرون على عمليّة الإنقاذ.

بعد انتظار قلِقٍ طويل ظهر القدّيسون في أنطاكية وكأنّهم هبطوا من السماء. وفي الواقع ليس في هيئتهم ما يدلّ على أنّهم بشر، سوى الهيكل العظميّ، وبعض جلود الوحوش تستر أجسامهم، التي أحرقتها شمس الصحراء. «بعد سنين طويلة على انحباسهم تركوا كهوفهم وأسرعوا، من كلّ مكان، كأنّهم ملائكة هبطوا من السماء، إلى هنا». ويتابع الذهبيّ الفم: «ونزل القدّيسون إلى شوارع أنطاكية الحزينة. إنّ مجرّد وجودهم أدخل التعزية في قلوب المواطنين البائسين، وجعلهم لا يرهبون الخطوب التي تهدّدهم».

جاء القدّيسون من الصحراء لينقذوا من المجزرة «أناسًا ما سبق لهم أن رأوهم أو سمعوا بهم، أناسًا لا تربطهم بهم إلاّ رابطة الشقاء الذي هم فيه. لقد أحبّوهم بهذا المقدار حتّى إنّهم أتوا يبذلون حياتهم، متمنّين لو أنّ لهم حياة كثيرة ليهرقوها، لإنقاذ أولئك التعساء».

ولم يمضِ وقت طويل. يوم واحد. القدّيسون لا يحتاجون إلى أكثر من يوم ليروّضوا القضاة والجنود... ويوقفوا إراقة الدماء. في الصباح ظهر جنود الربّ. وفي المساء خيّم السكون والسلام على المدينة المتألّمة.

لم يكن ظهور القدّيسين المتوحّدين شبيهًا بنزول الملائكة فحسب، بل إنّ له مظهرًا آخر كما يقول الذهبيّ الفم: «عندما كان الناس في تخاذلٍ وجزعٍ كان النسّاك يجتازون الأماكن العامّة وكأنّهم أسودٌ. إنّهم محاربون شجعان يُرغمون أخصامهم على إلقاء السلاح، حتّى قبل منازلتهم،

ويجعلونهم يهربون لمجرّد رؤيتهم أو سماع صوتهم».

أليس من الصعوبة بمكانٍ أن نتمثّل إنسانًا يشبه، في آنٍ واحد، ملاكًا من السماء وأسدًا يتبختر في الساحة، يلقي الرعب في أوصال الخصوم لمجرّد مشاهدته أو سماع صوته؟ هذا الإنسان هو القدّيس الحقيقيّ. يقول الذهبيّ الفم «إنّ القدّيس يحارب وهو عريان حتّى لا ينال منه خصمه ممسكًا. وهو في الوقت عينه مدجّج بالسلاح حتّى أسنانه. إنّما هو سلاح روحيّ». هكذا كان ظهور المتوحّدين في أنطاكية، أبطال وملائكة، أي مجرّدون عن الأشياء العالميّة، ومسلّحون «بدرع الإيمان وخوذة الخلاص».

واحد من هؤلاء الملائكة، الأبطال اسمه مكذونيوس. إنّ احدًا لم يشاهد وجهه قبل اليوم. إلاّ أنّ اسمه معروف من الجميع. كانوا يلقّبونه بآكل الشعير. لم يتناول طعامًا، طيلة حياته، إلاّ الشعير. جاء ليروّض لا الوحوش بل الجنود. هو أوّل من ظهر في أنطاكية. ورأى في الساحة العامّة القاضيَين الأمبراطوريّين على حصانيهما، تحفّ بهما مفرزة من الجنود. فاعترض طريقهما وأمرهما بالترجّل. وتكلّم كمن له سلطان حتّى إنّ القاضيَين أطاعاه بسرعة، كأنّهما نسيا أنّهما الآمران في المدينة كلّها. وتوجّه القدّيس إلى الرجلين آمرًا إيّاهما بترك أنطاكية فورًا، والرجوع إلى القسطنطينيّة، وبأن يبلّغا ثيوذوسيوس أنّ كونه أمبراطورًا، لا يعطيه الحقّ إطلاقًا في أن يقتل إنسانًا واحدًا. صحيح أنّ الأنطاكيّين حطّموا بعض التماثيل، وهذا غير مستحسن، إلاّ أنّ الأنطاكيّين أنفسهم رفعوا كثيرًا من التماثيل، تماثيل أجمل من التي تحطّمت. هل يقدر الأمبراطور على أن يعيد تكوين إنسان قتله؟ هل يقدر على أن يعيد شعرة واحدة سقطت من رأس رجل؟ إذا كان الأمبراطور لا يستطيع إعادة إنسان إلى الحياة، فإنّه لا يحقّ له مطلقًا أن يقتل إنسانًا. يجب على الأمبراطور أن يعيد السيف إلى غمده، ويكفّ عن تقتيل الناس. كلّ إنسان مخلوق على صورة الله. كلّ إنسان نسخة عن الله. وقال مكذونيوس: «يجب أن يفهم الأمبراطور أنّه لا يحقّ له أن يمحو من سفر الحياة، ولا صورة إنسانية لأنّ الصورة

الإنسانيّة هي نموذج عن صورة الله»... وبعد أن قال القديس ما رأى واجبًا قوله، ذهب. ولم يغضب القاضيان بل وعدا القدّيس، بلطفٍ، تبليغ رسالته الحكيمة للملك. واعتليا جواديهما نحو مركزهما. ولكنّ حماسهما في التحقيق خفَّ كثيرًا. لقد استمعا إلى كلمات القدّيس بابتسامة ساخرة. ولكنّ هذه الكلمات علقت برأسيهما. هناك حقائق تفرض ذاتها. وكلمات القدّيس رسخت في ذاكرة الرجلين.

كان النسّاك العديدون، الآتون لإنقاذ أنطاكية، يلاحظون فروقًا بين طبقات الشعب. يجهلون الطبقيّة. حسب مفهومهم، القاضي والحاكم والأمبراطور يشبهون المتّهمين: رسومٌ للصورة الإلهيّة معلّقة في سفر الحياة. كلّهم متساوون. الله وحده القاضي. لذلك كان المتوحّدون يخاطبون الجميع، على قدم المساواة، وينادون كلّ واحد باسمه... لا يهابون مخاطبة القضاة والتوسّط من أجل المتّهمين، معلنين استعدادهم لإراقة دمائهم وتقديم رؤوسهم، لتخليص المساجين من القصاص الذي ينتظرهم.

جاء النساك يفتّشون عن الناس. ولمّا كانت المدينة مقفرة، توجّهوا، بدون دليل، إلى مكان التعذيب. منذ الصباح احتلّ النسّاك بنايات قصر العدل وملأوا الشوارع المحيطة. إنّهم عديدون. ولم يستطع الجنود طردهم لأنّهم لا يخافون السلاح. لقد وضعوا نصب عيونهم تخليص المساجين من العقوبة. وجعلوا أنفسهم فدية عن الآخرين. أجبروا القضاة على ترك المحكومين بالموت، إذ قدّموا ذواتهم ليموتوا عنهم. رموا بأنفسهم أمام المعذّبين لينقذوا أبناء أنطاكية. وقد توصّلوا إلى أخذ عهد من القضاة بألا تُمحى صورة بشريّة من كتاب الحياة. وهكذا دبَّ الشلل في القضاء الأمبراطوريّ. لا الجنود ولا القضاة ولا المعذّبون يقدرون على أن يمارسوا عملهم. توقّف تعذيب الناس لأنّ النسّاك انتصبوا بينهم وبين القضاء الظالم، طالبين التعذيب لأنفسهم. وهدّدوا بعدم الانسحاب إلاّ إذا نال السكّان عفوًا شاملاً. ولكنّ القضاة لا صلاحيّة لهم في إصدار هذا العفو. فقرّر النسّاك أن يسيروا إلى القسطنطينيّة، مشيًا على الأقدام، ليحصلوا

على العفو من الأمبراطور. ولكن شرط أن يتعهّد القضاة بألاّ يُزيلوا من سفر الحياة، أثناء غياب الرهبان، صورة بشريّة. فوعد القضاة. ومن باب الحذر والخوف والمحبّة، ارتأى الأبطال أن يبقى عددٌ منهم ليموتوا عن المحكومين، إذا حنث القضاة بوعدهم. أمرٌ مدهش!. ولكن من يُطيق أن يترك هياكل عظميّة تسير مسافة ١١٠٠ كيلومتر، بأقدام عارية؟ وتدخّل المندوبان الأمبراطوريّان لإقناع القدّيسين بكتابة عريضة إلى الأمبراطور وهما يوصلانها. وهكذا كان. وسار المندوبان إلى القسطنطينيّة حيث وصلا بعد ستّة أيّام. أجل، لقد ضربا الرقم القياسيّ بالسرعة. هما يشاركان، على طريقتهما، في خلاص أنطاكية.

وفي مساء اليوم ذاته، انسحب النسّاك إلى مناسكهم فرحين، لأنّ صُوَرَ الله لن تُمحى من الحياة.

«وهكذا يوم واحد كافٍ للقدّيسين بأن ينزلوا من جبالهم، أن يدافعوا عنكم، ثمّ يعودوا إلى أماكنهم». وانتصر الذهبيّ الفم وأنقذ سكّان أنطاكية.

وكان الأسقف فلافيانوس، في القسطنطينيّة، يقول للأمبراطور إنّ تاجك يا سيّد روما والعالم، رائع. «صحيح أنّ هذا التاج دليل استحقاقك ولكنّه يرمز إلى جُود الذي نقله إليك. أمّا تاج إنسانيّتك فالفضل فيه يرجع إلى حكمتك فقط. إنّ الناس يُعجبون بالأحجار الكريمة اللامعة على جبينك، إنمّا كم يكون إعجابهم بالانتصار الذي تحرزه على قلبك».

وحاول فلافيانوس إقناع ثيوذوسيوس بأنّه إذا سامح الأنطاكيّين سينال مجدًا عظيمًا، لا يسقط على مرور الأجيال. «إنّه من السهل على السيّد الاقتصاص من عبيده المتمرّدين. ولكن من النادر والصعب المسامحة. إنّك تعطي للأجيال الطالعة درسًا بليغًا». لكان الأمبراطور صفح عن الأنطاكيّين لو أنّه قدر على أن يتجاوز نفسه... (هي كبرياء الأباطرة والفراعنة والملوك!).

وهناك ناحية مهمّة في حياة الأمبراطور، وهي أنّه كان يتحرّق إلى تنصير العالم الوثنيّ قاطبة. من هنا أصدر قوانين تقاصص بالموت كلّ من

يقدّم عبادة للأوثان. كما أنّه أمر بتدمير الهياكل وأعلن أنّ زواج المؤمن من وثنيّة لاغٍ.

هذا الشوق الأمبراطوريّ استغلّه كاتب خطاب فلافيانوس. إذ إنّ الوثنيّين واليهود سيؤخذون بالعفو الأمبراطوريّ، ويصرخون «عظيم الله ومدهشة قوّة المسيحيّين!! سيلجأون، جماهير جماهير، إلى ديانة تعرف أن تطلب من أولادها أخلاقًا سامية. سيقولون: «أنظروا قوّة الديانة المسيحيّة، لقد أطفأت غضب إنسان ليس له في العالم معادل».

وقال فلافيانوس للأمبراطور إنّه ليس سفير أنطاكية وحسب. بل، وبخاصّة، سفير الله. «أنا من قبل الله أعلن لك أنّك إذا غفرت للناس خطاياهم وضعفاتهم، فأبوك السماويّ يغفر لك. فكّر بذلك اليوم الرهيب حيث نقدّم حسابًا عن أعمالنا. العفو الذي تصدره هو الحكم عليك في اليوم الأخير».

هكذا كانت رسالة الذهبيّ الفم إلى الأمبراطور. لم يهمل حجّة واحدة من شأنها أن ترقّق القلب الأمبراطوريّ. وطلب إلى فلافيانوس أن يقول لثيوذوسيوس: إذا لم يغفر للأنطاكيّين فإنّ الأسقف لن يعود إلى أنطاكية. «إذا لم تُصدر عفوك عن أنطاكية فلن أعود إليها. بل سأذهب إلى ساحل غريب حيث أموت بعيدًا عن وطني».

لم يكن فلافيانوس وحده المدافع عن أنطاكية. جميع سكّان القصر كانوا يحاولون استدرار عطف الأمبراطور. وجاء القاضيان الأمبراطوريّان برسالة الآباء النسّاك. ورأى الأمبراطور أنّه محاصر من جميع الجهات. فخضع. وأصدر عفوه عن المدينة الخالدة.

الكاهن النحيل، الهيكل العظميّ المجلّد، الذهبيّ الفم صنع خلاص أنطاكية. وفي أسبوع الآلام بلغ العفو، فكان العيد فيها عيدين: قيامة المخلّص وقيامتها من الموت. انتصار جديد يحرزه الذهبيّ الفم في طريق القداسة. ناضل، كبطل، في سبيل خلاص أنطاكية، وربح المعركة المصارع الأصيل في جنود المسيح.

الفصل الخامس

بعد إنقاذ انطاكية وسكّانها من الخراب والموت، انصرف الذهبيّ الفم إلى النضال من أجل الوطن الحقيقيّ، الوطن الخالد. لأنّ أنطاكية ليست الوطن الحقيقيّ للأنطاكيّين. فكان يخاطبهم قائلاً: «إذا كنتم مسيحيّين فاذكروا دائمًا أنّ وطنكم ليس على الأرض». في أنطاكية كما في سائر مدن العالم، الناس غرباء حتّى ولو وُلدوا فيها أبًّا عن جدّ «في السماء كتبت أسماؤنا. هناك نتمتّع، حقيقةً، بصفة المواطنين».

الهمُّ الأوحد عند الذهبيّ الفم أن يصير كلّ الأنطاكيّين مسيحيّين مثله، وألاّ يخسروا حقّهم في استيطان السماء. كان يدعوهم إلى اتّباعه. «لتنتعل أقدامكم حذاءً يسهّل عليكم اتّباع الإنجيل (أفسس ٦: ١٥) ويورد حياته مثلاً لهم. كانت عيشتُه في أنطاكية أكثر شظفًا من حياة البرّيّة.

لم يعرف الشرق خطيبًا أعظم من الذهبيّ الفم. قال عنه القدّيس نيليوس: «إنّه نهر من الذهب يسيل». وقال إيسيذوروس: «لم يظهر في اليونان خطيب أقدر من الذهبيّ الفم». أمّا «سويذاس» فيشبّهه بتدفّق النيل.

أمّا هو فكان يفضّل أن يخفّ إعجاب الناس بمواعظه، وأن يتزايد استعدادهم لتطبيق تعاليمه. وبلغ إعجاب الشعب به درجة العبادة!! أوّلاً كخطيب وثانيًا كقدّيس.

كان يوحنّا صغير القامة. رأسه أصلع إلاّ من بعض الشعرات. لحيته بيضاء. وجهه أصفر مثل ليمونة حامضة. نحيف، دقيق، يكاد لا يصمد

لنسمةٍ تهبُّ عليه. ولكنّ عينيه تشعّان بشعلة الإيمان. إذا تكلَّم لا يعود السامع يرى جسمه النحيل. «لا تمدحوا إنسانًا لجماله ولا تبغضوا أحدًا بسبب مظهره. النحلة صغيرة في الطيور المجنَّحة، ومع ذلك فليس من حلاوة تفوق ما تصنع من عسل». الشكل، المظهر، الخارج ليس له قيمة «كلّ مجد ابنة الملك يأتي من الداخل». كلّ ما هو ظاهر «فبدون أهمّيّة».

وفي هذا الوقت، كان الذهبيّ الفم قد نضج. والإنسان الناضج يولي اهتمامه الأمور الجدّيّة. أمّا الأشياء التافهة فلها الإهمال. القضايا التاريخيّة والسياسيّة أشياء ثانويّة صغيرة ولا تليق برجلٍ ناضج. يقول: «لا تقتفوا آثار الأولاد الصغار، ولا تُهملوا الأمور الكبيرة مبهورين بالأشياء الصغيرة، الأشياء الصغيرة هي الأمجاد الأرضيّة، الأباطرة، الحكّام، الوزراء وكلّ ما تبقى من المعزوفة. الذهبيّ الفم لا يعرفهم أو بالأحرى يتجاهلهم، مع أنّه ناضل ضدّهم إذ أرادوا أن يبيدوا سكّان أنطاكية. ويعرف كم هي رهيبة قوّتهم المدمِّرة، ولا يعيرهم انتباهًا أكثر ممّا فعل مكذونيوس، آكل الشعير. لا يخصُّهم بالانتباه لأنّهم لا يستحقّون أكثر من غيرهم. بالطبع الذهبيّ الفم يهتمّ بخلاصهم. القدّيس يقلق من أجل نفوسهم، ويريد لهم الخلاص، لأنّهم على صورة الله.

أراد الكونت أستيريوس أن يزور كنيسة الشهداء. وأوصل رغبته إلى القدّيس الذي قبل مرافقته. زيارة كنيسة، حيث مدفونة أجساد الشهداء، نافعة لكلّ إنسان حتّى ولو كان «كونت الشرق» أستيريوس. كنيسة الشهداء واقعة على ضفاف العاصي قرب باب «رومانيزيا». الموعد في مساء يومٍ من أواخر تشرين الثاني. الكونت رجل أعمال وأشغال. لا يفرغ لزيارة الكنائس إلا في المساء. عندما ابتدأ الظلام ينسدل تدثَّر الذهبيّ الفم بجبّته الوحيدة، لأنّه لا يملك أبدًا جبّتين. وحضر على بغلته إلى باب رومانيزيا في انتظار الكونت الذي حضر في الوقت المحدّد، راكبًا في عربة كونتيَّة مفروشة بالحرير، تجرّها جياد أصيلة. وقبل القدّيس دعوة الكونت فركب إلى جانبه. وسارت العربة.

وما كادت العربة تتحرّك حتّى فتح الكونت فاه قائلاً: «بالحقيقة، ليست غايتي زيارة كنيسة الشهداء. أرجو القدّيس أن يغفر كذبتي. وفي الواقع اتّجهت العربة وجهة أخرى. وكان الكونت قد تلقّى أمرًا من الأمبراطور بترحيل الذهبيّ الفم إلى القسطنطينيّة بتكتُّمٍ شديد. فبعد موت نكتوريوس أسقف القسطنطينيّة في ١٧ أيلول، رفض الأمبراطور أركاذيوس (ابن ثيوذوسيوس) قبول المرشّحين لخلافته جميعًا. أركاذيوس يريد أن يتسلَّم كرسي العاصمة يوحنّا. وخوفًا من نشوء اضطرابات في أنطاكية، لأنّ الشعب كان مستعدًّا لأن يثور ثورة حقيقيّة، إذا نُزع منه واعظه المحبوب جدًّا، طلب أركاذيوس ألاّ يعلم أحد بغايته. وهذا ما فعله أستيريوس. وفي أوّل محطّة كانت العربة الأمبراطوريّة تنتظر وصول القدّيس.

لم يخفِ يوحنّا دهشته إذ سمع أنّ الأمبراطور يعرفه. وفسَّر له الكونت مبتسمًا أنّ الأمبراطور يعرف كلّ ما يجري في العالم بواسطة شبكة من الرجال السرّيّين، جيش كامل من «الفضوليّين» كما كانوا يسمّونهم. وأخبره أنّ الوزير أفتروبيوس قصد أنطاكية ليستمع إلى الواعظ يوحنّا، فأعجب بعظته إعجابًا عميقًا. وعندما رجع إلى القسطنطينيّة طلب إضبارة يوحنّا وعرف منها كلّ شيء عنه. عرف أنّه قدّيس ليس له إلاّ ثوب واحد، لا يأكل إلاّ مرّة واحدة في اليوم، ينام في غرفة خالية من الأثاث، على سرير من الخشب. البوليس يعرف كلّ مراحل حياة القدّيس منذ الطفولة حتّى اليوم. كيف عاش في البرّيّة وكيف أنقذ أنطاكية. حتّى الأخطاء كان البوليس يعرفها. وهكذا عرف أفتروبيوس أنّ الذهبيّ الفم عنده نقيصتان: يحبّ أن يستحمّ كلّ يوم. هذه النقيصة الأولى. والثانية أنّه يحبّ العسل Bonbon Au Miel ويأخذ منه حبّة واحدة، نصف ساعة قبل الوعظ. ويعرف البوليس أيضًا أنّ الذهبيّ الفم، أثناء الحرّ الشديد، يضع في الماء بضع نقاط من النبيذ المعطَّر. وكان لهذه المعلومات تأثير شديد في نفس الوزير. كما أعجبه في القدّيس معرفته وموهبته. وهكذا عندما مات نكتوريوس أراد الوزير

أن يخلفه الذهبيّ الفم، واقترح على الأمبراطور اسم القدّيس. فقبل... بعد ذلك طمأن الكونت القدّيس بأنّه سيجد في العربة الأمبراطوريّة كلّ وسائل الراحة، وأنّ اثنين من «الفضوليّين» سيكونان في خدمته. وبعد أن ودّعه، انتقل الذهبيّ الفم إلى العربة الأمبراطوريّة التي ستنقله إلى القسطنطينيّة.

كانت البغلة تنتظر مع سائسها رجوع القدّيس. ولكنّه لن يرجع. إنّه في طريقه إلى القسطنطينيّة، ليجلس على عرش الأسقفيّة الذي لم يفكّر فيه. الذهبيّ الفم يعرف أنّه خادم الربّ. لذلك هو يقبل كلّ شيء. اهتمام واحد كان يشغله وهو أن يحافظ على «نفسه نقيّة». ما يريده الله «ليس الفصاحة الباهرة ولا المهارة في رصف الكلام، بل جمال النفوس». يجب عليه أن يحتفظ بنفسه طاهرة. حيثما وُجد فهو خادم الربّ. لن يصير أبدًا خادم الأمبراطور ولا الأمبراطورة ولا الوزير أفتروبيوس. حتّى وهو أسقف سيبقى فقط خادم الربّ. «إذا فتّشت عن إرضاء الناس فلست أرضي الله أبدًا» (غلاطية ١: ١٠). فكرة واحدة رافقته في سفره تكمن في عدم إرضاء الناس، بل إرضاء الله. هذا كلّ شيء. وصلّى إلى الربّ، هنا في العربة الأمبراطوريّة، أن يعضده في هذا التصميم. بدون مساعدة الله، الإنسان لا يقدر على أن يعمل شيئًا، حتّى ولو كان بطلاً مثل الذهبيّ الفم. لذلك استعطف الله ليبقيه خادمًا مخلصًا ليسوع. كان يصلّي في العربة الأمبراطوريّة لأنّه يعرف أنّ الله موجود دائمًا قرب البشر. «أنا الربّ القريب ولست بعيدًا» يقول الربّ (إرميا ١٣: ٢٣). بمقدور الإنسان أن يتّصل بالله في كلّ وقت وفي كلّ مكان، وأن يتوجّه إلى الله حتّى في عربةٍ، برفقة اثنين من «الفضوليّين». «تقدرون في كلّ وقت وباستمرار على أن تتكلّموا مع الله، وبدون أيّة صعوبة، يقول الذهبيّ الفم. والاحتكاك بالله لا يحتاج إلى حاجب، أو وكيل أعمال أو حاكم أو مدافع أو أصدقاء. تقدّموا إليه مباشرة وهو يستمع إليكم أكثر ممّا لو لجأتم إلى وسطاء».

كان الاستقبال الذي أقامه الأمبراطور للقدّيس حافلاً رائعًا. وفي وقت قصير، تعرَّف الذهبيّ الفم إلى رجال البلاط والشخصيّات الكبيرة. ولم

يكتم الذهبيّ الفم دهشته إزاء ازدهار العاصمة وتألُّقها، وهو الذي أمضى ستّة أعوام في الكهوف النائية. وكادت عيناه تعميان من البهرج والغنى، مع أنّ القدّيسين لا يهتمّون بما حولهم. وعندما زار القصر الأمبراطوريّ، القصر المقدّس كما كانوا يسمّونه، اضطرّ إلى أن يسير على ممرّات مفروشة بالذهب، وهو الذي لا يملك إلاّ حذاءً واحدًا. وكان من الطبيعيّ أن يتعجّب. ويزيد تعجّبه إذ علم أنّه يطأ على رمالٍ من الذهب الحقيقيّ المستورد من الهند. وعندما أراد أن يصف الموكب الأمبراطوريّ، لم يجد أمامه إلاّ كلّ ما يلمع لمعانًا حقيقيًّا، من ملابس الرجال المذهّبة والخيول التي تتبختر متباهية بالذهب، والعربات المرصّعة بالأحجار الكريمة والمفروشة بالحرير المطرَّز. ولكنّ هذه البهارج كلّها خسفت أمام منظر الأمبراطور بردائه الأرجوانيّ، بتاجه المرصّع، بصولجانه، بحذائه الأحمر وبهيبة وجهه.

ولم يكن الأمبراطور وحده يتزيّن بالذهب والأحجار الكريمة. وجهاء القسطنطينيّة وأعيانها لا يقصّرون في استعمال الذهب. لقد قال فيهم الذهبيّ الفم: «لو أعطي لهم لجعلوا كلّ شيء من الذهب الخالص: الأرض، الجدران، حتّى السماء والجلَد. أمّا النساء فكان حبّ الذهب في نفوسهن أعنف منه عند الرجال. أخاف جدًّا أن تنقلب النساء، في هذا السباق المجنون إلى حبّ الذهب، وحوشًا ضارية. أعتقد أنّهنّ يحلمن بشعورٍ من ذهب، برموشٍ من ذهب، وبأن يلصقن أوراقًا من الذهب على أجسامهن».

والمصيبة كانت تخفّ وطأتها على القدّيس، لو أنّ جنون الذهب اقتصر على الأمبراطور وحاشيته وأعيانه. إنّما القصر الأسقفيّ، بيت يوحنّا الجديد، كان يضاهي القصور العلمانيّة. لأنّ سَلَفه كان محافظًا للمدينة، وبعد إحالته إلى التقاعد، أراد الأمبراطور ثيوذوسيوس أن يجعله أسقفًا. فأمر بتعميده ثمّ سلّمه مقاليد الأسقفيّة. ولكنّه بقي، حتّى في لباس الكهنوت، محافظًا متقاعدًا. في القصر الأسقفيّ كلّ شيء من الذهب والفضّة، المقاعد من الحرير والمخمل، السجاد الثمين. الشمعدانات من ذهب. المطبخ مليء بالأدوات، كأنّه مصنع، يشرف عليه أمهر الطبّاخين في

القسطنطينيّة.

وأدرك الذهبيّ الفم، ممّا لاحظ ورأى، أنّ نضاله في القسطنطينيّة سيكون أشدّ عنفًا وضراوة منه في الكهوف والبراري، وأنّه سيكون في هذا النضال وحيدًا. أدرك هذا ولكنّه صمَّم على أن يرضي الله لا أن يرضي الناس.

إلى الآن والأسقف يراقب كلّ شيء. إنّه قويّ الملاحظة. ومن واجبه أن ينتبه إلى كلّ ما حوله لأنّه عازم على تحطيم كلّ ما لا ينال رضى الله. لقد رأى الأمبراطور من بعيد. ثمّ اقترب منه وتأمّله عن كثب. اسمه أركاذيوس. شابّ في العشرين، مسيحيّ، بمقدار ما يكون الأباطرة مسيحيّين. نشأ منذ نعومة أظفاره في الديانة المسيحيّة، وتتلمذ على رجل اسمه أرسانيوس صار في ما بعد قدّيسًا. ابن ثيوذوسيوس الكبير الذي وضع تصميمًا لتنصير العالم أجمع. والابن ينفّذ تخطيط أبيه. وفي محاولته تدعيم الأمبراطورية الرومانيّة، استعان ثيوذوسيوس بجيوشٍ جرمانيّة. ولماّ كان موظّفو الدولة فاسدين، اعتمد ثيوذوسيوس على الأساقفة. في المراكز الحساسة كان يأتي بموظّفين شرفاء مؤمنين، ويُلبسهم ثوب الكهنوت. بهذه الطريقة يخضع الشعب للموظّفين. لأنّ الشعب يطيع الأساقفة.

كان للأمبراطور ثيوذوسيوس ولدان: أونوريوس وأركاذيوس. قسّم أمبراطوريّته إلى قسمين. أعطى القسم الغربيّ لولده أونوريوس. وأركاذيوس أخذ القسم الشرقيّ. ووضع على كلّ واحد أوصياء. وكان يعرف أنّهما لا يقدران على أن يحكما إلاّ بمساندة الكنيسة. الكنيسة هي المؤسّسة الوحيدة النظيفة في الأمبراطوريّة.

وأوصى الوالد ولديه بأن يعتمدا على الكنيسة أكثر من اعتمادهما على الجيوش. المسيحيّة ازدادت قوّة. ولكنّ ثيوذوسيوس كان يفهم الكنيسة كما يفهمها الأباطرة، يعني كمؤسّسة تتدعّم بقوّة البوليس وقانون العقوبات. فأصدر القوانين ومنها قانون يلغي الزواج بين المسيحيّ وغير المسيحيّة، تحت طائلة الزنى. ومن يخالف الإيمان المسيحيّ يُحرق حيًّا

أمام الجماهير. أتباع آريوس طردهم من المدن. الجاحد بالدين المسيحيّ يخسر حقوقه المدنيّة. بهذه الطرائق والوسائل أراد ثيوذوسيوس تدعيم الكنيسة. ولمّا مات أوصى ولَدْيه بتكميل برنامجه.

في الثامنة عشرة من العمر، صار أركاذيوس أمبراطور الشرق. ولمّا استقبل الذهبيّ الفم، تذكّر وصيّة والده بأنّ الاسقف أنفع للأمبراطور من جميع رؤساء الجيش. لذلك جاء الاستقبال قليل النظير. وأظهر الأمبراطور الشابّ من الاحترام ما ليس بعده احترام. الأمبراطور في العشرين من عمره. قصير القامة. أصفر الوجه. يتلعثم في الكلام. والذي لفت انتباه الأسقف أنّ أركاذيوس يتكلّم وهو نصف نائم. ولم يكن النوم مسيطرًا على عينيه فقط، بل على فكره أيضًا. كان عقيم التفكير ولا يفقه شيئًا ممّا يدور حوله. ولكنّه، عندما استقبل الذهبيّ الفم، فتح عينيه واسعتين. ألم يقل له والده إنّ قوّة الأمبراطوريّة ترتكز على الأساقفة؟

احترام أركاذيوس للأساقفة ناتج من تقوى زائدة، وهو احترام مخلوط بكثير من الوساوس. الأمبراطور لا يجرؤ على إيذاء الكنيسة. أبوه أوصاه بذلك ومع أنّه نصف نائم فهو مطيع. في مقابلة الأسقف الجديد، فتح الأمبراطور عينيه جيّدًا وأبدى احترامًا نادرًا. وفتحُ العينين يعني كثيرًا بالنسبة إلى الأمبراطور الشابّ. فهو فتحهما أوّل مرّة ليرى صورة فتاة شقراء أعجب بها، فأمر بأنّها ستكون زوجته. ثمّ أغمضهما. والمرّة الثانية كانت يوم استقبال الأسقف الجديد. أمّا الفتاة الشقراء، الأمبراطورة فاسمها أفذوكيّا.

وفي أوّل مقابلة تعرّف القدّيس إلى أفذوكيّا أيضًا. كانت تختلف عن سائر نساء المدينة. وهذا طبيعيّ لأنّها غريبة. هي ابنة قائد جرمانيّ خدم في الجيش الرومانيّ. مات أبوها على دينه الجرمانيّ ولكنّه صنع من ابنته مسيحيّة. إنّه عاقل. فالفتاة المسيحيّة تقدر على أن تحرز مكانة في القسطنطينيّة وأن تتزوّج برجل كبير. لأنّ المسيحية هي دين الدولة. وعبادة الأوثان مضطهدة. ولم يرضَ القائد الجرمانيّ بأن تتعرّض ابنته

للاضطهاد، بعد موته بسبب الدين. ولكنّ أفذوكيّا أصبحت مسيحيّة طيّبة جدًّا. وكانت جميلة رائعة حتّى السحر.

وعرف الذهبيّ الفم أنّ الامبراطورة كانت دعامة للكنيسة فتهلّل. نفسٌ تعيش الإيمان هي موضوع فرح للقدّيسين. لقد فرح يوحنّا بتقوى الأمبراطور والأمبراطورة.

تمَّت رسامة الذهبيّ الفم أسقفًا، في ٢٦ شباط ٣٩٨، بأبّهة وعظمة. ترأس المراسيم الدينيّة ثيوفيلوس أسقف الإسكندريّة، الذي يُعتبر من أسوأ الأساقفة الذين عرفتهم الكنيسة. كانوا يلقّبونه بـ«الفرعون المسيحيّ». كان فظًّا مثل فرعون، محبًّا للذهب والأحجار الكريمة مثل فرعون، ويحتقر الإنسان مثل فرعون. ولا يحبّ الذهبيّ الفم لأنّه كان يريد أن يتسلّم أسقفيّة العاصمة أحدُ رجاله المصريّين. ورغم أنفه جاء يتوّج الذهبيّ الفم.

وأرسل الذهبيّ الفم رسائل سلاميّة، كما يرسم التقليد، إلى رؤساء الكنائس. وفي أوّل يوم بعد دخوله القصر الأسقفيّ، أحدث بعض التغييرات. غيَّر بعض الأشياء التي من شأنها إغضاب الربّ. فأمر ببيع جميع الأواني الفضّيّة والذهبيّة وتوزيع أثمانها على الفقراء. ثمّ باع السجاد وشيَّد بثمنه مستشفى للفقراء. وباع المقاعد الحريريّة والمغاطس الرخاميّة والشمعدانات وأقام بأثمانها مأوى للغرباء. باع المرايا واللوحات والأعمدة وترك الجدران عارية. وأخيرًا باع السرير، الحرير والمخمل والخشب النادر حيث كان ينام سلفُه نكتوريوس. وأتى بسرير من ألواح الخشب وغطاء بسيط. القدّيس لا ينام على الحرير ولا يحتاج إلى زينة على الجدران، إلاّ صورة بولس معلّقة على الحائط فوق طاولة العمل. وبعد ذلك صرف جميع الخدّام على اختلاف وظائفهم، بعد أن دفع لهم ما يحقّ لهم من المال. وأرسل جميع أدوات المطبخ إلى المأوى، إلى الفقراء.

لم يشهد سكّان القصر الأسقفيّ مثيلاً لما يجري أمامهم. وتكلّموا باحترامٍ مع سيّد القصر قائلين: إنّ أسقف القسطنطينيّة ثاني أسقف في

العالم، وعليه واجبات رسميّة. عليه أن يقيم مآدب، وأدوات المطبخ لازمة. عليه أن يدعو الأمبراطور والأمبراطورة والأعيان. هكذا يفرض البروتوكول!

وأبدى القدّيس أسفه قائلاً: إنّ الأسقف طبيب روحيّ وأب. وليس صاحب مطعم يدعو الناس ليملأوا بطونهم. ولكي يعطي لكلامه وزنًا عمليًّا، أصدر أمره ببيع غرفة الطعام بكاملها. وأعلن أنّه لن يدعو أحدًا إلى الطعام. وأنّه سيأخذ طعامه وحيدًا كما كان يفعل طيلة حياته. وأنّه غير محتاج إلى طاهٍ وأدوات. سيهيّئ، بنفسه أو بمساعدة أحد الرهبان، الخضار التي يتناولها مرّةً واحدة في اليوم.

لقد خاب أمل الأرستقراطيّين إذ طال انتظارهم للمأدبة التي تعوّدوا أن تقام لهم في الدار الأسقفيّة، وكثر تندّرهم عندما علموا أنّ الاسقف الجديد لا يأكل إلاّ مرّة واحدة في اليوم، وفي غرفته أو صَومعته... ووجبة الطعام لا تتغيّر: خضار وماء، يتناولها القدّيس الساعة السادسة بعد الظهر، ثمّ ينكبّ على عمله حتّى منتصف الليل. ولم يكن ينام أكثر من ثلاث ساعات. لم يقدر الأغنياء على أن يتصوّروا الأسقف الثاني في العالم يعيش حياة متقشّفة إلى هذا الحدّ. ولكنّهم اقتنعوا بأن قدّيسًا يقدر على ذلك. وأحبَّ الأغنياء الأسقف القدّيس واعتبروه طَريفًا! فأقبلوا على سماع مواعظه إقبالاً كبيرًا. إنسان واحد لم يقتنع، ولم يُرد أن يصدّق بأنّ القدّيس يعيش حياة قاسية. هو الأسقف أكاسيوس. كان صديقًا للذهبيّ الفم ويقيم في الملحقات. جاء القسطنطينيّة لأشغال خاصّة. وعرف الذهبيّ الفم بقدومه فدعاه للحلول ضيفًا عليه في القصر الأسقفيّ. وسُرَّ الأسقف أكاسيوس لهذه الدعوة التي لم يحلم بنوالها. هو، أسقف ملحقات، ضيف على أسقف القسطنطينيّة؟ هذا شرف غامر. غدًا، عندما يتحدّث عن ضيافته في القصر الأسقفيّ سيكون له مجد كبير. تمامًا كما لو نزل على الأمبراطور نفسه. اغتبط إذًا للدعوة. وقاده راهب إلى الغرفة المخصّصة له. كانت شبيهة بغرفة الذهبيّ الفم تمامًا، فيها سرير من الخشب وعليه غطاء، والجدران عارية. وفتح أكاسيوس فاه عجبًا وظنّ أنّ صديقه الذهبيّ

الفم يسخر منه. كان ينتظر أن يدخل غرفة مزيّنةً بالسجاد، فيها سرير حريريّ، وخدَّام و... كما اعتاد أن يرى غرفة أسقف. ولكن ماذا رأى؟ إنّها غرفة لا تليق بسائق العربة. وللحال ترك أكاسيوس القصر الأسقفيّ غاضبًا. ومن تلك اللحظة أصبح عدوًا لدودًا للذهبيّ الفم. وعبثًا حاولوا أن يفسّروا له أنّ أسقف القسطنطينيّة ينام في غرفة مماثلة. أكاسيوس لا يصدّق، لا يقدر على أن يصدّق. إنّ صديقه الذهبيّ الفم سخر منه، وهو لن ينسى له هذه الإهانة طالما فيه عرق ينبض. وسيحاول الانتقام لكرامته.

وقامت قيامة بعض الأعيان على القدّيس، معتبرين عدم دعوتهم إلى مأدبة الأسقف إهانة. وابتدأوا يخترعون الإشاعات... وكانت هذه الأقاويل الفارغة تصل إلى القدّيس بواسطة شمّاسه سيرابيون، القائم على الدار الأسقفيّة. لم يغضب الأسقف. القدّيس أقوى من النميمة. هو يمارس شظف العيش فقط لإرضاء الله. يهتمّ بالنفوس الإنسانيّة، وليس عنده وقت للمآدب والدعوات. إنّ استياءَ الطبقة الأرستقراطيّة لا يزعجه، لا من قريب ولا من بعيد، هو يعرف مسبقًا أنّه لن يُرضي الله والناس معًا. ولأنّه يفضّل أن يكون خادمًا أمينًا للسيّد، وليس للناس، فقد تابع حياته في القصر الأسقفيّ على النمط عينه الذي اتّبعه في المغاور: خضار، ماء، عزلة وصلاة.

تابع أركاذيوس اضطهاد الهراطقة تنفيذًا لوصيّة والده. وكان الآريوسيّون عُرضةً لهذا الاضطهاد أكثر من غيرهم. لم تُنزل الكنيسة الرسميّة اضطهادًا بلغ من العنف هذه الدرجة، حتّى إنّ كلّ ما له علاقة أو صلة بآريوس ومذهبه كان يُمحى. تمّت مصادرة جميع بيوت العبادة الآريوسيّة فما عاد لهم مكان يصلّون فيه، كما أنّ التجمّعات في المدينة حُرّمت عليهم. ولجأ الآريوسيّون إلى الطريقة التي يمارسها المضربون في هذه الأيّام. بما أنّ التجمّع ممنوع عليهم، فقد كانوا يصلّون وهم سائرون. مع كلّ مساء يقفون صفوفًا منتظمة، ويبدأ السير عبر الشوارع ويستمرّ طيلة الليل. إنّه احتفال رائع.

وحاول الذهبيّ الفم أن يقف في وجه الآريوسيّين على طريقتهم. في كلّ مساء يحمل المسيحيّون شموعهم ويسيرون في «زيّاحات»، متنقّلين من شارع إلى شارع. ولكن من أين يأتون بالشموع وهم يذيبون منها ألوفًا كلّ ليلة. وجاء دور الأمبراطورة. فتبرّعت أفذوكيّا من مالها الخاصّ بتقديم الشموع. وأكثر من ذلك. كانت ترتدي ثوبًا أسود مثل الراهبات، وعلى رأسها التاج الأمبراطوريّ، وتسير على قدميها في الموكب الدينيّ، جنبًا إلى جنب مع العبيد وعامّة الشعب. مثل هذه البادرة صعبٌ حدوثها في ذلك العصر. حتّى الذهبيّ الفم أعجب بتصرّف الأمبراطورة التقيّة، ومَدَحها بكلمات رائعة أمام جماهير غفيرة.

أصبحت أفذوكيّا مثال المؤمنات في رعيّة الذهبيّ الفم. كانت تبني الكنائس وترسم التصاميم بيدها. تقيم المآوي للعجزة والفقراء. الشغل الشاغل للأمبراطورة الشقراء والصبيّة الجميلة هو الكنيسة. والرجل الذي تستمع إليه بإجلال وإكرام هو الذهبيّ الفم. كلّ أموالها تُصرف على الكنيسة والفقراء والمرضى. وهكذا سمّاها الأسقف، عن حقّ، أمَّ الكنيسة.

تحوَّل القصر الأسقفيّ، في عهد يوحنّا، إلى دير. الرخام الثمين الذي كلَّف الأسقف نكتوريوس غاليًا، من أجل تجميل القصر، باعه الذهبيّ الفم ووزّع ثمنه، طبعًا على الفقراء!!

«البروليتاريا» أو الشعب الكادح وجدوا لأوّل مرّة مدافعًا وحاميًا. في كلّ مرّة يظهر مدافعٌ عن هذه الطبقة الشعبيّة تخسره بسرعة. السلطات تعتبر أنّ المدافعين عن الشعب يشكّلون خطرًا عليها وتاليًا تزيلهم من الطريق. ولكن هذه المرّة، كان المحامي أسقفًا، يعني أنّ السلطة لا تقدر على اتّهامه بالشغب والفوضى، كما يتّهمون عادة من يدافع عن الفقراء. وعلاوة على ذلك، فالذهبيّ الفم صديق الأمبراطورة، وهو شخصيّة رسميّة. الفقراء والمعوزون يحترمونه بإجلال بالغ.

وفي وقت قصير أُجلي كلّ شيء لا يُرضي الله عن القصر الأسقفيّ. وجاء دور الإكليروس.

كثيرون من الكهنة، من الأساقفة والشمامسة، يسكنون مع امرأة تخدمهم. كان الكاهن يختار فتاة يتيمة أو فتاة تودُّ تكريس نفسها لله، فيعلنها أختًا له بالمحبّة (المحبّة غير الحبّ!)، ويحتفظ بها طيلة حياته مدبرةً لبيته. الذهبيّ الفم لا يحبّ هذه الحياة المشتركة بين الرهبان والفتيات. وهو مقتنع بأنّ الله نفسه لا يحبّ هذه المساكنة، مهما كانت عفيفة.

الحياة مع امرأة في بيت واحد، هي في حدّ ذاتها لذةٌ زانية. وجود فتاة صبيّة باستمرار شيء مضرٌّ ومؤذٍ للراهب. «حسب اعتقادي الحياة المشتركة مع امرأة لا تخلو من شهوانيّة، حتّى خارج النطاق الزواجيّ، أو العلاقة اللحميّة».

ومع أنّ القدّيس لم يمارس هذا النوع من العيش، تحت سقفٍ واحد مع امرأة، فإنّه يرى بعين الفكر أنّ مجرّد الحياة مع امرأة في بيت نوافذه وأبوابه مغلقة، شهوةٌ ضدّ العفاف. «الاتّحاد بامرأة شرعيّة، إذ لا يعوقه مانع، يطفئ الشهوات، يولّد القرف أحيانًا، ويضع حدًّا للاندفاعات الشهوانيّة». المرأة الشرعيّة تكون ذات أولاد، معرّضة للمرض، وللشيخوخة. ومتاعب الولادة «تُذبل سريعًا زهرة الصبا وتكسر شوكة الشهوة... أمّا العذراء فهي معفاة من هذا كلّه. أين الممارسة الجنسيّة التي تستنزف القوى الطبيعيّة وتقتلها؟ أين آلام الولادة وأوجاعها التي تُسرع في إظهار التجعّدات؟ العذراء تحتفظ طويلاً بنشاط الفتوّة... الذي يلمس جسد عذراء يتحرّق بالاحتكاك أكثر ممّا لو رأى...»

حاول الذهبيّ الفم إقناع الرهبان بأنّ هذه الحياة المشتركة مشحونة بالخطيئة. من يقلْ العكس يكذب. «لقد شهد عصرنا هذا عديدًا من الرجال قيّدوا أجسامهم بالسلاسل، لبسوا «الخيش»، انعزلوا في قمم الجبال، عاشوا في سهرٍ وصوم متواصلين، أعطوا أقسى مثل في الانضباط، منعوا مطلقًا دخول النساء تحت سقفهم. وعلى قساوة هذه التمارين التقشّفيّة، كادوا لا يكبحون شهوتهم». وعلاوة على الخطيئة الذاتيّة فإنّ مثل هذه المعايشة تخلق الشكوك للذين في الخارج.

وهكذا منع الذهبيّ الفم الأساقفة والكهنة والشمامسة، وكلّ طغمة الإكليروس الخاضعة له، من التعايش مع امرأة في بيت واحد.

أيقظ هذا المنع عاصفة من الاحتجاجات. الرهبان والعذارى أصبحوا أعداء شرسين للأسقف الذي «منعهم من الحياة المشتركة». الذهبيّ الفم لم يتراجع ولم ييأس. هو يعرف أنّ المشاركة في التعايش لا تُرضي الربّ وتسبّب أضرارًا للكنيسة، وأنّه إذا قبل بهذه المشاركة يصبح هو مذنبًا بالخطيئة ذاتها التي يرتكبها الذين يتعايشون.

وأصدر الذهبيّ الفم أوامره إلى العذارى بترك بيوت الكهنة على الفور. وأسدى إليهنّ النصيحة بالزواج إذا كنَّ يرغبن الحياة مع رجل. إنّ العيش مع الرهبان موضع دينونة أكثر من حياة الساقطات. الكاهن هو بطل المسيح. «يقول الرسول بولس: لا تكونوا عبيدًا للناس. وأنا أقول لكم: لا تكونوا عبيدًا للفتيات اللواتي يوصلنكم إلى الهلاك. المسيح يريد أن ينضمّ إلى جيشه جنود شجعان، أبطال صناديد، لا يقعدهم النضال. والمسيح لم يسلّحنا بأسلحة روحيّة لكي نعيش خدّامًا لفتيات بائسات...».

الأسقف القدّيس قاسٍ عنيد. لقد طرد من الكنيسة الأساقفة والكهنة، الذين لم يرضخوا للأمر القاضي بإبعاد الفتيات عن بيوتهم. وهكذا نشأ أوّل جيش من أعداء الذهبيّ الفم. ولكنّ القدّيس لم يلنْ أو يُحجم. إنّه يزعج الإكليروس هو يعرف هذا. ولكنّه يُرضي الله وينظّف كنيسة المسيح.

بات القصر الأسقفيّ نظيفًا من كلّ ما يُغضب السيدّ. بيوت الإكليروس أيضًا صارت نظيفة... والآن جاء دور الكنيسة حيث يقيم الأسقف الصلاة. قليلاً ما كان الذهبيّ الفم يتكلّم من على المنبر. بل يقف أمام الباب الملوكيّ أو بين الشعب لأنّه يحبّ أن يكون قريبًا من شعبه.

ويقع بصره على جماعة من نساء القصر الأرستقراطيّات، وفي مقدّمتهنّ ثلاث صديقات للأمبراطورة: مارسيا، كستريسيا، وأنغرافيا. وفي كلّ مرّةٍ يرى القدّيس هؤلاء النسوة في الكنيسة، كان يشعر بأنّهن يجدّفن

على الله والكنيسة. وبخاصّة أنغرافيا، الأكبر سنًا، التي كانت تتبرّج مثل صنمٍ فرعونيّ... وكلّ مرّةٍ يرى القدّيس هؤلاء النسوة يضرب ذاكرته أنّهن يستعملن «آنية ليليّة» مصنوعة من الفضّة. فيحدّجهنّ قائلاً: «بكَم تثمّنّ «برازكنّ» حتّى تضعنَه في أوانٍ فضّيّة؟» ويعنف صوته: «اسمعن جيّدًا. أنا لا أعظ. بل آمر أمرًا. لكنَّ الحرّيّة في الطاعة أو العصيان. ولكنّ إذا استمرّيتنّ في هذا الخطأ فلن احتمل، وسأمنعكن من دخول هذه الكنيسة. الوثنيّون يسخرون منّا ويعتبرون ديانتنا خرافة. آمركنَّ إذًا بأن تتخلصّن من هذه الزينة وهذه الأواني الفضّيّة، وبأن تُعطى أثمانها للفقراء. انقطعْنَ عن هذا الجنون». ويتابع الذهبيّ الفم: «العصيان؟ الاحتجاج؟ فلن أتراجع أمام أحد! غدًا، عندما أقدّم حسابي أمام عرش المسيح، هل تكونون هناك للدفاع عنّي؟ وماذا بعد؟ هل معقول أن تُحاطَ الكنيسة بجمهور من البائسين، وهي عاجزة عن مساعدتهم، مع أنّ أبناءها أثرياء؟ الواحد متخوم في حين أنّ الآخر يموت جوعًا؟ الواحد يضع نفاياته في آنيةٍ فضّيّةٍ والآخر محروم من الخبز؟ هذا جنون، هذه وحشيّة!».

وينظر الذهبيّ الفم إلى أفغرافيا المدهونة مثل صنمٍ فرعونيّ، وإلى زينتها التي تشبه زينة المومسات فيصرخ: «لماذا تُرغمين جسدك على أن يجدّد شبابه وهو عن ذلك عاجز؟ ترمين خصلاتِ شعرك على جبهتك على طريقة المومسات، لتخدعي الناظر إليك. ولكن صدّقيني إنّك لن تفلحي إلاّ في تأكيد تجاعيدك» (بلاديوس).

النساء اللواتي يرتدين الأثواب الكاشفة، لإثارة الرجال في الشوارع أو في القصر، هنَّ مُجرمات. يجب أن تُقلع هؤلاء النسوة عن إظهار إغرائهنّ، الذي هو اعتداء سافر على الناظرين إليهنّ. «إنيّ أرى في اعتدائكنّ هذا شناعةً وسفالة، أين منهما جريمة القاتل وساقي السُمّ: لأنّ هذين إنّما يقتلان الجسد. أمّا هؤلاء النسوة فإنهنّ يُجهزن على الروح. إنّما هي صورة الله التي تقتلنها». وعلاوة على هذا فإنّ القاتل إنّما يفعلُ في غاية ما، للانتقام، للسرقة... «أمّا هؤلاء النسوة المرتديات ثيابًا كاشفة لإثارة

الرجال، فإنّهنّ يرتكبن الشرّ مجّانًا. يقترفن الجريمة من أجل الجريمة».

يعرف الذهبيّ الفم أنّه عنيف: «أعلم أنّ كلامي يغيظكم ويزعج إحساساتكم. ما ذنبي؟ تعاليم السيّد ووصاياه هنا... سامحوني. لم أقصد الخروج على اللياقة في حديثي عن هذه الأمور. ولكنّي مرغم».

أفغرافيا ومثيلاتها اللواتي قال لهنّ الذهبيّ الفم إنّهنّ مخفقات حتمًا في إرجاع الشباب لأجسادهن الشائخة، لن يغفرن له قول هذه الحقيقة. في جيوش الأعداء، وإلى جانب الكهنة والأخوات المحبوبات، انخرطت نساء القسطنطينيّة الأنيقات. الحقيقة إهانة يجب الانتقام من قائلها. والحقيقة دائمًا جارحة. وبخاصّة أفغرافيا التي نظر إليها الذهبيّ الفم وكأنّه يقصدها بالذات. ليس من امرأة تغفر هذه الإهانة. حتّى ولو كانت مسيحيّة. أفغرافيا لم تسامح الذهبيّ الفم.

وأراد الذهبيّ الفم أن يقتلع الخطيئة من جماعة القسطنطينيّة، متحمّسًا عنيدًا، كما نظّف القصر الأسقفيّ من الأثاث الفاخر. «الأغنياء يهينون الله باستمرار». ويؤكّد الذهبيّ الفم أنّ الأغنياء لصوص. «الكتاب المقدّس يعلمنا أنّ السرقة ليست فقط أن نأخذ ما لغيرنا. بل نكون سارقين عندما لا نوزّع ما نملك». الغنيّ كالحيوان المفترس. «الغنيّ لا يكتفي إلاّ إذا حاز كلَّ شيء. الغنيّ ليس إنسانًا، على وجهه تنعكس طبائعه الحيوانيّة. حتّى الحيوانات فإنّها أكثر رحمة وأقلّ شراسة».

الذهبيّ الفم يعرف أنّه أثار ضجّة كبرى بمهاجمة الأغنياء. يقول: «يتّهمونني بأنّني أكثر من مهاجمة الأغنياء. ولكنّ هؤلاء الأغنياء يظلمون الفقراء دائمًا. أجل. أهاجم الأغنياء ولكن أهاجم بالضبط الذين يسيئون استعمال غناهم». «الأغنياء أبنائي والفقراء أبنائي».

ويخاطب الغنيّ موضحًا له أنّ مهاجمته غير حقودة، «أودُّ تخليصك من البخل، وجعلك محبوبًا من الجميع وحاصلاً على الملكوت. أنا أحبّك... لكنّ غيري يكلّمك على نقيصة فيك؟ أنا طبيبك وأريد نجاتك. ولا أخاف عليك إلاّ من شيء واحد: الخطيئة».

وحصد القدّيس ثمار هذه الموعظة. انقطع الأغنياء عن المجيء إلى الكنيسة، وقامت محالفة بينهم وبين الأخصام القدامى، ولكنّ القدّيس لا يخاف إلاّ شيئًا واحدًا: الخطيئة. عداوة الإكليروس، عداوة الأغنياء، عداوة الأنيقات، عداوة المحبوبات لا ترهبه. القدّيس لا يعرف الخوف، إلاّ خوف الخطيئة.

أراد الذهبيّ الفم أن يخلّص من الخطيئة جميع الناس، على اختلاف طبقاتهم، ومن الأشخاص الذين يعيشون في الخطيئة الوزير الأوّل أفتروبيوس.

من هو أفتروبيوس؟

عبدٌ خصيٌّ. انتقل من سيّد إلى سيّد وانتهى إلى أحد جنرالات القصر، حيث تعرّف إليه الأمبراطور ثيوذوسيوس، فأعجب بذكائه وتهذيبه. فقرّبه واستشاره. وبعد موت ثيوذوسيوس أصبح أفتروبيوس المستشار الوحيد للأمبراطور أركاذيوس. ولمّا كان الأمبراطور الشابّ في حالة نعاسٍ دائم، أي نصف نائم، فقد حكم فعليًّا ومن ورائه مستشارُه. وهو الذي زوّج الأمبراطور بالفتاة الشقراء أفذوكيّا. ولكنَّ حياته الجديدة كانت جحيمًا إذ لم يغفر له الناس هذه الغلطة الكبرى، أي أن يصير، هو العبد الخصيّ، المستشار الأوّل، بل الحاكم الفعليّ للدولة. العبد عبدٌ ولو أمبراطورًا! لم تقدر المسيحيّة على أن تُقنع الناس بأنّ الإنسان هو، قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء، إنسان. أربعماية سنة على ظهور الدين الجديد لم تتوصّل إلى إقناع الناس بإنسانيّة الإنسان. والناس في القسطنطينيّة لم يغفروا للوزير لكونه وزيرًا. كان عليه أن يرفض هذا المنصب العالي. لماذا؟ لأنّه في الأصل عبد. وتحمَّل أفتروبيوس كثيرًا. أكثر من أيّ إنسان لا يملك خبرة العبوديّة. لأنّ العبد يعتاد الإهانات: يُباع، يُشرى، يوهب وليس له رأي في كلّ ما يجري له. وكان أفتروبيوس مسيحيًّا مؤمنًا صالحًا. ولكنّه، وهو وزير، لم يستطع احتمال الاحتقار والإهانة. تأتي ساعة يخسر فيها الإنسان سيطرته على ذاته. ولا يحتمل الإهانة، إجمالاً، إلاّ الذي لا

يستطيع أن يردّها. هذا طبيعيّ. ونفذَ صبرُ الوزير. وابتدأ بالانتقام. وكلّ شيء يبدأ صغيرًا ثمّ يكبر. هكذا حصل مع أفتروبيوس: أعدم خصمًا ثمّ كرّت السلسلة. وازداد الزحم. عند الانزلاق تكون السرعة بطيئة ثمّ... وفقد أفتروبيوس «فرامل» حقده وانتقامه.

وحاول الأخصام الهرب من وجه الكرامة الجريحة. وأين يذهبون وخصمهم واضعٌ يده على زمام الحكم؟ الكنيسة فقط ملجأ الهاربين من الحكّام الظالمين. لأنّ الدولة ليس لها حقّ في تخطّي عتبة الكنيسة. الداخل مولود. الضمانة الوحيدة للخلاص هي اللجوء إلى بيوت الله. ولكنّ انتقام الوزير لم يشبع بعد. الانتقام لا يرتوي بالقليل. عند اندلاع النار يكفي بعض الحطبات، ولكنّ النار تستدعي النار، وكلّ حطب الدنيا يذوب أمام اللهب المتزايد. وأصدر الوزير أوامره: ممنوع على الكنيسة إيواء الهاربين من وجهه الغاضب. هذا الموقف أقام الشعب جميعًا وحرّك حقدهم على الوزير. ماذا؟ أيهتك حرمة الكنيسة؟ إنّهم جميعًا ضدّه حتّى الفقراء والعبيد. ولم يتراجع الوزير بل رمى قفّازه وأزاح الستار. إنّه في العلن. يطلب الانتقام علنًا. يواجه. يظهر. وانطفأ سراج العقل في رأس ذلك المسكين. لم يكن وحده مذنبًا. إنّهم أحرجوه فأخرجوه. استكثروا عليه النعمة، وهو لم يحسدهم إذ كان لهم عبدًا. ولكن هذا منطق إنسانيّ عالميّ لا يعتمده الذهبيّ الفم. هو أسقف. قدّيس. والقدّيس لا يهمّه إلاّ شيء واحد، محاربة الخطيئة. المهمّ أن يخلّص أفتروبيوس من خطيئته. كان الذهبيّ الفم يحترق لرؤية الناس يستسلمون للخطيئة. إسمعه يقول: «لا أحبّ أن أخلص أنا، وأنتم تهلكون. آه، لو أقدر على أن أظهر لكم مقدار حبّي إيّاكم، إذًا لما نسبتم إليَّ لومًا بأنيّ أقسو في مخاطبتكم. ليس من عزيز عليّ أكثر منكم، حتّى نور عينيَّ».

بهذه العاطفة الأصيلة ذهب القدّيس إلى أفتروبيوس ليردَّه عن ضلاله. لقد خسر الوزير حياته على الأرض. فليربحها في السماء. والذهبيّ الفم لا يعظ الوزير وحسب. إنّما يقول له إنّك انتهكت حرمة الكنيسة حتّى النهاية. إنّك تحاول انتزاع حقّها بحماية الفازعين إليها، وسها بالك عن أنّ

إنسانًا في العالم مهما علا كعبُه، لا يحقّ له التعدّي على حرمة بيت الله. وكان من واجب الأسقف أن يدافع عن كنيسته حتّى الموت. «إذا رأيت الكنيسة في خطر فلا تسالمْ... وناضلْ حتّى الموت». وبصفته رئيسًا للكنيسة ومدافعًا عنها، فقد خلع الحذر وألقى سلاحه في وجه خصم الكنيسة.

حقُّ اللجوء إلى الكنيسة من أقدم الحقوق المرعيّة في العالم. وعندما لم تكن للشعوب شرائع كانت بيوت العبادة ملاجئ حصينة للخائفين، حتّى إنّ رجال الدولة كانوا يثقبون السقف ويرشقون نبالهم على المختبئين فيقتلونهم، بدون أن يتجرّأوا على الدخول، ظنًّا منهم أنّ ثقب السقف لا يمسّ حرمة بيت العبادة. أو كانوا يسدّون الأبواب على مَن في الداخل فيموتون جوعًا وعطشًا. وكان الرومان يضعون حرّاسًا أشدّاء أمام أبواب الهياكل أثناء الاضطرابات، حتّى لا يعود ممكنًا لأحد الدخول إليها.

أمّا إذا كان الفازع إلى الكنيسة هاربًا من دفع الضريبة، أو أيّ جزاء نقديّ، فإنّ شريعة الدولة تجبر الكهنة أو الرهبان الذين يأوونه، على تسديد ما يتوجّب عليه. ولكنّ الوزير أفتروبيوس أصدر قانونًا يُبطل حقّ الكنيسة في حماية الذين يمسّون كرامة الدولة، أي الذين يتآمرون على سلامته الخاصّة. من هنا بدأ الذهبيّ الفم معركته مع أفتروبيوس.

وكان للقدّيس حليف متحمّس وقدير. الأمبراطورة أفذوكيّا ساندت القدّيس في نضاله ضدّ الوزير.

كانت أفدّوكيّا شديدةً في مخاصمة أفتروبيوس، ولكن لدوافع تتباين ودوافع القدّيس. لقد اتّخذت من أزمة أفتروبيوس والكنيسة حجّة لتطلق العنان لانتقامها الكبيت من الوزير. لذلك، فلم يكد يصل إلى علمها أنّ القدّيس فتح النار على الوزير حتّى انتصبت إلى جانبه.

أفتروبيوس هو الذي دبّر زواجها بالأمبراطور وتاليًا هو السبب في صيرورتها أمبراطورة. ولكنّها امرأة فخورة، متكبّرة. مجرَّد الكبرياء، الفطرة في المرأة، لا يسمح للأمبراطورة بالخضوع لأوامر الوزير، كما لو أنّها أدنى منه. لأنّ الواقع كان يفرض عليها الانصياع لتعليمات الوزير كما يفعل

زوجها الأمبراطور. من هنا هي تريد التخلّص من الوزير لكي تصبح سيّدةً في قصرها.

وأمِلت أفذوكيّا أن توجّه ضربة قاضية للوزير بواسطة القدّيس، فتطرده من القصر ويكون لها ما أرادت.

في ربيع ٣٩٩ وصل إلى القسطنطينية أحد زعماء البربر – القوط، واسمه تريبيجيلد. كان هذا الزعيم من عائلة الأمبراطورة أفذوكيّا. وكان الجرمانيّون قد تعبوا من الحروب فانقطعوا عن مهاجمة الأمبراطوريّة الرومانيّة. بل أخذوا على عاتقهم الدفاع عنها، بعد أن تأكّد لهم عجزهم عن إخضاعها. ونالوا مقابل ذلك الأراضي وسلاحًا ومرتَّبات ماليّة.

جاء تريبيجيلد من مقاطعة «فريجيا» ليطالب الأمبراطور بزيادة المخصّصات العائدة إلى رجاله، وبأشياء أُخَر. وتمنّى أن يكلّم الأمبراطور شخصيًّا. ولكنّ أركاذيوس ترك أمر أمبراطوريّته لوزيره. فطلب الزعيم البربريّ مقابلة الوزير الذي راح يؤجّل ويماطل قاصدًا تحقير الزعيم. وفي الواقع فقد رفض الوزير طلبات الزعيم كلّها، وخاطبه بلهجة مُهينة. وكاد هذا الزعيم الشابّ يبكي غيظًا من الإهانات التي ألحقها به أفتروبيوس. وذهب إلى نسيبه الجنرال غايّناس، وهو بربريّ أيضًا، قائد الجيش في القسطنطينيّة. ولم يستغرب القائد ما جرى لقريبه الشابّ، لأنّه هو أيضًا نال حظه من الإهانات، وليس هو فقط، بل الجميع يتذمّرون من الوزير: الأمبراطورة، الشعب، الأسقف الذهبيّ الفم، العائلات الأرستقراطيّة، الجيش. بالاختصار الأمبراطوريّة جمعاء.

واتّفق غايّناس وتريبيجيلد على الحلّ الوحيد الممكن، ألا وهو موت أفتروبيوس. وأقسما على الانتقام معتمدين على الأمبراطورة وعلى جميع الناس. لأنّه لم يكن يوجد إنسان واحد لا يبغض أفتروبيوس. وعاد الزعيم الشابّ ليروي على مسامع رجاله ما أصابه من إهانة وتذليل عند الوزير. وثار الشعب البربريّ وأعلن الثورة. وما هي إلاّ بضعة أيّام حتّى اشتعلت فريجيا كلّها. وأعلن البربر الحرب على الأمبراطوريّة الشرقيّة وتحرّكوا نحو

القسطنطينيّة. وكان على أفتروبيوس، الوزير الحاكم، أن يوقف زحفهم.
ولكنّ الجيش الرومانيّ مؤلّف في أكثريتّه من البربر، حتّى القادة. وليس من الحكمة أن يُرسل أبناء الجنس الواحد ليبيدوا بعضهم بعضًا. وفتّش أفتروبيوس عن قائد غير بربريّ. وكلّف القائد «لاون» بمهمّة صدِّ هجوم البرابرة. إلاّ أنّ فرقته أبيدت. وهو مات. وتابع الأعداء تقدّمهم. وأخيرًا لجأ أفتروبيوس إلى غايناس، إذ إنّه القادر الوحيد على عمل شيء. وقبل القائد بالمهمّة. وعندما التقى ببني قومه، أرسل خبرًا إلى الوزير يقول إنّ الأعداء أقوياء، ولا يستطيع الصمود أمامهم. وكان هذا الموقف منسجمًا مع الغاية التي اتّفق عليها القائد مع نسيبه الزعيم الشابّ. عندئذٍ فكَّر أفتروبيوس بالمفاوضة، ولكنّ الزعيم الشابّ اشترط رأس أفتروبيوس للمصالحة، وأصرَّ على طلبه تحت طائلة الهجوم على القسطنطينيّة. وبالفعل كانت المدينة محاصرة.
ومرّة أخرى فتح الأمبراطور عينيه النصف مغلقتين، وخرج من نعاسه الطبيعيّ. الموقف شديد الخطورة. وهو لا يعرف ما يفعل. كما هي حاله دائمًا. واستدعى أفتروبيوس واستشاره في طلب البرابرة. الأمبراطور يطلب نصيحة صديق. قال للوزير: هل يجب أن أقطع رأسك وأقدّمه لطالبيه؟؟
ولم يكن سهلاً على أفتروبيوس أن يختار بين أمرين: إمّا رأسه وإمّا دمار القسطنطينيّة. وانسحب ليخلو بنفسه. وفيما هو ذاهب إلى غرفته تلاقى والأمبراطورة. أفذوكيّا في أشدّ حالات الرعب. والشعب كلّه يرتجف. الأعداء على أبواب المدينة وهم قادرون على أن يدخلوها بين ساعة وساعة، وهذا ما يلقي الذعر في روع الأمبراطورة. إنّ قطع رأس الوزير كفيل بتخليص المدينة. ونظرت الأمبراطورة إلى ذلك الرأس الذي لا تريد بقاءه في القصر، وقالت بصراحة للوزير أن يقدّم رأسه من أجل خلاص القسطنطينيّة، وعلاوة على ذلك فإنّ هذا الرأس بشع، مبغوض، قبيح!
وأخذ الوزير يد الأمبراطورة وضغط عليها بعنف قائلاً: «كوني حذرة!

اليدُ التي جاءت بك إلى هذا القصر ما زالت قويّة لطردك منه».
وانفجرت أفذوكيّا بكاءً ونحيبًا. وأخذت بين يديها ولديها فلاسيليا (٣ سنوات) وبولشيريا (٥ أشهر)، ودخلت على الأمبراطور الذي فتح عينيه على صريخ زوجته وطفليه. وأدرك الأمبراطور أنّ الأمبراطورة أُهينت وأنّها جاءت تطلب رأس الوزير.
الأمبراطور لا يتحمّل الصراخ والبكاء. وحتّى لا يسمع بكاء زوجته وولديه، أمر بقطع رأس أفتروبيوس، وحجز كلّ ممتلكاته. وما كاد الكاتب يسجّل أمر الأمبراطور، حتّى كان رجال القصر في طريقهم للقبض على أفتروبيوس، وتنفيذ رغبة الأمبراطورة. ولكنّ أفتروبيوس، الذكيّ الداهية، كان قد نجح في الهرب من القصر. ولكنّ رغبة أفذوكيّا الكبيرة جعلت الشرطة والحراس والخدّام في إثْرِ الوزير الهارب. والنساء الشابّات يعرفن أن يشتهين. وشهوة أفذوكيّا رأس أفتروبيوس.
ولكنّ أفتروبيوس، كان في كاتدرائيّة «آجيا صوفيا»، راكعًا أمام المذبح، طالبًا حماية الذهبيّ الفم. وذكّره القدّيس بأنّه أصدر أمرًا بحرمان الكنيسة حقّ حماية اللاجئين إليها. وارتدّ على الوزير. هو أغلق على نفسه طريق الخلاص. وغرق الوزير في لجج اليأس. إلاّ أنّ الذهبيّ الفم، ككلّ قدّيس، يحترم قبل أي شيء، الشرائع السماويّة. لقد قدّم المساندة لأفتروبيوس كما يجب أن يُعامل إنسان واقع في شدَّة. ووعده بأن تحميه الكنيسة رغم أنّه منعها من حماية الذين في الآلام والشدائد. وقال القدّيس للوزير: إنّ الكنيسة تَبلغ أوج مجدها إذ ترى مضطهديها يطلبون حمايتها.
في هذه الأثناء تجمّع رجال القدّيس، الكهنة والأساقفة والشمامسة والشمّاسات، جميعًا طلبوا إلى القدّيس أن يسلّم عدوّ الكنيسة. وحوصرت الكنيسة بالجيش والشرطة. سكّان القسطنطينيّة تجمهروا حول الكنيسة طالبين رأس أفتروبيوس، محتجّين على القدّيس الذي آوى الظالم. وخرج القدّيس إلى باب الكنيسة الخارجيّ، وجابهَ الجيش والشعب معًا. قال لهم: إنّ الكنيسة تمارس حقّها في حماية اللاجئين إليها رغم القوانين التي يسنُّها

الوزراء. على الأسقف أن يدافع عن الكنيسة، وعن حقّها في أن تكون ملجأ. لا أحد يقدر على أن يدخلها إلاّ مرورًا على جُثة الذهبيّ الفم. طالما هو على قيد الحياة فلن يسمح لأحد بأن يمسّ اللاجئ إلى الكنيسة.

الجنود يحملون أمرًا بإخراج الوزير المرذول عدوّ الكنيسة. أمّا الذهبيّ الفم فقطع الطريق على الجنود، وأعاد على مسامعهم أنّ الكنيسة هي جسد المسيح، وأنّ الأسقف يجب أن يدافع عنها. وكيف يصمد الذهبيّ الفم، بجسده النحيل، أمام جنود أقوياء، نفخة الواحد منهم كفيلة بإلقائه أرضًا؟ إنّما هي الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الكنيسة. وكشف الذهبيّ الفم عن صدره وقال للجنود: أقتلوني قبل أن تدخلوا إلى الكنيسة. وتجمّد الجنود وتجمّد الشعب. وطلب القدّيس من الجنود أن يقتادوه، هو، إلى القصر حيث يقابل الأمبراطور شخصيًّا. ومشى القدّيس بين الحراب كأنّه مجرم.

وأغلق الذهبيّ الفم باب الكنيسة بالمفتاح. وسار في شوارع القسطنطينيّة، مثل قاتل تحفّ به السيوف، حتّى وصل إلى القصر الأمبراطوريّ.

ولكنّ الشعب، عند مرأى أسقفهم، معبودهم، مُقادًا كالمجرمين، نسوا كلّ شيء، حتّى أفتروبيوس ورأسه. تبعت الجماهير أسقفها السجين إلى قصر الأمبراطور. واستقبل أركاذيوس الذهبيّ الفم الذي قال له: الكنيسة تتمتّع بحصانة وهذا حقّ مقدّس. وهي قادرة، بهذا الحقّ الإلهيّ، على أن تحمي أفتروبيوس. يحقّ للكنيسة أن تأوي جميع الملاحقين من العدالة الإنسانيّة اللاجئين إليها. وحاول أركاذيوس أن يناقش الذهبيّ الفم لاهوتيًّا، فذكر للقدّيس الإهانة التي ألحقها أفتروبيوس بجلالة الأمبراطورة، وقال إنّ أفتروبيوس لا يستطيع اللجوء إلى الكنيسة، إذ إنّه سلبها هذا الحقّ. وكان جواب الذهبيّ الفم: إنّه مجدٌ للكنيسة أن تحمي حتّى أعداءها. وارتبك الأمبراطور. بماذا يجيب؟ فصاريبكي؟ الأولاد يبكون عندما يرتبكون.

في هذا الوقت، كان الشعب المحتشد يتململ ويصرخ مطالبًا برأس أفتروبيوس. وأبدى أركاذيوس جهدًا وخرج إلى الشرفة يخاطب الشعب المتحمّس. لم يكن الأمبراطور خطيبًا. والشعب يزأر طالبًا الموت للوزير. ووجد الأمبراطور نفسه عاجزًا عن مجابهة الجماهير، عاجزًا عن قول كلمة واحدة فراح يبكي متطلّعًا إلى الذهبيّ الفم. بكى الأمبراطور أمام الأسقف والشعب، ولم ينبس ببنت شفة. ونزلت دموعه كالسحر على الشعب وعلى الجنود. فسكت الجميع متأثّرين مشفقين.

وبقي أفتروبيوس حيًّا بواسطة الكنيسة.

وفي الغد، اليوم الثاني على هذه الحوادث، وكان يوم أحد، غصّت الكنيسة بالناس. لم يبق إنسان في بيته. كلّهم جاؤوا إلى الكنيسة متشوّقين إلى معرفة أخبار أفتروبيوس، وإلى سماع الذهبيّ الفم. حتّى في يوم الفصح لم تشهد الكنيسة مثل هذه الجماهير الآتية لتأخذ خبرًا عن الحدث العظيم، الذي جرى نهار الأمس.

أقوى رجل في الأمبراطوريّة سقط، وهو الآن مختبئ في الكنيسة. وعرَّض الذهبيّ الفم حياته دفاعًا عن الوزير، وما زال يحميه. وحدَه جابه الجنود والجماهير والأمبراطور، واقتيد كسجين تحفّ به السيوف والحراب. هذه أمور لا تحدث إلاّ نادرًا، وهي تلهب حماس الجماهير. الذهبيّ الفم يشبه داود لأنّه قهر الجيش وقهر الجماهير، وحده. شجاعة القدّيس أدهشت الشعب والأسقف يعرف أنّه شجاع: «الفخاخ والمكائد لا ترجفني... إنّ احدًا لا يستطيع أن ينسب إليَّ التراجع والاستسلام، حتّى إذا أعلن العالم كلّه الحرب عليَّ. لأنّ مثل هذه الحرب لا تزيدني إلاّ شرفًا وكرامة. أنظروا إلى المبدأ الذي إيّاه أريدكم أن تعتنقوا: لا تهابوا غضبة الإنسان القدير، لا تخافوا إلاّ بغاء الخطيئة. الإنسان لا يقدر على أن يضرّكم. أنتم فقط تقدرون على أن تُلحقوا الضرر بأنفسكم إذا استسلمتم للخطيئة».

وظهر الأسقف في الباب الملوكيّ لإلقاء وعظته، فخيّم على الجميع صمت مهيب. كان شاحبًا أكثر من العادة، تعِبًا. حوادث الأمس مرهقة.

والشعب ضدّ موقف الذهبيّ الفم. الشعب لا يريده أن يحمي أفتروبيوس. ليس من عائلة لم ينلْها حظٌّ وافر من ضربات الوزير. والقدّيس يعرف موقف الشعب ومشاعره ويعرف أنّه يطلب الانتقام. وبدرت إشارة من يد الأسقف، فانزاح الستار عن الهيكل، وظهر أفتروبيوس راكعًا أمام المذبح يغطّي رأسه الرماد، مرتديًا ثيابًا ممزّقة، تصطك أسنانه خوفًا، وعيناه يملأهما الرعب، إذ رأى الشعب على بعد خطوات منه. مشهد لم يترقّبه أحد. وبلغ الاضطراب ذروته. واستغلَّ القدّيس هذا الاضطراب وتوجّه إلى سكّان القسطنطينيّة: «في هذه اللحظة، جدير بنا أن نقول مع الحكيم: باطل الأباطيل، كلّ شيء باطل».

وتابع مخاطبًا الشعب مشيرًا بأصبعه إلى أفتروبيوس: «والآن أين جلالُ السلطان؟ أين لمعان الأضواء والمصابيح؟ أين المصفّقون والمغنّون والراقصون؟ أين الحفلات؟ أين الموائد المثقلة باللحوم والخمور؟ أين الخدم والحشم؟ كلّ هذا مضى...». والتفت إلى الوزير الراكع متابعًا: «ألم أقل لك بتواتر إنّ الثروة زائلة؟ فلم تسمع! ألم أقل لك إنّ طبيعة المال مثل طبيعة الخدم العقوقين، الذين لا يفكّرون إلاّ بالهرب؟ فلم تصدّق! وجاءت التجربة تعطيك البرهان ليس فقط على عقوق المال، بل على أنّه قاتل أيضًا، لأنّه يجعلك ترتجف وتشحب... حاربت الكنيسة، وها الكنيسة تستقبلك في حضنها. الكنيسة التي اضطهدتَها لا تفكّر اليوم إلاّ بأمر واحد: أن تمدَّ يدها لك في محنتك، أن تنقذك». وأدار الذهبيّ الفم وجهه إلى الشعب وهو يقول: «مَن كان أكبر من هذا الرجل؟ مَن يدّعي أنّه يعادله في الثروة؟ لقد بلغ الذروة في الشرف والمجد. كان محسودًا. كان مخوفًا. واليوم هو بائس أين منه الأسير المثقل بالحديد، عريان أين منه العبد، وفقير أين منه الشحّاذون الجائعون... وماذا بقي له؟ الموت بجميع مرعباته ومخاوفه...»

وطلب الذهبيّ الفم إلى المؤمنين أن يتجنّبوا خطايا أفتروبيوس، أن يستعبروا حاله.

الذهبيّ الفم مصمّم بشدّة، وبكلّ قوّته، على حماية أفتروبيوس: «هاجم الكنيسة؟ نعم! ولكنّه لجأ إليها... هل من ظَفرٍ أبهر من وجود هذا المذنب في أحضانها؟ احترموا أفتروبيوس في هذا الملجأ... إنّه أجمل زينة للمذبح. لقد أغلق بنفسه هذا الملجأ، وأبطل بأمره الغفران الذي يستجديه. ولكنّ حصانة هذا الملجأ ترسّخت أكثر فأكثر بلجوئه إليه».

مع هذه الكلمات الأخيرة، انسدل الستار على أفتروبيوس. وغادر الشعب كنيسة «آجيا صوفيا» في أعنف حالٍ من التشويش والاضطراب.

وبقي أفتروبيوس في الكنيسة ثلاثة أيّام تحت حماية الذهبيّ الفم. لا الأمبراطور ولا العسكر ولا الشعب، استطاعوا أن يخرجوه من الكنيسة. هذا نصر مبين للقدّيس. ولكنّ شخصًا واحدًا لم يستطع أن يتنازل عن الانتقام. أفذوكيّا. أحيانًا، تتمسّك المرأة بالانتقام أكثر من حياتها. وما معنى حياتها إذا لم تقطع رأس أفتروبيوس الذي أهانها؟ وبعثت برجال سرّيّين، جواسيس، إلى الكنيسة يُقسمون للوزير بأنّ حياته في مأمن. انخدع أفتروبيوس وهرب من الكنيسة. ولم يكد يضع قدميه خارجًا حتّى كان الحديد يثقل جسمه. وأرسلته الأمبراطورة إلى قبرص.

مَن يترك كنيسة المسيح يعرّض حياته للخطر الكبير. وقال الذهبيّ الفم للمؤمنين إنّ أفتروبيوس لو لازم الكنيسة لما وقع في أيدي خصومه. لا يكون الإنسان في أمانٍ إلاّ في أحضان الكنيسة.

لم تكن إرادة الأمبراطور أن يموت أفتروبيوس. لقد وعد بذلك، ولا يريد أن يحنث بوعده. وكلّفت الأمبراطورة أحد القضاة بإيجاد فتوى تقتل بها غريمها. ولكنّ جرائم أفتروبيوس كلّها مُحيت لأنّ الأمبراطور أصدر عفوه. إذًا افتروبيوس بريء. ولكنّ رغبة الأمبراطورة لا تُقاوم. من أجل هذه الرغبة فقط يجب أن يموت الوزير. هذا سهلٌ على القاضي أوريليانوس. إنّ للقضاء منطقه الخاصّ. القضاء يقدر على أن يحكم على إنسان فيبرّئه، كما يقدر على أن يبرئ إنسانًا فيدينه.

الإهانات اللاحقة بالأمبراطورة، السرقة، السلب، استغلال الثقة،

تعذيب الناس، تقتيل البشر، الفساد، كلّها غُفرت للوزير لأنّ الأمبراطور وعد بذلك!!

وأثناء التنقيب، وقع نظر القاضي على صورة للوزير، يوم تسلّم منصبه كمستشار. وتفحّص القاضي هذه الصورة. إنّه يفتّش عن ذنب اقترفه أفتروبيوس، ولم يعلم به الأمبراطور، وتاليًا فلم يدركه العفو. ووجد ضالته. بين الإشارات والأوسمة على صدر أفتروبيوس، إشارةٌ لا يضعها إلاّ الأمبراطور! قد يكون الوزير وضعها قصدًا، أو قد يكون الخائط علّقها عفوًا. المهمّ أنّها موجودة حيث يجب ألاّ تكون. وتعلّق بها القاضي ذريعة للقضاء على أفتروبيوس. ألم نقل إنّ للقضاء منطقه الخاصّ. وهكذا قُطع رأس المستشار، من أجل إشارة أمبراطوريّة! أمّا الجرائم الأخرى، التي هي حقيقةً جرائم، فقد غسلها عفو الأمبراطور. الأمبراطور لم يحنث بوعده. منطق!

وتألّم الذهبيّ الفم عميقًا. ليس لأنّ أفتروبيوس أعدم، وليس لأنّ الأمبراطورة أظهرت محبّةً للانتقام. بل كان ألمُ القدّيس ناتجًا من كونِ المؤمنين لم يستعبروا ما حلَّ بالمستشار. واحدٌ من المؤمنين لم يتغيّر، ولم تظهر علامات التوبة على المؤمنين، بل على العكس فإنّهم تشبّهوا بالوزير، وفعلوا تمامًا ما كان يفعل. لقد انقضّوا على ثروة الوزير كبنات آوى. وأحبّوا المال الذي أحبّه فمات به.

القدّيس يحزن للخطيئة، ويتألّم أكثر ممّا لو أنزلت الجراح بجسده.

الفصل السادس

مات أفتروبيوس. ولكن هل استقامت الإدارة في القصر؟ أصبحت الأمور بيد الأمبراطورة وأصدقائها، وأوّلهم عشيقها، الكونت جان. ثمّ صديقاتها أفغرافيا وكاستريسيا ومارسيا اللواتي لم يقل التاريخ فيهن إلاّ كلّ شرّ. كذلك القاضي أوريليانوس الذي يتقن تحرير القوانين وتطبيقها. وأخيرًا زوج كاستريسيا. هذه الزمرة كانت تحكم الأمبراطوريّة.

رجل واحد أعلن المعارضة ضدَّ فريق القصر، إنّه الذهبيّ الفم. طلب من الأمبراطورة وجماعتها أن يكونوا فاضلين صالحين، كما كان يطلب من المؤمنين جميعًا. هذه الدعوة إلى الفضيلة لم ترضَ عنها النساء الأنيقات.

والبرابرة أيضًا كانوا يشكّلون مصدر قلق للأمبراطوريّة. وحاول الأمبراطور أن يفاوضهم لأنّ جيوشه عاجزة عن صدّهم. وكان شرطهم أن يتقاضوا مع الأمبراطور بالذات، إذ إنّ مثل هذه الأمور من شأن الرجال. ولكي تكون محادثاتهم مع الأمبراطور نافعة، مجدية، طلبوا تسليمهم الرجال الثلاثة: عشيق الأمبراطورة والقاضي وزوج كاستريسيا. ووقع الأمبراطور في الحيرة. أين أفتروبيوس فيستشيره؟ وطلب من أفذوكيّا نصيحة. ولكنّ الأمبراطورة لا تتنازل عن عشيقها لو خربت الدنيا، ولو دخل البربر المدينة. وقررت أفذوكيّا أن يكون جواب الأمبراطور سلبًا. إلاّ أنّ السفينة سارت عكس رياح الأمبراطورة. فقد قرَّر الرجال الثلاثة، بشجاعة وحميَّة، أن يسلّموا أنفسهم للبرابرة من أجل خلاص المدينة. العذاب محمول من أجل الوطن وخلاص الشعب.

وصار استقبال الأرستقراطيّين الثلاثة كما كان منتظرًا أن يصير. طُلب منهم أن يخلعوا ثيابهم أمام رؤساء البرابرة. ثمّ قيّدوهم. وجاء الجلادون. ووضع الثلاثة رؤوسهم استعدادًا للقطع، ولكن في كلّ مرّةٍ كانت الفأس تلامس رقابهم، فيرتعشون رعشة الموت، تتراجع يدُ الجلاد بين ضحك المشاهدين وسرورهم. واستمرّ هذا العمل المتواصل مدّة ثلاثة أيّام. وتناهى إلى مسامع الأسقف ما يحدث في معسكرات البرابرة. فتوجّه بالمركب نحو المعسكرات، وحده. لأنّ القدّيس لا يخاف البربر.

وطلب من غايناس أن يكفّ عن تعذيب البشر، لأنّ هذا غير لائق بالكرامة الإنسانيّة. ودهش غايناس لجرأة القدّيس الذي يتكلّم ندًّا لندٍّ. وصدر العفو عن الرجال. ولكنّ البرابرة يطلبون أن يأتي الأمبراطور بنفسه يفاوضهم. واصطحب القدّيس الأمبراطور. وحضر المناقشات والمفاوضات التي انتهت بإسناد قيادة الجيش إلى البرابرة، وتعهّد البرابرة حماية الأمبرطوريّة. ودخل البرابرة إلى المدينة حماةً لا فاتحين. وانتصر القدّيس مرّةً أخرى. وأنقذ مدينة القسطنطينيّة وسكّانها من الغزو البربريّ.

لم يكن هذا النصر إلاّ ثانويًّا بالنسبة إلى الذهبيّ الفم، الذي يريد تخليص الناس من الخطيئة. وهذا الخلاص لا يصير إلاّ في الكنيسة التي هو بطلها والمناضل عنها.

وتجرّأ البرابرة على التعرّض للكنيسة. عندما دخلوا في الأمبراطوريّة الرومانيّة، خضعوا لشروط الدولة التي فرضت عليهم اعتناق الديانة المسيحيّة. في ذاك الوقت، كان الأمبراطور الرومانيّ من أتباع آريوس. إذًا، دين الدولة هو الآريوسيّة. وتبع البرابرة أمبراطورهم. والشعوب على دين ملوكهم. ومات الأمبراطور، وعاش الأمبراطور. ولكنّ الجديد كان أرثوذكسيًّا، مستقيم الرأي، فطلب من البربر أن يتركوا التعليم الآريوسيّ ويعتنقوا الدين المستقيم. فرفضوا. لم يكن رفضهم تمسّكًا بعقيدة، بمقدار ما كان من أجل احترام النفس. هل هم دُمى؟ ما هو هذا المنطق الذي يفرض عليهم تغيير مذهبهم إكرامًا للأمبراطور. الدين في نظر البرابرة

أمرٌ جدّيّ رصين، لا يجوز التلاعب به. وظلّ البرابرة آريوسيّين.

والآن وقد أصبح الجيش في معظمه بربريًّا، فبات من حقّهم أن يطلبوا فتح كنائس آريوسيّة، وأجاب الأمبراطور أنّ هذه القضيّة من صلاحيّات الأسقف. فما عليهم إلاّ أن يراجعوا صاحب الكلمة.

وانزعج الذهبيّ الفم. لا يسمح إطلاقًا بفتح كنائس للهراطقة. في رأيه الكنيسة واحدة. هي التي أسّسها الرسل. وكلّ ما هو خارجها هرطقة. فلا يتركهم إذًا يهاجمون كنيسة المسيح، الكنيسة الحقيقيّة. لأنّ واجب الأسقف الأوّل أن يدافع عن كنيسته ولو بدمه.

هذه المرّة أدرك غايناس أنّ المجابهة صعبة. فالخصم يوحنّا الذهبيّ الفم!! محاربٌ أصيل مستعدّ لأن يدافع عن كنيسته ضدَّ كلّ شيء، الخطيئة، الآريوسيّين، وجميع الأخطار. وأمام شجاعة الذهبيّ الفم، تراجع غايناس، ولم يفتح كنائس للهراطقة الآريوسيّين.

وراح الذهبيّ الفم يخاطب البرابرة. استعان بترجمان ليوصل إليهم كلمة الأرثوذكسيّة. ولكنّ البرابرة كانوا مشغولين بأمور أكثر أهمّيّة بالنسبة إليهم. كانت حالهم تتردّى وتتقهقر. تريبيجيلد مات. وقام زعيم بربريّ يتآمر مع الأمبراطوريّة على أبناء جنسه. وفي ليلة هجم برافيا مع جيشه البربريّ، يشاركه الشعب والحرس الأمبراطوريّ، على معسكر غايناس: فذبحوا من ذبحوا. وهرب من هرب. وكان غايناس في عداد الهاربين إلى جبال الكربات (رومانيا)، حيث وقع في أيدي «الهون» الذين قطعوا رأسه وأرسلوه هديّة إلى الأمبراطورة. كانت هديّة لطيفة لأنّ غايناس عذّب عشيق الأمبراطورة الكونت جان. فكيف لا تنشرح المجروحة كرامتها؟

الفصل السابع

أحرز الذهبيّ الفم انتصارات رائعة ضدّ أفتروبيوس وضدّ البربر. ويستحقّ الآن قسطًا من الراحة بعد جهاد عنيف. ولكنّ الذهبيّ الفم ما عاش إلاّ للنضال. ومن أين للقدّيس أن يرتاح؟ «القديّس يعيش في خوف دائم ليضمن الأمان الدائم» يقول يوحنّا. وكانت «الدينونة الأخيرة» تشغل على الذهبيّ الفم تفكيره. تمامًا مثل الرسول بولس.

هذه العبارة البولسيّة كانت موضوع أوّل عظة ألقاها الذهبيّ الفم الكاهن. ولم تغادرهذه الفكرة ذهنه طيلة حياته. وحاول ألاّ يرتكب خطيئة وهوأبّ روحيّ لأنّه، ككاهن، ليس مسؤولاً عن خطاياه الشخصيّة فحسب، بل هو مسؤول عن خطايا المؤمنين جميعًا. والمسؤوليّة ثقيلة.

في شهر أيلول من السنة ٤٠٠ ترأّس الذهبيّ الفم مجمعًا، في القسطنطينيّة، مؤلّفًا من تسعة وعشرين أسقفًا. وأثناء الجلسات الأخيرة تقدّم أسقف غريب اسمه «أوزيبيوس» من فالانتينوبوليس. أوزيبيوس جبليّ، ترى أبرشيّته عالقة في القمم. فهل يكون كلامه ناعمًا دبلوماسيًّا؟ كلمته صريحة وقاسية. جاء هذا الأسقف يشهّر بالجرائم التي يرتكبها بعض أساقفة آسيا، ويطلب قمع هذه الجرائم الأسقفيّة. وطلب الذهبيّ الفم تفاصيل. وبدون أيّ ظلّ من التردّد أكّد أوزيبيوس أنّ الكرامات الكنائسيّة والدرجات الكهنوتيّة تباع بالمال، في جميع أنحاء آسيا. يُتاجربها. والصولجان الأسقفيّ صارللتجارة. وهناك تعرفة! هذه التجارة بالكرامات الكنائسيّة والدرجات الكهنوتيّة أسّسها أسقف أفسس أنطونينوس.

ولم يكتفِ أنطونينوس بهذه التجارة الرابحة كثيرًا، والمنتشرة على نطاق واسع، بل عمد إلى تذويب الأواني الفضّيّة الكنسيّة وبيعها. وأخذ رخام جرن العماد ليبني منه حمّامات خاصّة به، ثمّ نقل أعمدة الرخام من الكنيسة، ليزيّن بها غرفة الطعام في قصره. وأكثر من ذلك، فالأسقف أنطونينوس يعيش مع امرأة، علنًا، وأولدَ منها أولادًا كثيرين. وسمع الذهبيّ الفم هذه الشكاوى واضعًا رأسه بين يديه. وجاء الشمّاس ينبّهه إلى وقت القدّاس الإلهيّ ويدعوه إلى الكنيسة. ولكنّ الذهبيّ الفم رفض. بعد سماع مثل هذه الأشياء لا يقدر على أن يخدم القدّاس الإلهيّ. أذناه ما زالتا متألّمتين.

والقدّيس يعرف أنّ «أفسس» لا تخضع لسلطته. وأنّ أساقفة القسطنطينية لم يتدخّلوا مطلقًا في شؤونها. ولكن لا بأس! فالذهبيّ الفم يتدخّل حيث يجب الدفاع عن الكنيسة.

وفتح الذهبيّ الفم تحقيقًا، ليتأكّد من صحّة الاتّهامات المنسوبة إلى أسقف أفسس. ولسوء الحظ جاءت النتيجة إيجابيّة. فقد كتب أحد مؤمني آسيا رسالة إلى القدّيس يقول فيها: «منذ سنوات، أيّها الآب الجليل، والقيادة فينا ينقصها العدالة والحقّ. نسترحمك إذًا أن تأتي إلينا» ولكنّ القدّيس مريض. والشتاء في أوج قساوته.

في هذا الحين، وصل وفد «الهون» البرابرة حاملاً رأس غايناس هديّة إلى الأمبرطورة أفذوكيّا. وكان بودّ الأسقف استغلال هذه المناسبة فيتكلّم على محبّة الأعداء، وينصح الأمبراطورة بألاّ تقع مرّة ثانية في مثل هذه الوحشيّة الهمجيّة بقبولها هديّة «الهون». ولكنّ شغله الشاغل، في هذا الوقت، تطهير كنيسة أفسس. الكنيسة هي المسيح ويجب حفظها طاهرة نقيّة.

وفي التاسع من شباط ٤٠١ أبحر الذهبيّ الفم إلى آسيا. وهبّت في البحر عاصفة هائلة. وخوفًا من أن تتحطّم السفينة على الصخور، ألقى ربّانُها المرساة على شاطئ مقفر. وانتظر القدّيس ورفاقه ثلاثة أيّام، بلا

طعام ولا ماء، تحت رحمة الأمواج حتّى هدأت العاصفة، فوصلوا إلى المرفأ منهوكي القوى.

وفي أفسس دعا الذهبيّ الفم إلى مجمع مؤلّفٍ من سبعين أسقفًا. وحضر أمامهم الكهنة والأساقفة المتّهمون بشراء الكهنوت بالذهب، لأنّ الكهنوت لا يُشرى. ولكن أنطونينوس مات قبل محاكمته. واعترف زبائنه، الذين اشتروا الكهنوت، بالواقع والمبلغ الذي دفعوه» وطريقة الدفع. والأساقفة «السيمونيّون» دفعوا فضّة خالصة، وهم يطالبون، في حال تجريدهم من أسقفيّتهم، بإعادة أموالهم. وأعلن الكهنة أنّهم انخدعوا فوقعوا في الضلال، وأنّ نيّتهم حسنة؟؟ صحيح أنّنا دفعنا مالاً، ولكنّ العادة السارية جعلتنا نعتقد بأنّنا على حقّ.

وتألّم الذهبيّ الفم تألماً عميقًا بسبب بيع المقدّسات. ولكنّ الذين دفعوا هم ضحيّة الخدعة.

وطردهم القدّيس من سلك الكهنوت. ولكن نظرًا إلى انخداعهم وحسن نيّتهم، حين اشتروا مالاً يباع، أعطاهم القدّيس شهادة تساعدهم على ملاحقة ورثة أنطونينوس أمام القضاء، فيسترجعون أموالهم. وإزاء احتجاج بعضهم بأنّهم دفعوا آخر قرش معهم، فما عادوا قادرين على دفع رسوم الملاحقة، إزاء هذا وعدهم الذهبيّ الفم بالتوسّط لدى الأمبراطور لإعفائهم من الضرائب إلى حين. هذا كلّ ما بوسع قدّيس أن يفعل.

وأقام الذهبيّ الفم خلفًا للأسقف أنطونينوس الشمّاس هيراقليدس. ومن ثمّ انتقل القدّيس إلى الولايات المجاورة: Phrigie, Pamphibé, Carie, Lycée والبنطس حيث جرّد ستّة عشر أسقفًا وأقام خلفاء لهم.

ووصل إلى نيقوميذيا حيث وجد أسقفًا مزيّفًا اسمه جيرونتيوس. هو ساحر مشعوذ. وفكّر في نفسه لماذا لا يلبس الأسقفيّة فتسهل أموره؟ ولكنّ الذهبيّ الفم خلع جيرونتيوس وجرّده من ثوب الكهنوت. إلاّ أنّ الشعب كان يحبّ الساحر المشعوذ. فالشعب يميل إلى السحرة والمشعوذين! احتجت الجماهير على خلع جيرونتيوس وقدّمت شكوى إلى الأمبراطور.

المناطق، حيث خلع الذهبيّ الفم أساقفة وأقام أساقفة، لم تكن تابعة لأسقفيّته. وتاليًا فلا يحقّ له ممارسة سلطته فيها. القوانين تمنع تدخّل أسقف في شؤون أبرشيّة أخرى. ولكنّ الفضيحة والفساد كانا عظيمين في كنيسة المسيح، حتّى إنّ الذهبيّ الفم خرق التقاليد الكنائسيّة في آسيا. هو يناضل من أجل كنيسة يسوع أينما وجدت. والقدّيس لا يناضل من أجل الدعاوي وأصول المحاكمات. كان يقع في الخطيئة لو لم يدافع عن كنيسة الربّ حيثما يهدّدها خطر. خيرٌ له أن تحفّ به السيوف كمشاغب خالف العادات، من أن يكون في حالة الخطيئة. لأنّ الإحجام عن الدفاع عن الكنيسة هو خطيئة. «أن تحفّ بك السيوف، شرط ألاّ تكون خاطئًا، فالله يقدر على أن ينقذك. ولكن إذا كنت خاطئًا، ولو وجدت في الجنّه، فستطرد»، يقول الذهبيّ الفم. وكيلا يُخطئ يوحنّا أمام الله خالف العادات والتقاليد. القدّيس يحترم الله والكنيسة.

استغرقت هذه الرحلة التطهيريّة ثلاثة أشهر. وعند عودة القدّيس إلى القسطنطينيّة، عرف أنّ مؤامرة حيكت ضدّه برئاسة الأساقفة الغاضبين.

أكاسيوس، الأسقف الشيخ. الذي ظنّ أنّ الذهبيّ الفم احتقره إذ قدّم له غرفة حقيرة، هو ألدّ أعداء القدّيس، وهو عضو في رئاسة المؤامرة. يأتي بعده الأسقف سفيريانوس الذي تتآكله الغيرة ويكويه الحسد. ثمّ بعض الأساقفة الآتين من أنطاكية، الذين يطمعون في مجد مواطنهم. أمّا مكان التقاء المتآمرين فلا يصحّ أن يكون غير بيت أفغرافيا. نعم! هي بنفسها. التي قال لها القدّيس: ليس من الحشمة أن تحاولي تجديد شباب جسدك، والتي وبّخها القدّيس لأنّها، وهي كهلة، تتصابى وتقلّد الشابّات في الملبس والمظهر. كانت أفغرافيا تفضّل أسقفًا يقول لها أنت صبيّة، كما يفعل الأسقف سيفريانوس وبقيّة الأساقفة المتآمرين.

وانضمّ إلى هؤلاء، الأساقفة الذين أقالهم الذهبيّ الفم لأنّهم اشتروا نعمة الكهنوت بالمال. هم أيضًا ضدّ القدّيس. ثمّ كاستريسيا والأمبراطورة

نفسها. واستكمالاً لنصاب هذه الطغمة الشريرة، العذارى «المحبوبات» اللواتي منعهنّ القدّيس من التعايش مع الكهنة، والكهنة الذين منعهم من مساكنة العذارى. لأنّ أسقفًا غير الذهبيّ الفم يسمح لهم بهذه المساكنة وهذا التعايش. فهم إذًا يفتّشون عن أسقف آخر. وهل ننسى الأغنياء والأنيقات الذين يحبّون المسرح. أجل المسرح الذي لم يصادف خصمًا أعنف من الذهبيّ الفم. جميع من تقدّم ذكرهم يريدون أسقفًا غير يوحنّا.

مقابل هؤلاء البشر الذين وحّدهم الشرّ، قامت جبهة مضادّة. الشعب. الجماهير. العمّال الفقراء البؤساء الذين لم يكن لهم حامٍ يحميهم. شعب القسطنطينيّة يترقّب رجوع القدّيس بنفاد صبر. إذ شعر الشعب بغيابه. أسقفهم كان يتدخّل يوميًّا لصالحهم. يوميًّا يساعدهم. وبقي الشعب ثلاثة أشهر بدون محام. وبلغ نبأ رجوع القدّيس فتجمّع الشعب على الرصيف، قبل يوم من موعد وصول المركب. كلّ الشعب الفقير كان في الانتظار. وما كاد المركب يظهر حتّى علا الصراخ ورفرفت المناديل. ووصل المركب وأصاب الشعب نوع من الهذيان. أجل هذيان! فحملوا القدّيس على الأكفّ والأكتاف حتّى القصر الأسقفيّ وهم يصرخون ويبكون ويضحكون،... واعتذر القدّيس أمام الشعب لأنّه تعب ولا يقدر على أن يتكلّم. ولكنّ الجماهير لا تقدر على أن تنام وأعصابها متوتّرة. وبقي الشعب ساهرًا في الشوارع حتّى الصبح. في اليوم التالي أراد القدّيس أن يتكلّم مع الفقراء، المسيحيّين الحقيقيّين، المؤمنين الصادقين، فتلفّظ بكلمات تذكّرنا بحبيبين افترقا قليلاً ثمّ التقيا. لأنّ الشعب يحبّ الأسقف والأسقف يحبّ الشعب. «إذا افترقنا بالجسد، إنّما بالمحبّة نبقى متّحدين. كنتم معي جميعًا، وأنا أجتاز البحر، وكان الأمل يهزّني فارتعش عندما أفكر بأنّي سأعود وأراكم». وتابع كلامه: «إنّي أحبّكم كما تحبّونني. بدونكم ماذا يحلّ بي؟ أنتم أبي. أنتم أمّي، أنتم أخوتي. أنتم أبنائي، أنتم لي كلّ شيء. كلّ العالم. لا أفرح ولا أحزن إلاّ من أجلكم. وإذا هلك واحد منكم فأنا أهلك معه».

لم يكن إنسان واحد يتمتّع بحبّ الشعب، مثل الذهبيّ الفم، في كلّ الأمبراطوريّة. ولكنّ هذا الحبّ العارم سيخلق المآسي. لأنّ كلّ حبّ كبير ينتهي بمأساة.

لم يبدر عن القدّيس أيّ اهتمام بالمؤامرة التي تحيكها نساء القصر مع الأساقفة. لأنّه قد بلغ مرحلة الانفلات الكامل من أمور الدنيا. ولكنّه، ما أن يرى الكنيسة مهدّدة حتّى يستعيد نشاطه، ويرجع ذلك البطل الذي ينزل إلى الساحة، ويناضل كما ناضل ضدّ العسكر من أجل تخليص أفتروبيوس.

عرف الذهبيّ الفم أنّ أساقفته يتردّدون يوميًّا إلى بيوت النساء الأرستقراطيّات، وأنّهم يتناولون الطعام إلى موائد الأغنياء، وأنّهم يعيشون على نمط دنيويّ. هذا التصرّف، حتمًا لا يرضى به الربّ. الأسقف هو أبّ روحيّ يجب عليه أن يحيا حياة يقبلها السيّد. وعنّف الذهبيّ الفم الأسقفين أنطوخيوس وسيفريانوس اللذين يمضيان أيّامهما بالدعوات والاستقبالات. وبّخهما علنًا. قال للأسقف سيفريانوس: «أنطوخيوس وأنت تعيشان حياة الطفيليّين المدّاحين. أصبحتما مسخرة المدينة وموضوع هزء للجميع».

ومرّة أخرى قال الذهبيّ الفم لمرؤوسيه، ولكن بحزم وعنف: إجمعوا حولي كهنة الخزي هؤلاء الآكلين إلى مائدة جيزابيل، لأقول لهم ما قاله إيليّا: ما بالكم تتعرّجون على الميلين؟ إذا كان البعل هو الله فاتبعوه، وإذا كانت مائدة جيزابيل للربّ فكلوا... (ملاحظة النصّ في التوراة!)

ونشب خلاف طارئ بين سيفيريانوس وأحد شمامسة الذهبيّ الفم. الشمّاس سيرابيون أكثرهم إخلاصًا وولاء للقدّيس كان من مصر. سيرابيون فيه نقيصة. لأنّ انسانًا بلا نقيصة غير موجود! كان نزقًا عنيفًا. كان الدم يغلي في عروقه. دمه في غليان متواصل رغم الأصوام والصلوات والسهر. وبالطبع: البادئ سيرابيون الذي لم يكن ينتظر من يستفزّه. منذ رجوع الذهبيّ الفم والشمّاس سيرابيون يزداد سخطًا على المتآمرين. إذًا

كان يتحين السوانح.

وذات يوم مرّ به الأسقف سيفريانوس فلم يشأ سيرابيون أن يحيّيه. ووبّخه الأسقف فكان ردّه عنيفًا. وفقد سيفريانوس السيطرة على نفسه، فتلفّظ بما لا يجوز لأسقف التلفّظ به، حتّى وهو غضبان. «إغضبوا ولا تخطئوا». ومن جملة ما قال: «إذا مات سيرابيون مسيحيًّا فإنّ الله لم يتأنّس». وجاؤوا بالشهود. وكرّر الأسقف عبارته. ما هو المقصود بهذا القول؟ لا نعرف. المهمّ أنّ الشعب الثائر على المتآمرين اعتبر كلام سيفريانوس تدنّيًا وهرطقة. وانعقد المجمع المقدّس لينظر في الأمر، لأنّ الكلام خطير. وأوقف سيفريانوس عن الخدمة. وتأثّر سيفريانوس من هذا الحكم وتهجّم، هذه المرّة، على الذهبيّ الفم نفسه، بل هدّده علنًا. هذا عمل بالغ الخطورة. وعرف الشعب أنّ إهانة لحقت بمحبوبهم، فراحوا كأنّهم شخص واحد للاقتصاص من مطلق الإهانة. مجرّد خبر إهانة الذهبيّ الفم أقام الدنيا ولم يقعدها. جميع الأحياء تحرّكت لتؤدّب سيفريانوس. ولكنّ هذا الأخير نجح في الإفلات من غضب الشعب، وهرب، ليلاً، في البحر. ولكنّ ثائرة الشعب لم تهدأ.

واستدعت أفذوكيّا الأسقف الهارب فعاد إلى القسطنطينيّة. ولكن من يقدر على أن يجعله يسير أو يظهر بين الناس؟ بقي إذًا مختبئًا. وحتّى في مخبأ لم يكن باله مرتاحًا. الذي يجرؤ على إهانة حامي الشعب لا يرتاح له بال. ورأت أفذوكيّا أنّها هي وجنودها وحرّاسها عاجزون عن حماية أسقفها المفضّل... فقامت وحملت مولودها الأخير وذهبت إلى الكنيسة أثناء القدّاس الإلهيّ. وعلى مرأى من كلّ المؤمنين، ركعت أمام الذهبيّ الفم، وطفلها على ذراعيها، واستعطفته، باسم مولودها البريء، أن يعفو عن سيفريانوس. إذ بدون العفو الصادر من فم القدّيس لا يهدأ الشعب. وغفر الذهبيّ الفم. القدّيس يغفر.

كان من الصعب تهدئة الشعب ضدّ سيفريانوس والمتآمرين. ولكنّ الذهبيّ الفم يعرف كيف يخاطب شعبه، كيف يقودهم. طلب من الشعب

أن يسامحوا أعداءهم ويغفروا لمن أساء إليه، كما فعل هو «أسقفهم»، وصرف الشعب بأسنانهم. ولكنّهم خضعوا لأسقفهم القدّيس.

الفصل الثامن

وأحبطت مؤامرة الأرستقراطيّة القسطنطينيّة والأساقفة الطفيليّين. ولكنّ القدّيس لم يسترح. هجوم جديد. هذه المرّة من خارج البلاد. من مصر. المهاجم هو «فرعون» الكنيسة المصريّة ثيوفيلوس الإسكندريّ. ألم نلاحظ أنّ ثيوفيلوس أجبر على رسامة يوحنّا، لأنّ أفتروبيوس أجبره. والإسكندريّة كرسيّ رسوليّ قديم في الشرق. وحنق ثيوفيلوس لأنّ يوحنّا يتمتّع بوزن أثقل في الأمور الكنسيّة. إنّه الحسد! واتّفق ثيوفيلوس مع أفذوكيّا على تحطيم يوحنّا.

كلّ أساقفة الإسكندريّة يحملون لقب «فرعون». ذلك بأنّ الإدارة الأمبراطوريّة خوّلتهم الاستقلال الذاتيّ في الأمور الكنسيّة والدنيويّة. فالأسقف هو الحاكم أيضًا. وأدّى أساقفة الإسكندريّة أدوارًا كبيرة. منهم القدّيس أثناسيوس، أكبر خصم للهرطقة الآريوسيّة، وكبير في آباء الكنيسة. فقد نال مجدًا كبيرًا بالدفاع عن ألوهة المسيح ابن الله. وجاء بعده خليفته ثيوفيلوس الذي بدأ نشاطه يتّسع عندما أخذ على عاتقه تهديم الهياكل والتماثيل الوثنيّة والمكتبات. كان المسيحيّون، في ذلك العصر، يعتقدون بأنّهم يقدّمون خدمة لله، إذ ينتظمون جماعات جماعات، وينطلقون لتهديم هياكل الآلهة القديمة. وكان الوثنيّون يطلقون عليهم لقب «العصابات السوداء».

وثيوفيلوس هو أكبر مدمّر للهياكل. كان يقود بنفسه فرقًا من الجنود ويهاجم الهياكل. والويل للوثنيّين إذا حاولوا الصمود. فالأسقف

الإسكندريّ لا يتورّع عن إصدار الأوامر بالتعذيب، بل يشترك أيضًا في هذا العمل الوحشيّ. وانتقلت إلى ثيوفيلوس عدوى الفراعنة، فأصيب بمرض «الحجر» وراح يبني، ولا يتوقّف، لا إهرامات كالفراعنة، بل كنائس. وهل كان أخفّ حماسًا من الفراعنة؟ لا. يبيع التماثيل والأشياء الوثنيّة، التي نهبها من الهياكل، ويبني الكنائس! والذي يشغف بالحجارة ينتهي حتما إلى احتقار الإنسان. وهكذا أبغض ثيوفيلوس جميع الناس. لم يكن يحبّ أحدًا.

هذا الفرعون تعاقد مع أفذوكيّا على مهاجمة الذهبيّ الفم. كان جديرًا بهذا. هو خبير في التهديم، في التخريب، في التدمير. في تصفية الإنسان!

ولا بدّ من مناسبة لمباشرة العمل. وكان الرهبان «الأخوة الطوال»، الحجّة التي تذرّع بها ثيوفيلوس للانقضاض على الذهبيّ الفم.

«الأخوة الطوال» أربعة أشقّاء يعيشون في برّيّة مصر، نسّاكًا منقطعين عن العالم، صوم وسهر وتقشّف. أبطال عظام ومصارعون أشدّاء من أجل المسيح. الجميع يعرفهم.

عندما تقول «الأخوة الطوال» يعني أنت تقصد الرهبان الناسكين. وأسماؤهم أمونيوس، ذيوسكوروس، أفيميوس وأوزيبيوس.

وحاول ثيوفيلوس إخراج الأخوة من حياتهم النسكيّة، ليرفعهم إلى درجة الأسقفيّة. لأنّهم جديرون بأن يكونوا رعاة صالحين وقادة نفوس حقيقيّين. ولكنّهم يرفضون. وأرسل ثيوفيلوس فصيلة من الجنود ليجلبوا الراهب أمونيوس بالقوّة. وعندما رأى أمونيوس الجنود آتين، أخذ السكّين، التي كان يقشّر بها بعض الخضار، وقطع إحدى أذنيه. القوانين الكنسيّة تشترط في الأسقف أن يكون له عينان وأذنان. وهو لا يستوفي هذا الشرط فلا يستحقّ أن يصير أسقفًا. وبقي الراهب في الصحراء يصلّي ويصوم ويسهر. ويشتغل. لأنّ الرهبان كانوا يشتغلون ليكسبوا معيشتهم. وكانت جماعة من الرهابين تعيش مع الأخوة الطوال. يقول الذهبيّ الفم

إنّ المناسك في برّيّة مصر تلمع بفضيلة الرهبان أكثر من نجوم السماء، وإنّ سكّان هذه القلاية هم ملائكة في صورة بشر. وكان الذهبيّ الفمّ يتتبّع أخبار «الأخوة» الأربعة ويعجب بهم شديدًا.

وأراد ثيوفيلوس أن يستولي على ثروة امرأة أرملة. هي غنيّة وأموالها ضروريّة للفرعون! ولكن كيف يبرّر هذه السرقة. فهو يحتاج إلى من يحوّر مستندات الإرث. ولجأ إلى مدبّر أبرشيّته: الإيكونومس إيسيذوروس. حتّى لو كنت مدير مصرف فلا تقدر على أن تتلاعب إلاّ بتواطئك مع المحاسب. هكذا وجد الفرعون المسيحيّ نفسه مضطرًّا إلى الاستعانة بمدبّر شؤون أبرشيّته. إلاّ أنّ المدبّر كان تقيًّا صالحًا. فلم يقبل أن يساهم في هذه الكذبة الكبرى. رفض بشجاعة وتصميم مشاركة الأسقف في السرقة. وأصدر ثيوفيلوس أوامره بإلقاء القبض على إيسيذوروس وتعذيبه ثمّ تسليمه إلى القضاء. إلا أنّ إصدار حكم يحتاج إلى شهود لتثبيت الجرم. ومدبّر الأبرشيّة يتمتّع بسمعة طيّبة وصيت حسن في جميع أوساط الإسكندريّة، فيجب إذًا أن يكون الشهود أوفر فضيلة، ولا يتمتّع بهذه الفضيلة إلاّ الرهبان الأخوة. فاستدعاهم ثيوفيلوس وطلب منهم أن يصدّقوا على الأكاذيب التي ابتدعها من أجل تبرير الحكم على إيسيذوروس. ليس من الضروريّ أن يكون المتّهم مذنبًا بالحقيقة. تكفي شهادة ضدّه حتّى يلصق به الجرم. ولكنّ الأخوة رفضوا بحزمٍ. وكان تحت أمرة الفرعون المسيحيّ جنود. والجنود لا يرحمون. وصدرت الأوامر فعذّبوا الأخوة بالنار. ثمّ قيّدوهم بالحديد. ومع ذلك رفضوا الكذب. وبدأ ثيوفيلوس يضربهم. أجل، تولّى ضربهم بنفسه. بيديه الأسقفيّتين جرح جلودهم وأسال ما بقي فيهم من دماء. ضربهم على عيونهم. ضربهم على أنوفهم. لطّخ أجسامهم. ورفضوا الكذب. بعد ذلك أمر بأن يُربطوا ويُمدّدوا على الأرض. وراح يدوسهم برجليه، نعم برجليه الأسقفيّتين، حتّى تتكسّر عظامهم. ورفضوا الكذب. لأنّهم لا يخافون من الناس بل من الله. لا يهابون أحدًا، ولو أسقفًا.

واقتيدوا إلى السجن في سلاسل الحديد. وانزعج الشعب لرؤية

القدّيسين يتعذّبون. واهتزّت الإسكندريّة بأسرها. واحتاط ثيوفيلوس للأمر، فأشاع في المدينة أنّ الرهبان أصحاب هرطقة. ولم تنجح اللعبة. وأطلق سراح الرهبان الأربعة فعادوا إلى مناسكهم.

وفي يوم قام ثيوفيلوس، على رأس فرقة من الشرطة، بزيارة إلى بريّة مصر. ليتها ما كانت هذه الزيارة. انقضّ الجنود على المناسك «الأكثر لمعانًا من كواكب السماء» كالذئاب على الخراف. وأشعلوا النار محرقين المناسك. وخرج الرهبان مرعوبين. فلحق بهم الجنود وباشروا تقتيلهم. واستمرّت المجزرة طيلة الليل، حتّى الصباح. ومات من مات. ونجا الأخوة الأربعة ومعهم ثلاثماية راهب. فقط ثلاثماية نجوا من مجزرة ثيوفيلوس الفرعون المسيحيّ. وطلع الصباح على المناسك التي هي لامعة كالكواكب، فإذا هي رماد على رماد. وصلّى الرهبان الناجون من الموت. واتّفقوا على أن يقطعوا الصحراء، متفرّقين، على أن يكون الالتقاء على الحدود الفلسطينيّة. وساروا على الرمال المحرقة متّجهين نحو الهدف مملوئين إيمانًا بالله وثقة بأنّه معهم.

وعاد ثيوفيلوس إلى الإسكندريّة، وأصدر حرمًا كنسيًّا على الذين نجوا منه ومن رجاله القاتلين.

على الحدود الفلسطينيّة التقى الرهبان ولكنّ عددهم تدنّى إلى ثمانين. الباقون، أي مائتان وعشرون، انتقلوا إلى رحمة ربّهم في مجاهل الصحراء. ماتوا جوعًا، ماتوا عطشًا، ماتوا مرضًا، وماتوا من أشعّة الشمس اللاذعة. وصلّى الأحياء من أجل الأموات، ودخلوا فلسطين متوجّهين إلى أورشليم. واستقبلهم أسقف أورشليم، مثل أخوة، لأنّ العالم المسيحيّ كلّه سمع بفضيلة رهبان بريّة مصر. واستقرّوا في ضواحي المدينة حيث عادوا إلى الصلاة والعمل وحياة النسك.

وعرف ثيوفيلوس بالأمر، فارسل كتابًا إلى أسقف أورشليم يقول فيه: «لم يكن من حقّك مخالفة إرادتي واستقبال الرهبان في مدينتك، لأنّي طردتهم بسبب جرائمهم. على كلّ حال، إذا كنت فعلت ذلك عن جهل

حقيقتهم، فأغفر لك إنّما من الآن وصاعدًا، إحذر أن توكل إليهم أيّ مهمّة إكليريكيّة ولا تسمح لهم بالإقامة في أبرشيّتك. انتبه أن تكون لك علاقات مع أناسٍ أنا حرمتهم».

كان أسقف أورشليم يرهب ثيوفيلوس. فاستدعى الثمانين راهبًا اللاجئين وأنذرهم بالخروج من أورشليم. وأينما حلّ اللاجئون كان إنذار الفرعون يسبقهم. وما عاد لهم موطئ قدم على اليابسة. فلجأوا إلى البحر. ومن قيصريّة يمّموا شطر القسطنطينيّة. هم عارفون أنّ الذهبيّ الفم أسقف العاصمة. وعارفون أنّ قدّيسًا لا يطردهم. وهل يطرد قدّيس لاجئًا؟ إنّ يوحنا لا يقدم على مثل هذه الخطيئة. شجاعة الذهبيّ الفم في الدفاع عن الحقّ والإيمان مشهورة في العالم المسيحيّ كلّه. وكان الأخوة واثقين بأنّ القدّيس يضحيّ بحياته في سبيل حماية الحقّ. لهذا السبب توجّهوا إلى القسطنطينيّة.

كم هو عدد الرهبان الذين وصلوا إلى القسطنطينيّة؟ ثلاثون ماتوا بين أورشليم وقيصريّة. وهكذا، من ثلاثماية راهب نجوا من مذبحة ثيوفيلوس، ظلّ على قيد الحياة فقط خمسون!! هؤلاء الخمسون يطلبون إلى الذهبيّ الفم أن يسمح لهم بالاستقرار على أرضٍ من أبرشيّة القدّيس. فقط ليقدروا على أن يصلّوا ويكملوا مشيئة الله. واستقبلهم الذهبيّ الفم، فور وصولهم. إنّ ثيوفيلوس يتّهمهم بالهرطقة. وناقشهم الذهبيّ الفم في اللاهوت والعقيدة ليتأكّد إذا كانوا في الهرطقة أم لا. واجبه، كراعٍ للنفوس، أن يناضل ضدّ الهرطقات. ولكنّه لم يلاحظ أثرًا للهرطقة في روحانيّة الرهبان. وعلاوة على هذا فإنّ القدّيس تأثّر بالغ التأثّر لآلام الخمسين راهبًا، وللأهوال التي قاسوها. فقال للإخوة الطوال: «أنا آخذ قضيّتكم على عاتقي، فإمّا أن يحلّكم مجمع آخر ينعقد لهذه الغاية، وإمّا أن يرفع أسقفكم، من تلقاء إرادته، الحرم عنكم. اعتمدوا عليّ».

واعتبر القدّيس الذهبيّ الفم الرهبان محرومين حتّى يفكّ حرمهم مجمع مقدّس. فلم يسمح لهم بالاشتراك في سرّ الإفخاريستيّا (المناولة).

صحيح أنّ ثيوفيلوس كان طاغية. وعمله يخالف العدالة. ولكنّه أسقف. والحرم الذي يصدره يسري مفعوله. الحيف يجب أن يرفع عن المظلومين، ولكن يجب أن يتحمّل الرهبان حتّى يرفع بطريقة قانونيّة. المسيحيّ الحقيقيّ يعرف كيف يتحمّل الظالم. وأسكن الذهبيّ الفم الخمسين راهبًا في البيوت التابعة لكنيسة القيامة. وأوكل الاهتمام بهم إلى الشمّاسة «أوليمبياس»؛ وهي امرأة أرستقراطيّة صاحبة ثروة أسطوريّة، وجمال أيضًا رائع. بعد فترة من ترمّلها أعطت كلّ ممتلكاتها للفقراء، ونذرت نفسها للكنيسة، وهي في الثلاثين من عمرها. كان لها شهادة من جميع الناس بأنّها فريدة بين النساء بالفضيلة. وكلّفها الذهبيّ الفم العناية بالرهبان لأنّه متأكّد من أنّ غيرها لا يحسن القيام بهذا الواجب، على الوجه الذي تقوم هي به.

وقبل أن يستقرّ الرهبان في حالتهم الجديدة أوصاهم القدّيس وصيّتين: الأولى، ألاّ يخرجوا في الشوارع مطلقًا. لأنّ الشعب غير معتاد على رؤية رهبان شبه عراة. والثانية، ألاّ يرفعوا شكواهم للأمبراطور أو الأمبراطورة، وألاّ يطلبوا حماية السلطة الزمنيّة. «من حقّ الكنيسة فقط أن تنظر في هذه الأمور. المحاكم المدنيّة لا علاقة لها بالمنازعات الحاصلة بين خدّام الربّ».

وفي اليوم ذاته، ابتدأ القدّيس يشتغل من أجل مصير الرهبان التائهين. كتب رسالة إلى ثيوفيلوس يقول فيها: «استجوبتُ الرهبان، الأخوة الطوال، وفي الحقيقة لم أشتمّ في عقيدتهم ما يخالف الإيمان الحقّ. إلاّ أنّ الكروب أدارت رؤوسهم. يريدون أن يشكوك إلى الأمبراطور. وفي الواقع كتبوا عريضة. إلاّ أنّهم نزلوا عند رجائي فلم يرسلوها. إذًا ارفع، أنت نفسك، الحرم عنهم، سامحهم. وكلّ شيء ينتهي».

الذهبيّ الفم رئيس من رؤساء الكنيسة وحافظ الانضباط الإكليريكيّ. ولكنّه أيضًا وعلاوة على ذلك خادم الحقّ. إلى الآن هو يحترم نظام الكنيسة، ويعترف بشرعيّة الحرم الذي أصدره ثيوفيلوس. ولكن،

بما إنّ هذا الحرم ظالم، غير عادل، فإنّه يناضل من أجل رفعه وهو مستعدّ إلى دعوة مجمع لهذه الغاية.

بطل المسيح يناضل من أجل الحقيقة. هدف القدّيس حقيقة. وفي سبيلها يقبل المظالم الدنيويّة. إنّه من أروع مواقف الذهبيّ الفم. مهما كانت المظالم الدنيويّة كبيرة، فلا يتزعزع عزم القدّيس على نصرة الحقّ.

في حين كان الذهبيّ الفم يقول بشجاعة لثيوفيلوس إنّ الحرم الذي أنزله بالرهبان ظالم، وأنّه سيدعو مجمعًا مقدّسًا، يعيد الحقّ إلى نصابه، إذا رفض ثيوفيلوس أن يفكّ الحرم بنفسه، في هذا الحين تدخلت الأمبراطورة أفذوكيّا. فجأة تدخّلت وغمرت الرهبان بالعطف الأمبراطوريّ.

التزم الذهبيّ الفم الدفاع عن اللاجئين، ولكنّه بدون أن يخالف النظام الكنسيّ. لذلك لم يسمح لهم بالتقدّم إلى جسد الربّ. فاستغلّت الأمبراطورة تمسّك القدّيس بالقانون واتّهمته بأنّه حبس اللاجئين، وفرض عليهم نظام التوبة. ونشرت أبواقها الدعاوة الجديدة للتأثير على الناس، الرهبان محرومون من تناول جسد الربّ وهم يقاسون مرارة الجوع... لقد أرادت أفذوكيّا أن تظهر أمام الشعب أنّها أكثر شفقة من القدّيس. أمّا الرهبان، المرضى جسديًّا والمسحوقون معنويًّا، فلم يطلبوا حماية الأمبراطورة. إلاّ أنّ أفذوكيّا أجبرتهم على إمضاء عريضة يطلبون فيها حمايتها الأمبراطوريّة. وإذ رأى الرهبان أنّ بعضهم مات محرومًا من الأسرار المقدّسة، وأنّ الأمبراطورة وعدتهم بإعادة حقوقهم بسرعة فائقة، قبلوا عُروض الأمبراطورة التي تعهّدت لهم بدعوة مجمع إلى الانعقاد، ليمنحهم العفو ويرفع الحرم عنهم.

وإذا تدخّلت الأمبراطورة في قضيّة ليست من اختصاصها انسحب الذهبيّ الفم. القضايا الكنسيّة لا يحقّ للأباطرة أن يعالجوها. ليس من حقّ أفذوكيّا أن تدعو إلى عقد مجمع، وأن تقرّر إذا كان الحرم عادلاً أم لا. هذا الأمر من صلاحيّة آباء الكنيسة.

إلاّ أنّ الأمبراطورة والأساقفة أصدقاءها، وجميع أعداء الذهبيّ

الفم، لا ينفكّون يظهرون اهتمامًا وعناية ملحوظين بالرهبان المصريّين. وغايتهم إظهار الذهبيّ الفم مقصّرًا في حمايتهم.

الشعب هو دائمًا إلى جانب المظلومين. لذلك أظهرت أوساط القصر أنّ الرهبان مظلومون، وأنّ القدّيس تخلّف عن مساعدتهم. أمّا الأمبراطورة فلا تنفكّ تزورهم وتعتني بهم وتسعى إلى إنصافهم. القدّيس، قلبه قاسٍ أمّا الأمبراطور والأمبراطورة فقلبهما طيّب، رقيق، وسيطلبان عقد مجمع يعيد للمظلومين حقّهم. هذه كانت دعاوة الأمبراطورة.

قرّر الذهبيّ الفم أن يحضر شخصيًّا هذا المجمع. ألم يتّخذ على عاتقه، منذ البدء، مساعدة الرهبان اللاجئين؟ وغاية المجمع هي غاية القدّيس. وانعقد المجمع في الوقت المحدّد، وبرئاسة الذهبيّ الفم، لمحاكمة ثيوفيلوس.

ولكنّ أعداء الذهبيّ الفم تضافروا وتضامنوا ليحاكموا أيضًا رئيس المجمع نفسه. والأمبراطورة طبعًا متّفقة مع ثيوفيلوس على هذا. فكان ظاهر المجمع «الأخوة الطوال» ورفاقهم. أمّا الباطن فيهدف إلى محاكمة الذهبيّ الفم عبر الشكاوى المقدّمة من أساقفة آسيا الذين عزلهم القدّيس.

«يريدون موتي» قال الذهبيّ الفم. هو يعرف أنّهم يريدون قتله. هذه إرادة أفذوكيّا. القدّيس لا يؤمن بوجود الشرّ. وفي كلّ مرّة يصادف الشرّ يندهش. وهذه المرّة، الأمبراطورة وخدّامها يريدون قتله. هذا شرّ. وهو طاهر. لذلك اندهش. فقط اندهش. الواقع أنّ الأمبراطورة والفرعون المسيحيّ والجيش والأساقفة المصريّين، يريدون قتل الذهبيّ الفم، هذا الواقع لم يُخف الذهبيّ الفم. الموت لا يخيفه. القدّيس لا يخاف الموت بل يدهش، وكفى.

وظلّ القديس يعتبر المجمع منعقدًا لمحاكمة ثيوفيلوس، ورفض أخيرًا، حضور الجلسات.

الفصل التاسع

الغاية إذًا، من المجمع الذي دعا إليه الأمبراطور والأمبراطورة وزمرتهما، محاكمة الذهبيّ الفم. إنّما يجب تغطية هذه الغاية بمهارة وذكاء، حتّى لا ينفضح الأمر للناس. وكانت قضيّة الرهبان الواجهة، أو الستار. ولكن يجب أن يزاح الستار، وبدون فضيحة. وتبقى محاكمة القدّيس التي لم تكن في بال أحد. فكيف يصير ذلك؟

في ربيع السنة ٤٠٣ ظهر في القسطنطينيّة أسقف، شيخ جليل، اسمه أبيفانيوس. اختصاصه اكتشاف الهرطقات. أمضى حياته في التفتيش عن الهرطقات عند الرهبان، في أعماق الصحراء، في الجبال، في الأديار وفي المدن. كان أبيفانيوس الاختصاصيّ الوحيد في عصره. مثل هذا المتخصّص ضروريّ للكنيسة التي كانت تفتقر إلى علماء ذوي كفاية في هذا الموضوع. أبيفانيوس يعرف الكتاب المقدّس، يعرف العقائد والتقليد، يعرف كلّ الانحرافات عن الإيمان المستقيم. هذه المعرفة لم يكن يتمتّع بها أغلبيّة الأساقفة الذين يؤلّفون المجمع. فكان أبيفانيوس يشترك في جميع المجامع بصفته عارفًا اختصاصيًّا. وما يرتئيه يوافق عليه المجتمعون.

ووصل أبيفانيوس إلى القسطنطينيّة، يشعّ منه روح التجبّر والتكبّر، روح العالم اللاهوتيّ الأوحد، القادر على كلّ أمر، روح كلّ اختصاصيّ وكلّ خبير! ومنذ وصوله تصرّف وكأنّ الذهبيّ الفم هرطوقيّ، ألم يدافع عن الرهبان المتّهمين بالهرطقة؟ وراح يقيم الخِدم الإلهيّة، الأمر الذي تحرّمه القوانين الكنسيّة. لأنّ أيّ أسقف لا يحقّ له ممارسة صلاحيّاته

خارج أبرشيّته، إلاّ بسماح من صاحب الأبرشيّة. ولكنّ الذهبي الفم كان هرطوقيًّا؟ هذا منطق الاختصاصيّين والخبراء! لذلك، أقام أبيفانيوس كهنة في أبرشيّة الذهبيّ الفم بدون سماح من القدّيس وعمّد أيضًا. أمّا الذهبيّ الفم فقد حافظ على هدوئه. لأنّ القدّيس يجب أن يتحلّى، غير الصفات المفروضة عليه، بالصبر. وبعد استفزاز الذهبيّ الفم، وجد أبيفانيوس طريقة لتصفية قضيّة الرهبان ليتفرّغ المجمع لمحاكمة الذهبيّ الفم نفسه. كما كان المخطّط مرسومًا بدقّة.

وإليكم الحيلة التي ابتدعها أبيفانيوس، الاختصاصيّ!

إدّعت الأمبراطورة أنّ أحد أبنائها مريض. في الواقع لم يكن هذا صحيحًا، ولكنّ هذا الاستعراض يؤتي إيجابيّة في إزاحة قضيّة الرهبان من جدول أعمال المجمع. وانتشر الخبر في المدينة، ابن الأمبراطورة مريض وحالته خطرة. هذا من شأنه أن يثير الحنان في قلوب الناس، وتاليًا الاهتمام بمصير الطفل. وبعد انتشار «الخبريّة» تستدعي الأمبراطورة الأسقف أبيفانيوس لينقذ ابنها من الموت. فيرفض المجيء ويجاوب، كما كان مرتّبًا، أنّ ابن الأمبراطور لا يموت إذا ارتدَّ «الأخوة الطوال» إلى الإيمان المستقيم. وتهرول الأمبراطورة ونساء القصر إلى الدير، حيث الرهبان موجودون، وتستعطفهم إلى إعلان إيمانهم، إذا لم تطيعوا ثيوفيلوس وأبيفانيوس يموت ابن الأمبراطورة، وتقع مسؤوليّة موت الأمير الصغير عليكم.

يعرف الرهبان أنّهم ليسوا في الضلال والهرطقة، وليس عندهم شيء ينكرونه أو يرتدّون عنه. كانوا ضحيّة فرعون الإسكندريّة، الذي أباد رفاقهم وطردهم من مناسكهم. ولكنّ الأمبراطورة تصرُّ، فابنها يموت إذا لم ينصاعوا إلى ثيوفيلوس.

وذهب أمونيوس، كبير الأربعة، ودخل على أبيفانيوس. وبجرأة نادرة سأل الأسقف! «هل تعرفني؟» وأجاب المفتش الشيخ سلبًا. لا يعرف أنّ هذا أمونيوس، إذ لم يرَه قطّ. وسأله الراهب إذا كان قرأ كتابًا من كتبه أو كتب إخوته. لأنّ الأخوة الطوال نشروا كتبًا عديدة في العقيدة. أبيفانيوس

لم يقرأ شيئًا. عندئذ قال أمونيوس: «إذا كنت لم تقرأ لنا شيئًا، ولا تعرفنا، فكيف تقول إنّنا في الهرطقة؟ ولماذا تريد أن تبيدنا؟».

وأدرك أبيفانيوس أنّه وقع، هذه المرّة، في الحفرة... وأنّ «الأخوة الطوال» ليسوا هراطقة. بل ضحيّة الافتراء. ورفض متابعة خدمة المتآمرين ثيوفيلوس وأفذوكيّا. هذا مخجل لرجل في سنّه وعلمه. زد على هذا ما سمعه أبيفانيوس من الشمّاس سيرابيون، الذي عدّد له كلّ المخالفات التي ارتكبها، هو الأسقف العالم اللاهوتيّ، في أبرشيّة ليست تابعة له.

لقد سمع أبيفانيوس من سيرابيون وأمونيوس حقائق صريحة. وارتأى أن ينسحب. وترك القسطنطينيّة قبل وصول أعضاء المجمع. ومات على المركب في طريق عودته.

ولكنّ انسحاب أبيفانيوس لا يمنع محاكمة الذهبيّ الفم. المجمع يحاكم كما تجري محاكمات الجنايات في مجلس القضاء. استنطاقات، إضبارات، اتّهامات، شهود ثمّ إصدار الحكم وإنزال العقوبات الكنسيّة. وأحكام المجمع تكتسب الصفة الحكوميّة. لأنّ الدولة أخذت على عاتقها حماية الكنيسة، فلا تتوانى إذًا عن تنفيذ أحكام المجامع، إذا دعت الحاجة إلى نفي شخص أو إزاحته... لأنّه يزعج الكنيسة!

وبهذه المحاكمة ستبتهج أفذوكيّا والعذارى المحبوبات، اللواتي منعهنّ الذهبيّ الفم من النوم، تحت سقف واحد، مع الكهنة والأساقفة. كما سيفرح كلّ الذين ينزعجون، وكم هم كثيرون، من معاصرة قدّيس أو العيش بجواره. لأنّ الحياة مع قدّيس خالية من الشهوة والإثارة. القدّيس متقشّف.

ومن الطبيعيّ أن يكون ثيوفيلوس على رأس الأساقفة المصريّين. ووضع الأمبراطور بتصرّف الفرعون المسيحيّ (فيلا) السنديانة الواقعة قرب خلكيدونية. في تلك الفيلا تجمَّع أعداء الذهبيّ الفم، الطالبون موته. ولم يهتمّ الذهبيّ الفم للمجتمعين في السنديانة، إذ إنّ غاية المجمع الأصليّة، هي محاكمة ثيوفيلوس. والقدّيس لا يريد التدخّل في شؤون غيره.

وهكذا أضحى فرعون الإسكندريّة طليق اليدين.

كان الذهبيّ الفم يمضي كلّ وقته، تقريبًا، مع أصدقائه، في غرفة الطعام الكبيرة، الخالية إلاّ من مقاعد خشبيّة، على غرار مقاعد الرهبان في الأديار. لو انتقل الذهبيّ الفم وأصدقاؤه إلى فيلا السنديانة لرجحت كلمتهم لأنّهم أكثريّة. ولكنّهم لم يذهبوا لأنّ القدّيس لم يُرد ذلك. ومن أصدقاء القدّيس الملازمين إيّاه، الكاهن تيفريوس. وهو عبد قديم. اشتهى طيلة حياته، أن يشتري حرّيّته. ولمّا صار حرًّا قدّم نفسه للكنيسة. ولكنّ القوانين لا تسمح لعبد، حتّى لو كان متحرّرًا، أن ينال نعمة الكهنوت. إلاّ أنّ الذهبيّ الفم يعتمد على صحة الإيمان وأصالته. وأصبح تيفريوس الكاهن من أوفى أصدقاء الذهبيّ الفم.

جميع أصدقاء القدّيس كانوا هنا. والشعب منتشر في أرجاء القصر الأسقفيّ وفي الخارج، تحت النوافذ، على المداخل، في الشوارع المحيطة بالقصر. كلّهم هنا، والقلق يدبّ في نفوسهم ويملك عليهم أفكارهم. منذ عرف الشعب أنّ المتآمرين يطلبون حياة حاميهم وحياة قدّيسهم المحبوب، وهم يلازمون الكنيسة والقصر الأسقفيّ. عندما يدخل الذهبيّ الفم الكنيسة، يراها مكتظّة أكثر من أيّام الأعياد السيديّة. وفي كلّ مرّة يرى الشعب أسقفهم يصرخون، ويطلبون إلى القدّيس أن يفتح فاه، ويقول ولو عبارة واحدة. كلام القدّيس هو الخبز اليوميّ للشعب.

في أواسط تمّوز ابتدأت المحاكمة. وكما أسلفنا القول، الذهبيّ الفم وأصدقاؤه في غرفة الطعام يتحادثون. وفجأة، والرواية للأسقف بلاذيوس، تكلّم القدّيس. قال: «صلّوا يا أخوة. وإذا كنتم تحبّون المسيح فلا تهجروا كنيسته بسببي، لأنّي أقدر على أن أقول مع الرسول: إنّ وقت انحلالي قد دنا. لقد جاهدت الجهاد الحسن وأكملت الشوط. أنا أعرف الشيطان ومكائده. الشيطان غير قادر على احتمال الحرب التي أجابهه بها بتعاليمي. رحمتك يا ربّ. وأنتم يا أخوتي اذكروني في صلواتكم».

صمت ثقيل. وانطلقت بعض الشهقات من حناجر يابسة. وانهمرت

دموع. وحاول بعضهم الخروج من تلك الغرفة، ليطلقوا لبكائهم مداه. كلمات القدّيس واضحة وصريحة. لقد أحسّ الذهبيّ الفم بأنّه سيموت. لذلك ودّع أصدقاءه. صحيح أنّ المدينة مليئة بالإشاعات القائلة بأنّ الذهبيّ الفم، ستقطع رأسه فأس حادّة، لأنّه ارتكب جريمة كبرى: قال الحقيقة للأمبراطورة! أجل، من يقل الحقّ موتًا يمت. ويشاع أيضًا أنّ الجلسة الأولى للمجمع المنعقد في السنديانة كانت شكليّة، إذ إنّ الحكم على الذهبيّ الفم مكتوب ومدروس، ولا يحتاج إلاّ إلى التنفيذ. ولكنّ الإشاعات لا تفعل في النفس فعل الكلام المباشر من صاحب العلاقة. لقد سمع الأصدقاء بآذانهم صوت القدّيس يودّعهم، فجازت حراب في أحشائهم، وسالت الدموع مشوبة بالشهيق والتنهد. يقول بلاذيوس: البكاء المكبوت يشبه دندنة النحل وهو يحوم بقلق حول القفير. «لا تخرجوا، قال الذهبيّ الفم للذين توجّهوا إلى الباب. أبقوا هنا وانقطعوا عن البكاء. قلت لكم وأكرّر: المسيح هو حياتي. الموت ربح لي». وقال أحد الأساقفة: «إذا كنّا نبكي فلأنّنا نرى أنفسنا يتامى، ونرى الكنيسة أرملة وقوانينها المقدّسة محوّرة. الطمع والكفر ينتصران، الفقراء مقطوعون، الشعب بدون تعليم».

ولكنّ الذهبيّ الفم أوقف الجميع عن الكلام وقال: «يا أخوتي، لا تنفصلوا. اشتركوا مع أيّ أسقف يخلفني، لئلا تنشقّ كنيسة المسيح». كان خوف القدّيس في النهاية لا على نفسه، بل على الكنيسة. كان يخاف أن يبتعد أصدقاؤه عن كنيسة الرسل، الكنيسة الحقيقيّة، فراح يوصيهم بقبول الشركة مع الأسقف الذي يخلفه.

ودخل الخادم يعلن مجيء كاهنين غريبين يريدان مقابلة الأسقف شخصيًّا. وفهم الذهبيّ الفم أنّهما مبعوثان من «السنديانة»، فأستقبلهما.

كان الرسولان أسقفين شابّين، ذيوسقوروس وبولس. «نحن نحمل رسالة لك فاسمح بأن تُقرأ». ووافق القدّيس. وقرأ أحد الأسقفين ما يلي: «من المجمع المقدّس المنعقد في السنديانة إلى يوحنّا...» وفهم جميع الحاضرين المقصود من رسالة المجمع. المكتوب يُقرأ من عنوانه. والمجمع

قال «يوحنّا» ولم يحترم لقب الذهبيّ الفم، أي أنّه جرّده من الرتبة الأسقفيّة. «من المجمع المقدّس المنعقد في السنديانة إلى يوحنّا. لقد استلمنا وثيقة اتّهامات تعلن جرائم كثيرة أنت مرتكبها، نأمرك بالحضور أمامنا، مصطحبًا سرابيون وتيفريوس لأنّ لنا معهما شأنًا».

وقرّر الأساقفة أصدقاء القدّيس أن يجاوبوا أساقفة السنديانة، فكتبوا رسالة، وكتب الذهبيّ الفم رسالة إلى ثيوفيلوس رئيس المجمع. وحمل الرسالتين ثلاثة أساقفة وكاهنان. ويرفض كاتبو الرسالتين حضور الذهبيّ الفم أمام مجمع السنديانة، إذ إنّ هذا المجمع، المؤلّف من أعداء شخصيّين للذهبيّ الفم، غير شرعيّ وغير قانونيّ.

ووصل حاملو الرسالتين إلى فيلا السنديانة ومثلوا أمام آباء المجمع القدّيسين! وأمام ثيوفيلوس. وثار الأساقفة وقامت قيامتهم، لأنّهم لم يتوقّعوا أن يرفض الذهبيّ الفم حكمهم. وهجم الآباء القدّيسون، نعم القدّيسون!، على حاملي الرسالتين فألقوهم أرضًا، وراحوا يضربونهم بوحشيّة ويمزقون ثيابهم، ويجرحون أجسامهم فيسيلون دمائهم. وكان أحد أعضاء المجمع قد هيّأ حبلاً طويلاً ليربط به عنق الذهبيّ الفم، ولمّا لم يأتِ القدّيس استعمل الحبل ليربط به أحد الأساقفة حاملي الرسالتين. فبعد أن مزّقوا لحم الأسقف، أحد الثلاثة، قيّدوه بالحبل وأخرجوه خارجًا وربطوه بمركب ثمّ تركوا المركب على الغارب، تحت رحمة الأمواج والرياح. والأسقفان الباقيان جرّوهما في الطريق ولا ندري كيف ماتا.

هذه بداءة نشاط مجمع السنديانة، حيث اجتمع آباء قدّيسون!، ليحاكموا الأسقف يوحنّا الذهبيّ الفم.

وبينما كان آباء السنديانة يبرهنون عن قداستهم، بتعذيب مبعوثي الذهبيّ الفم وأساقفته وقتلهم، جاء رسول أمبراطوريّ حاملاً مذكّرة قضائيّة، تفرض على القدّيس الظهور أمام مجلس القضاء. ورفض الذهبيّ الفم المثول أمام مجمع غير شرعيّ. ولكنّ الآباء يقدرون على أن يحاكموه غيابيًّا. المحاكمة الغيابيّة غير شرعيّة طبعًا. ولكنّ الأمبراطور خوّلهم مثل

هذا العمل.

وفي ما بعد جمع البطريرك فوتيوس الوثائق المتعلّقة بمحاكمة الذهبيّ الفم، فكان عدد التهم المنسوبة إلى القديس تسعًا وعشرين جريمة كنسيّة وسياسيّة. وفتَّش ثيوفيلوس ومجمعه ونقَّبوا حياة الذهبيّ الفم منذ الطفولة، فلم يعثروا على ما يشفي غليلهم. لأنّ حياة ابن أنثوسة بلا شائبة. ومع ذلك فقد توصلوا إلى أن يجمعوا تسعًا وعشرين جريمة.

في اليوم الأوّل لانعقاد المجمع، كان العدد ستّة وثلاثين، ثمّ ارتفع إلى ستّة وأربعين. لم يتركوا عدوًا واحدًا للذهبيّ الفم إلاّ واستدعوه ليشترك في الحكم عليه.

ونحن نورد التهم المنسوبة إلى الذهبي الفم والتي بسببها حُكم عليه بالموت.

التهمة الأولى: الذهبي الفم رقّى إلى درجة الكهنوت عبدًا، سابقًا، متحرّرًا هو تيفريوس.

الثانية: الذهبيّ الفم يأخذ حمّامه اليوميّ وحيدًا.

الثالثة: الذهبيّ الفم يأكل (Bonbon Au Miel)

الرابعة: يأكل على انفراد خضارًا مسلوقة.

الخامسة: في أيّام الحرّ الشديد يضع بعض النقاط من النبيذ في الماء.

السادسة: لا يرتّب ثيابه الكهنوتيّة بعد الانتهاء من الخدم الإلهيّة.

أمّا التهمة الطريفة، فهي أنّ الذهبيّ الفم ينام مع امرأة!!! هذه التهمة حزّت عميقًا في نفس القدّيس، فكتب إلى الأسقف سيرياكوس، صديقه: «يزعمون أيضًا (أعضاء السنديانة) أنّي أنام مع امرأة. ألاّ فليجرّدوا جسدي وينظروا الحالة المزرية التي فيها أعضائي».

ارتكازًا على هذه التهم وغيرها، حكم مجمع السنديانة على الذهبيّ الفم. وكتب المجمع المذكور رسالة إلى الأمبراطور هذا نصّها: «حيث إنّ يوحنّا متّهم بجرائم كثيرة، وحيث إنّه يشعر بأنّه مذنب فلم يحضر أمامنا،

وحيث إنّ القوانين تحكم بخلعه، فقد خلعناه. وعلاوة على الجرائم الكنسيّة فهناك جريمة سياسيّة وهي تحقير الأمبراطور. فعلى تقواكم أن تنزلوا به عقاب المذنب، لأنّ جريمة كبيرة كهذه لا يجوز ألاّ يعاقب عليها مقترفها...».

وبعد الانتهاء من الذهبيّ الفم جاء دور «الأخوة الطوال». وكان عليهم أن يلفظوا هذه العبارة: «إذا كنّا خطئنا فنحن تائبون ونطلب السماح والغفران».

هكذا اختصر المجمع قضيّة الرهبان اللاجئين. وانتظر آباء السنديانة تنفيذ الحكم بالذهبيّ الفم.

الفصل العاشر

وكان ردّ الفعل عنيفًا عند أركاذيوس، إذ قدّموا له الحكم على الذهبيّ الفم. ردّ فعل عنيف جعل الحاشية وجميع الموجودين يندهشون متعجّبين. لقد فتح الأمبراطور عينيه أوسع ما يمكن أن تنفتحا، وهو النائم. الأمبراطور منذ مات وزيره أفتروبيوس، لم يناقش مرسومًا أو حكمًا. كان يضع إمضاءه «على العمياني». واليوم يفتح عينيه ليحتجّ بشدّة ويمانع بحزم. وارتبكت أفذوكيّا إذ رأت زوجها يقرّر، يتّخذ موقفًا! والذي زاد في ارتباكها ودهشتها إعلان الأمبراطور أنّه غير مستعدّ، بل يعارض، إرسال الذهبيّ الفم إلى المنفى. لقد حكم المجمع بأن يذهب يوحنّا إلى المنفى، ولكن بدون أمر الأمبراطور لا يصير شيء. وهو، أركاذيوس، لن يمدّ يده لتنفيذ حكم لئيم، شنيع، أصدره المصريّون والحاسدون.

وألحّت الأمبراطورة، ولكن عبثًا. هي تريد أن تنفي القدّيس، وأركاذيوس، هذه المرّة، يعارضها. وهو لم يكتف بالمعارضة الكلاميّة. بل أصدر أمرًا أمبراطوريًّا باحترام القدّيس وعدم اللجوء إلى أيّ عنف مع الأسقف. وبعد هذا أغمض أركاذيوس عينيه وعاد إلى حالته النصف-غافية.

حسب قرار مجمع السنديانة، الذهبيّ الفم ما عاد أسقفًا. عليه أن يذهب إلى المنفى، أن يترك كلّ شيء. وبسرعة فائقة، وفور صدور الحكم، أرسلت أفذوكيّا ضابطًا من القصر يقول للذهبيّ الفم: تهيّأ للرحيل، ومن الأفضل الطاعة!! وكان جواب الذهبيّ الفم قاطعًا جازمًا، «لن أرحل».

وانسحب الضابط، لأنّه يحمل أمرًا آخر، وأبلغ الأمبراطورة أنّ القدّيس يرفض الانصياع. ولكنّ الأمبراطورة لا تريد استعمال العنف بدون موافقة زوجها، فلجأت إلى طريقة أخرى. راحت ترسل إلى القدّيس، وكلّ نصف ساعة، ضابطًا يبلغه الأمر بالاستعداد للرحيل لعلّ أعصاب القدّيس تنهار فيخضع. إلاّ أنّ الذهبيّ الفم لا ينهار مطلقًا. أعصابه من فولاذ. وفي كلّ محاولة كان جوابه أكثر حزمًا.

في هذه الأثناء، استمرّ الذهبيّ الفم في الاهتمام بقضايا كنيسته، وكأنّ مجمع السنديانة لم يكن، وكأنّ شيئًا لم يحدث. ولكنّ شعب القسطنطينيّة يتجمّع حول مسكن القدّيس. كنيسة آجيا صوفيا مليئة بالبشر. كان الشعور العامّ أنّ كلّ مواطن يجب أن يدافع عن حياة القدّيس بنفسه، بجسده، بدمه. الشعب يقوم بالحراسة ليلاً ونهارًا. الحبّ متبادل بين القدّيس والشعب. فالذهبيّ الفم يحبّ الفقراء لأنّ من أراد أن يكون كاملاً، فعليه أن يكون فقيرًا، حسب قول المسيح. المسيحيّون الحقيقيّون هم فقراء. لذلك، فالقدّيس يحبّهم لأنّ القدّيس يحبّ الفضيلة. كان يقول للفقراء: «إنّ الفقير المجرّد من العوالق التي تجعل من الغنيّ عبدًا بدلاً من أن يكون سيّدًا، الفقير هذا مثل الأسد النافث من (مناخيره) النار. هذا الفقير المترفّع فوق أشياء العالم، لا يجبن عن تنفيذ كلّ ما من شأنه خير الكنيسة». الفقر هو الشرط الأوّل للفضيلة والإيمان. الذهبيّ الفم يحبّ الفقراء محبّة فائقة، والفقراء يبادلونه المحبّة ذاتها. كان يحامي عنهم، والآن جاء دورهم ليردّوا له الجميل. اليوم أخذوا على عاتقهم مهمّة الدفاع عن القدّيس. وكانوا عديدين وصمّم الفقراء على ألاّ يتراجعوا مهما كانت التضحية كبرى. حتّى الحياة، حياتهم فديّة عن القدّيس. ودعاهم الذهبيّ الفم إلى الهدوء والتعقّل. إلاّ أنّ شخصًا واحدًا لم يبق في بيته. الجميع في الشوارع. جماعات تصلّي وترتّل. وجماعات تصرخ: «نطلب مجمعًا يرفع الظلم عن أسقفنا القدّيس» ويتابعون، ليل نهار، عبر شوارع المدينة، صلواتهم للربّ وتسابيحهم.

ثلاثة أيّام مرّت على صدور حكم النفي. ولم يحدث شيء. وفي اليوم الثالث اعتلى الذهبيّ الفم المنبر، وخاطب الجماهير التي ما فتئت تطالبه بالكلام، أن يخرجها من هذا الانتظار الضاغط. قال: «تهديدات العالم، أدوسها برجلي؛ وعود العالم أضحك منها. لا أخاف الفقر... الموت لا يرهبني، لا أرغب في الحياة إلاّ إذا كانت حياتي تساعدكم على التقدّم في الصلاح. ويتابع، لا شيء يقدر على أن يفصلنا... أتحمّل كلّ شيء لأنّي أحبّكم، وماذا لا أتحمّل من أجلكم؟ حبّكم وطني وعائلتي، أنتم إخوتي وأولادي. أنتم وأنا نعمل جسدًا واحدًا، أنتم لي نور، نور ألطف من نور الشمس... محبّتكم تضفر لي إكليلاً للأجيال القادمة... أقول لكم هذه الأشياء فاسمعوا: من يقدر على أن يتصوّر عناية أكثر إخلاصًا من عنايتكم بي؟ لقد سهرتم ليالي عديدة، ولم يزعزع إخلاصكم لا طول الوقت ولا المخاوف ولا التهديدات».

هذه الكلمات الفائضة محبّة، جعلت الجماهير تصفّق، تبكي، تزغرد، تصرخ. وأقسم الشعب على الإخلاص الأبديّ للقدّيس، حتّى الموت وبعد الموت. لقد قال لهم الذهبيّ الفم إنّ لا شيء يفصلهم، وها هم يؤكّدون من جهتهم أنّهم لا ينفصلون عن أسقفهم أبدًا.

وتكلّم الذهبيّ الفم عن الأحداث المخجلة التي جرت مؤخّرًا في مجمع السنديانة، وراح يلعب على الكلمات، بل على كلمتين Adoxia, Eudoxia. أفدّوكيّا (الأولى) تعني الشرف، المجد، الكرامة: أذكسيا (الثانية) تعني عكس الشرف وعكس الكرامة. قال: «مجمع السنديانة كان أذكسيا. الحكم الصادر عن هذا المجمع: أذكسيا. تصرّف ثيوفيلوس والأساقفة المصريّين: أذكسيا. المعاملة السيّئة التي لقيها رسلنا من قبل زمرة ثيوفيلوس: أذكسيا...». وفي كلّ مرّة يلفظ القدّيس هذه الكلمة كان يعمل جهده حتّى يسمع الناس وكأنّه يقول اسم الأمبراطورة أفذوكيّا.

وفي اليوم الثاني جاء ضبّاط من القصر الأمبراطوريّ. هذه المرّة أروه الأمر الذي يجبرهم على استعمال العنف، إذا رفض القدّيس الذهاب إلى المنفى. وفكّر الذهبي الفم قليلاً. إذا قاوم فستجري الدماء غزيرة. الشعب

ينتظر إشارة من القدّيس حتّى ينقضّ على الجيش، على كلّ شيء. وقال القدّيس إنّه مستعدّ لأن يذهب إلى المنفى، ولكن بشرط أن يتركوا له مجال الهرب من الشعب. لأنّ الشعب إذا رآه موقوفًا من قبل الجنود سيثور وتجري الدماء. والقدّيس لا يحبّ سفك الدماء. أراد القدّيس أن يذهب إلى المنفى، ولكن بدون أن تراق نقطة دم، «لأنّه يموت مع كلّ إنسان يموت»، وانتظر الضباط خروج القدّيس بطريقة لا يلاحظها الشعب.

كان ذهاب القدّيس في الليل. ولمّا كانت الشوارع مكتظّة بالناس، والنوافذ مراقبة والأبواب محروسة من الشعب، لجأ القدّيس إلى نفق يصل قصره بحيّ بعيد من أحياء القسطنطينيّة. وكان يرافقه اثنان من «الفضوليّين»، أي البوليس السرّيّ، لئلا يثير اللباس الرسميّ انتباه الناس.

ورغم هذا الحذر انفضح الأمر. فلم يكد القدّيس يظهر في الطريق العامّ برفقة الفضوليّين حتّى عرفه أوّل إنسان رآه. وانطلقت الإشارة. وعرف الشعب. وهجمت جماعة قليلة على الفضوليّين وأرادت استرجاع القدّيس. إلاّ أنّ الذهبيّ الفم، الحريص على عدم إراقة الدماء، جاهد ليتخلّص من الشعب، وسارع مع مرافقيه إلى المركب الذي سينقله إلى المنفى.

وانتشر كالبرق خبر اختطاف الأسقف. كانت ساعة متأخّرة من الليل. والظلمة حالكة. ولكنّ الجماهير خرجوا في الشوارع، وانقسموا إلى ثلاثة أقسام. قسم توجّه إلى المرفأ، وهو مؤلّف من الرجال على وجه التخصيص. المشاعل بأيديهم. أخذوا المراكب، كلّ المراكب الموجودة في المرفأ، وانطلقوا في عرض اليمّ يفتّشون. كانت الأنواء تضرب مياه البحر. انقضى الليل وهذه المراكب لم تعثر على ضالّتها. أمّا القسم الثاني فقد شغل الكنائس. الشعب يعرفون أنّ حامي الكنائس قد اختطف. لذلك أقاموا أنفسهم في غيابه مدافعين عن الكنائس. جميع الكنائس امتلأت بالناس. والقسم الثالث ساروا في الشوارع حاملين المشاعل يرتّلون الصلوات المحزنة. ولم يحدث عنف. إلاّ أنّ الجوّ كان مشحونًا... في انتظار انطلاق الشرارة الأولى.

ألم الشعب كبير جدًّا. القسطنطينيّة تتألّم لأنّ مصيبة كبرى حلّت بها.

في صباح اليوم التالي، تقدّم ثيوفيلوس وأساقفة مجمعه، من الأمبراطور طالبين مساعدة الحاكم لتنصيب أسقف جديد. ووضعت الأمبراطورة بتصرّف الفرعون المسيحيّ جنودًا وشرطة ليسيطروا على الكنائس، ويسلّموا الكهنة الجدد مناصبهم. هذه المرّة جنّ الشعب ونفد صبره فلمّا ظهر المصريّون على رأس الجنود لاحتلال الكنائس، وقف الشعب معارضًا. الكنائس مليئة بالمؤمنين المخلصين للذهبيّ الفم. تعرّضوا للجنود وقرّروا أن يموتوا ولا يتركوا اللصوص الخطّافين يدخلون الأماكن المقدّسة. ولكنّ ثيوفيلوس خبير بمهاجمة الكنائس، وفوق ذلك أليس معه سلطان من الأمبراطورة؟ ولماذا معه جنود؟ وعامل شعب القسطنطينيّة كما فعل قديمًا مع رهبان بريّة مصر. الأوامر المعطاة للجنود لا تسمح لهم بالشفقة أو الرحمة.

في تلك الليلة، بينما الجثث متراكمة في الكنائس والشوارع، وبينما يتابع الجنود مذابحهم وتقتيلهم المسيحيّين الأوفياء لقدّيسهم، عبر أحياء القسطنطينيّة، بدأت الأرض تزلزل زلزالها. في القسطنطينيّة الشعب اعتاد مثل هذه الهزّات الأرضيّة. كان يحدث منها الكثير. ولكنّ هذه المرّة كان الزلزال عنيفًا حتّى إنّ سرير الأمبراطورة انقلب، ووقعت أفذوكيّا أرضًا. وقامت مرعوبة وركضت إلى غرفة زوجها وركعت على قدميه مستعطفة أن يستعيد الذهبيّ الفم. لقد أحسّت أفذوكيّا أنّ الساعة قد دنت. قالت لأركاذيوس وهي ما زالت راكعة، وشعر رأسها مبعثر: «الرجل الذي نفيناه صالح، والله ينتقم له. إذا أردت المحافظة على الأمبراطوريّة فمرّ بأن يعود حالاً من المنفى».

وأجاب أركاذيوس بأنه، هو، لم ينفِ الذهبيّ الفم. بل هي التي فعلت، بالاشتراك مع الأساقفة المصريّين. ضمير الأمبراطور مرتاح. كان ينام (ألم يكن دائمًا في نصف إغفاءة؟)، عندما صدر أمر النفي. هو غير مسؤول عن شيء.

وقال الأمبراطور لزوجته إنّه لا يعارض إذا أرجعت الذهبيّ الفم. فلتفعل إذا أرادت. ثمّ عاد إلى النوم.

وفي الليلة ذاتها، لم تنتظر الأمبراطورة إلى الصباح كتبت أفذوكيّا بيدها الرسالة التالية للذهبيّ الفم: «استعطف قداستك ألاّ تصدّق أنيّ اشتركت في ما حدث بشأنك. أنا بريئة من دمك. هم رجال أشرار وفاسدون أحاكوا مؤامرة عليك. الله شاهد على صدق أقوالي وعلى دموعي، التي أقدّمها ذبيحة له تعالى».

وعهدت إلى واحد من مساعديها تسليم الرسالة للذهبيّ الفم شخصيًّا. وكان القدّيس في مقاطعة Hicron، ليس بعيدًا عن القسطنطينيّة. في هذه المحطّة الأولى من طريق المنفى، تأمّلت أفذوكيّا أن يستلم الذهبي الفم رسالتها، فيغفر لها ويعود إلى المدينة أسقفًا وراعيًا.

ولم يعثر حامل الرسالة الأمبراطوريّة على الذهبيّ الفم. لقد فتش عنه في كلّ مكان. وفرقة الجيش أيضًا فتّشت المنطقة، شبرًا شبرًا. ولكن عبثًا. وجاء رسول ثانٍ ثمّ رسول ثالث، من قبل الأمبراطورة القلقة على الأسقف. إنّما الذهبيّ الفم مفقود. لقد غافل الحراس وتسلّل تحت جنح الظلام، ولجأ إلى أحد أصدقائه في (Proenetos) حيث اختبأ. واضطربت القسطنطينيّة وقام الشعب يفتّش في كلّ مكان عن القدّيس، وظنّ المؤمنون أنّ الأمبراطورة قتلت القدّيس، وهي الآن تتظاهر بالتفتيش عنه... ولكنّ الأمبراطورة لم تكن كاذبة... ولكنّ البوليس السريّ اكتشف مخبأ الأسقف وأبلغه رسالة الأمبراطورة. وهل يصدّق؟ لقد ظنّ أنّ هذه الدعوة إلى الرجوع ما هي إلاّ خدعة. ولكنّ مجيء (بريسون) كبير الخصيان، وصديق الذهبيّ الفم، أكّد للقدّيس توبة الأمبراطورة، وأنّها كتبت الرسالة بيدها. ورجع القدّيس.

الناس في الشوارع يصلّون ويشكرون الله. وتقدّمت المراكب لتواكب القدّيس في عرض البحر. ولكنّ فئة من الشعب لم تشترك في استقبال الأسقف. هذه راحت تفتّش عن ثيوفيلوس والمصريّين الذين اشتركوا

في المجمع، والنيّة صريحة: طرحهم في البحر. وإذ رأى ثيوفيلوس أنّ كلّ جهوده للتخلّص من الذهبيّ الفم باءت بالفشل، فحاول الخلاص بجلده. وبعد صعوبة قصوى، وجد مركبًا عتيقًا نجا به مع زمرته. وإلاّ لكان الشعب مزّقهم إربًا إربًا. وأقسم ثيوفيلوس ألا يعود مرّة ثانية في حياته إلى القسطنطينيّة. في ذلك الوقت كانت الجماهير تحتشد في حيّ (Nariana)، على المرفأ حيث سينزل القدّيس. وحمل الشعب أسقفه على الأيدي والأكتاف إلى الكاتدرائيّة، ووضعه على المنبر وقال له: تكلّم، نرجوك تكلّم.

ومن عزم الفرح راح الشعب يبكي، وكلّ واحد يودّ أن يلمس القدّيس، كأنّه لا يصدّق عينيه في ما تريان. ومع البكاء كان يصعد الاستعطاف بأن يتكلّم القدّيس، أن يقول شيئًا. ألاّ يصمت. وتأثّر الذهبيّ الفم. هذا طبيعيّ. فروى لهم ما جرى له، ثمّ خاطب الشعب كما لو كان يخاطب حبيبته: «يا لشرف قطيعي، في غياب راعيه جعل الذئاب تهرب. يا لجمال، بل يا لعفاف الزوجة، في غياب زوجها أبعدت مكائد المفسدين. هكذا أشرق جمالها الحقيقيّ، هكذا أضاءت حكمتها. كيف طردت الفاسقين؟ بكبَر عفافك. أين هم الآن؟ في الخزي. أين نحن؟ في الفرح والحبور».

ولكن هل تدوم المهادنة بين القدّيس والأمبراطورة؟ هذه المصالحة كانت رائعة، حتّى تستمرّ طويلاً.

الفصل الحادي عشر

وطلب الذهبيّ الفم من الأمبراطور والأمبراطورة، دعوة مجمع صالح للنظر في الاتّهامات، التي نسبها إليه مجمع السنديانة. يجب أن تمحى الإهانات التي ألحقت بالقدّيس. ولكنّ موعد انعقاد المجمع لم يُحدّد، إذ إنّ الأمبراطورة الشرقيّة مشغولة بقضيّة ملحة، تستوجب الحلّ السريع.

الأمبراطورة تطلب أن تقام لها تماثيل أسوة بالأمبراطور. عادة التماثيل هذه وثنيّة، دخلت مع أصحابها إلى الكنيسة. وارتأت الكنيسة ألاّ تكون قاسية إلى النهاية، مع المؤمنين الجدد، متفهّمة نفسيّتهم، فتركت لهم حرّيّة الاحتفاظ بشيء من الماضي، عسى الزمن يكفل تجريدهم من العوالق الوثنيّة كلّها. وفي الواقع، هذا التقليد الوثنيّ، إقامة التماثيل، المستمرّ عبر المسيحيّة، لم يخصّص النساء والأولاد، بل الأمبراطور فقط. احترام العائلة المالكة، واجب ولكن بدون تماثيل. وجاءت أفذوكيّا تطلب هذا الحقّ لنفسها. ولماذا تكون محرومة هذا الامتياز في حين أنّها تحكم الأمبراطوريّة، وتحكم زوجها أيضًا؟ وماذا يفعل زوجها؟ يقضي وقته في النوم. هي تعمل. ألا يحقّ لها أن يقام تمثالها في المدينة أسوة بسائر الأباطرة الحاكمين؟ حسب هذا المنطق كان الحقّ مع أفذوكيّا. ووافق مجلس الشيوخ على رغبة الأمبراطورة المحقّة.

إذا وقعت كمّيّة من المال، غير المرتقب، في يد امرأة فإنّها تتمادى في التبذير، في شراء الفساتين، فستان أحمر وآخر كذا وثالث كيت... ولكنّ أفذوكيّا لا تريد فساتين! إنّها تطلب تماثيل. بدل الفستان تمثال: من

ذهب ومن فضّة ومن بلاتين ومن برونز ومن.... في كلّ مدينة تمثال. وتمثال العاصمة يكون أكبر وأفخم وأثمن. واختارت أفذوكيّا المكان: الساحة المقابلة لكنيسة آجيا صوفيا، أوسع ساحة في المدينة.

الذهبيّ الفم قدّيس. والقدّيس يرحم ويشفق ويسامح. إلى الآن وهو يحاول أن يجعل من المؤمنين مسيحيّين حقيقيّين، ولكنّه لا يقدر على أن يغيّر كلّ شيء دفعة واحدة. هذه العادات الوثنيّة ستزول. ولو أنّ الأباطرة كانوا مسيحيّين حقيقيّين، لما سمحوا بأن تقام لهم تماثيل. لذلك هو يسعى إلى تأصيل الإيمان في نفوس أبنائه، فلا يعود الأباطرة يطلبون تماثيل، ولا يبقى المؤمنون يحترمونها ويقدّمون لها الهدايا والزهور...

وابتدأ العمل. التمثال من فضّة. يمثّل الأمبراطورة في موقف الآمرة، الحاكمة. وكانت التقاليد تقضي بأن ترافق تنصيب التمثال أفراح ومهرجانات وموسيقى وألعاب و... و... وكانت التمارين تجري كلّ يوم في الساحة المواجهة للكنيسة، بينما العمال يبنون قاعدة التمثال من الرخام، وعلى القاعدة عمود من «البورفير»، وعلى العمود يستقرّ التمثال، فيصبح تاليًا أعلى من الكنيسة، ومن القصر الأمبراطوريّ، مشرفًا على المدينة كلّها ويراه السكّان من جميع الأنحاء.

وإذا كان الذهبيّ الفم سكت عن إقامة التمثال، تجنّبًا لإثارة الأمبراطورة، فإنّه انزعج من الضجيج المرافق هذه العادة الوثنيّة. فبينما المصلّون في الكنيسة يركعون، إذا بأصوات الموسيقى الراقصة تطرق آذانهم. وبينما المرتّلون يلحّنون صلاة تقويّة، يأتي صوت مغنّية من الخارج، فيشوّش عليهم روعة الموسيقى الروحيّة. ولم يكن في نيّة القدّيس أن يختلف من جديد مع الأمبراطورة. إلاّ أنّه يعتبر هذه المظاهر إهانة ويجب أن تكفّ. وتباحث في الأمر مع محافظ المدينة الذي أجاب: «أليست هذه العادات التقليديّة قديمة؟ أم هل نعمل للأمبراطورة أفذوكيّا أقلّ ممّا فعلنا لسائر الأباطرة؟ ولماذا تريد أن تكبت حماس الشعب، إذا عبّر عن «محبّته للأمبراطورة؟».

ومحاباة الوجوه قديمة في الناس. ونقل المحافظ للأمبراطورة أنّ القدّيس غير راضٍ عن مظاهر الاحترام لشخصها... لمناسبة تنصيب التمثال. وبالاتّفاق مع الأمبراطورة، أصدر المحافظ أوامره بزيادة مظاهر التكريم، وإعطاء الناس مشروبًا مسكرًا بكمّيّة كبرى... وعمل كلّ ما من شأنه نكاية القدّيس. ووجد الذهبيّ الفم نفسه مرغمًا على الجواب. ولكن بالوسيلة الوحيدة الممكنة، الوعظ. وألقى عظة قال فيها كلّ ما في خاطره عن التماثيل، وعن الأشخاص الذين يطلبون أن تقام لهم تماثيل، وعن الاحتفالات الوثنيّة التي تطلبها الأمبراطورة المسيحيّة، تكريمًا لتدشين تمثالها. وأنهى موعظته بمقابلة بين أفذوكيّا وسالوما. وقال الذهبيّ الفم للشعب: «أنا عارف أنّه فور انتهائي من هذه الموعظة ستطلب سالوما (أفذوكيّا) رأس يوحنّا، ليس المعمدان، بل يوحنّا الذهبيّ الفم. أمّا أنا فالموت لا أخافه. من واجبي فضح الخطيئة. ما كان يجري لمناسبة التمثال أمام الكنيسة هو فضيحة، هو خطايا متراكمة، هو تحقير للسماء».

وفي الواقع لم يخطئ الذهبيّ الفم في ما ذهب إليه من أنّ أفذوكيّا ستطلب رأسه. إذ إنّ الأمبراطورة اتّخذت كلّ الاجراءات الكفيلة بقطع رأس الذهبيّ الفم. تمامًا كما عملت سالوما لتحصل على رأس يوحنّا المعمدان.

وجّهت الأمبراطورة دعوة إلى الأساقفة المصريّين، الذين سبق لهم أن حكموا على الذهبيّ الفم، أن يأتوا بسرعة. وكتبت رسالة طويلة إلى الخبير الأوّل في تصفية الناس، ثيوفيلوس الإسكندريّ، تستعطفه فيها أن يعود إلى القسطنطينيّة لمحاكمة الذهبيّ الفم. في هذه الرسالة، أقسمت أفذوكيّا على عدم التراجع وعدم الانصياع لضعف النفس، وأنّها لن تسامح الذهبيّ الفم كما فعلت سابقًا. طلبت من ثيوفيلوس أن ينهي قضيّة الذهبيّ الفم، كما يرى وعلى طريقته، في إنهاء القضايا البشريّة. وبتعبير أوضح طلبت من ثيوفيلوس تصفية القدّيس.

ولا شكّ في أنّ أفذوكيّا ذكيّة. ألم يطلب منها الذهبيّ الفم أن تدعو إلى مجمع لإظهار براءته؟ ها هي الحجّة متوفّرة. هو طلب وهي تدعو. ولكن،

ليست غايتها إلاّ ضدّ غاية القدّيس. هو طلب العدالة وهي تقدّم له الانتقام والموت. هذه المرّة لا مراعاة ولا رحمة. الذهبيّ الفم ارتكب الخطيئة الكبرى إزاء الأمبراطورة. والمرأة لا تنسى أبدًا. تنتقم من الذي ينتقد قبّعتها أو فستانها أو زينة شعرها. فكيف إذا جرؤ أحد وانتقد شخصها، تمثالها؟؟ الانتقام النهائيّ. الموت لمن أقدم على هذا. الموت للقدّيس.

وظهر الأساقفة المصريّون، من جديد، في القسطنطينيّة. ولكن هذه المرّة بدون ثيوفيلوس، الذي قطع عهدًا على نفسه ألاّ يضع رجله في تلك المدينة، بعد الذي حصل. هو يودّ خدمة الأمبراطورة وبخاصّة في موت الذهبيّ الفم، ولكنّه حذر، يتجنّب المخاطرة بحياته، فقد يقبضون عليه ويصبح مأكلاً لأسماك البحر! إلاّ أنّه، أي ثيوفيلوس، زوّد أساقفته بكلّ التوجيهات القانونيّة. فهو أدرى الناس بقوانين الكنيسة، تلك القوانين التي آلى على نفسه أن يخالفها، ويسيء تفسيرها.

في الجلسة الأولى، وقبل دعوة الذهبيّ الفم، وقف أسقف مصريّ وسأل المجتمعين: ماذا جئنا نفعل؟ وأجاب الأساقفة كما من فم واحد: نحن مجتمعون لنحاكم الذهبيّ الفم ونحكم عليه، وابتسم المصريّ. ثمّ فسّر لهم أنّ الذهبيّ الفم غير موجود بالنسبة إليهم وإلى القوانين. فكيف يمكن استدعاء شخص غير موجود للمثول أمام القضاة؟ وبهذا المنطق، المقتبس عن ثيوفيلوس، تكلّم المصريّ عن مجمع انعقد في أنطاكية السنة ٣٤١ (قبل عهد الذهبيّ الفم ببضع سنوات) وأنّ بعض قوانين ذلك المجمع تدين الذهبيّ الفم، وتحكم عليه بما يرغب به المصريّون والأمبراطورة. إنّ واحدًا من الحاضرين لا يعرف هذه القوانين. وقرأ المصريّ على مسامعهم المادّة الرابعة أو القانون الرابع من مجمع أنطاكية: «كلّ أسقف مخلوع من قبل مجمع، بعدل أو بغير عدل، يسمح لنفسه بالرجوع إلى منصبه بمجرّد سلطان، وبدون أن ينال عفوًا عن إدانته من المجمع نفسه، أو من مجمع آخر، وبدون أن يدعوه القضاة أنفسهم إلى ممارسة حقوقه الكهنوتيّة، بدون أن يسمح له بالدفاع عن نفسه، هذا الأسقف، وكلّ من يشترك

معه يحرمون من شركة الكنيسة» (بلاذيوس). وتابع المصريّ: «استنادًا إلى هذه المادّة، فإنّ المجمع المعقود حاليًّا، ليس أمامه أيّ مشكلة للنظر فيها. فمجمع السنديانة المنعقد برئاسة الكلّيّ التقوى! ثيوفيلوس قد خلع يوحنّا الذهبيّ الفم. ويوحنّا، بدون أن ينال العفو من مجمع السنديانة، بقي أسقف القسطنطينيّة. فهو إذًا محروم (حسب القانون الرابع الآنف الذكر)، ولا يحقّ له المثول أمام مجمع. لأنّ الذهبيّ الفم ليس أسقفًا، بل هو محروم ومفروز. ادّعى أنّه كان مظلومًا. هذا لا يبرّره. قانون أنطاكية يقول صراحة: أبعدل أم بظلم، لا يحقّ للمحكوم عليه أن يمارس حقوقه. ولا يحقّ له أن يستأنف أو يدافع عن نفسه!! وطلب المصريّ ألاّ ينعقد المجمع: انتفت الغاية. الذهبيّ الفم لا ينتمي إلى الكنيسة. وكلّ نشاطاته، بعد حكم مجمع السنديانة، ليس من صلاحيّة المجمع النظر فيها، بل من حقّ السلطات المدنيّة. وهذا ما يعلّمه القانون الخامس من مجمع أنطاكية عينه: «كلّ كاهن أو أسقف طرد من الكنيسة (كما هي حال الذهبيّ الفم)، واستمرّ في إثارة القلاقل والاضطرابات، فليُحاكم من السلطة الخارجيّة كمشاغب».

فحالة الذهبيّ الفم ليست من صلاحيّة الكنيسة، إنّما هي من اختصاص البوليس. في نظر الكنيسة لا يحقّ للذهبيّ الفم المفروز أن يستأنف. قوانين الكنيسة ترسم بوضوح، أنّه إذا شاغب أحد أفرادها، فهي تستعين عليه بالدولة أو بالسلطة الخارجيّة. وإذا أردنا تسمية الأشياء بأسمائها نقول: تستعين عليه بالبوليس.

منطق قويّ. متين. أساقفة المجمع لا يعرفون القوانين. ورفعوا الجلسة. وأعلن المجمع أنّ الذهبيّ الفم غير موجود بالنسبة إلى الكنيسة. هو مفروز، ممنوع على أيّ إنسان الاحتكاك به. هو أخطر من الأبرص.

وأشار المجمع على أركاذيوس بأن ينتهي من الذهبيّ الفم، مرّةً وإلى الأبد.

الأمبراطورة متّفقة والمجمع على تصفية الذهبيّ الفم، لأنّه أهان

تمثالها الفضيّ. وتطلب التنفيذ بسرعة، ولكنّ الأمبراطور أركاذيوس يودّ أن يقف على رأي القدّيس في الحكم الصادر عليه. لم يفكّر أحد في طرح السؤال على الذهبيّ الفم، إلاّ أركاذيوس الذي كان نائمًا. إنّ النائمين أكثر نزاهة من المتيقّظين. وأجاب القدّيس رسل الأمبراطور أنّ كلّ أحكام مجمع المصريّين خاطئة.

أوّلاً: قوانين مجمع أنطاكية هرطوقيّة، ولا تعتمدها الكنيسة الأرثوذكسيّة. مجمع أنطاكية كان مؤلّفًا من ستة وثلاثين أسقفًا آريوسيًّا، مدعومين من قبل الأمبراطور الآريوسيّ كونستانس.

ثانيًا: إنّ مجمعًا إكليريكيًّا - كنسيًّا لم يحكم عليه مطلقًا. وفي الواقع مجمع السنديانة لم يبلغ الذهبيّ الفم الحكم الصادر بحقّه. إنّ ضابطًا أمبراطوريًّا جاء يقول له أن يتهيّأ للرحيل إلى المنفى. فمجرّد أنّ مجمع السنديانة لم يبلغه الحكم الصادر عليه، فهذا يعني أنّ الحكم غير واقع.

ثالثًا: الذهبيّ الفم لا يطلب من المجمع أن يعيد إليه حقوقه. فحقوق القدّيس لم يسلبه إيّاها أحد. بل طلب من المجمع إظهار براءته من الاتّهامات، ووضع حدّ للنميمة. واجب كلّ أسقف.

واعترف أركاذيوس بحقّ المجمع الثاني. ولكنّه اعترف أيضًا بأنّ الذهبيّ الفم على حقّ. هكذا حلّ الأمبراطور المشكلة. أعطى الحقّ للفريقين، ثمّ طلب أن يُترك بسلام. ضميره مرتاح. لم يسبّب لأحد ضررًا، لا للذهبيّ الفم ولا لمجمع المصريّين.

وبما أنّ الامبراطور لم يتّخذ موقفًا معيّنًا، فقد تابع القدّيس ممارسة نشاطه كرئيس للكنيسة. وامتنع الأغنياء والنبلاء والطامعون في المراكز العالية، عن المجيء إلى الكنيسة. ولمّا أراد أركاذيوس الذهاب إلى الكنيسة تصدّى له الجميع، الأمبراطورة وأساقفتها. لا يجوز أن يدخل الأمبراطور كنيسة أسقف محروم. ولم يذهب الأمبراطور إلى الكنيسة. هو مطيع! ومع ذلك فإنّه يريد أن يصلّي، وممنوع من دخول كنيسة الذهبيّ الفم. إذًا فليذهب الذهبيّ الفم إلى المنفى. حتّى يقدر الأمبراطور على أن يأتي

الى الكنيسة! وفور تصديقه على نفي القدّيس عاد عن قراره. هو يخاف أن يكون الذهبيّ الفم بريئًا. إذا أرسل إلى المنفى أسقفًا قدّيسًا بريئًا فإنّه يخاف غضب الربّ. خاف أن يقع عن سريره مثلاً، أو أن تسري إليه عدوى داء خبيث، أو أن يحترق وهو حيّ! تراجع إذًا عن قراره. وأصدر أمرًا يقول: يمنع الذهبيّ الفم من مغادرة مسكنه. فرض عليه الأقامة الجبريّة. ولم يسمح له حتّى بالدخول إلى الكنيسة.

وراح أركاذيوس يراقب الله. أجل، هو يمتحن الله هل يغضب من هذا الحكم. إذا غضب الله فإنّه يعفو عن القدّيس. وغضب الله يصير إعلانه بطريقة ملموسة: هزّة أرضيّة، حريق، أو أيّ شيء مثل هذا. ولأوّل بادرة غضب من الله، فإنّ الأمبراطور يعفو عن القدّيس. ولكن إذا لم يغضب الله ولم يعاقب الأمبراطور، فهذا يعني أنّ الله موافق على إرسال الذهبيّ الفم إلى المنفى. وأسرّ الأمبراطور إلى الأمبراطورة بما يجول في باله. سيكون موقفه مرتبطًا بردّ الفعل الإلهيّ على الإقامة الجبريّة. إذًا هي عمليّة جسّ نبض، نبض الله!

ولكنّ الله لم يغضب. لا حريق، لا زلزال، لا طاعون، لا سرطان! واستنتج الأمبراطور أنّ الله يوافق على معاقبة الذهبيّ الفم. وطالما الله يوافق، فقد وعد أركاذيوس بإرسال القدّيس إلى المنفى. يقدر الأمبراطور على أن يعد زوجته الجميلة بهذا، لأنّ الله لن يدافع عن الذهبيّ الفم. لو كان الله صديقًا للقدّيس، لو كان الله حاميه لأرسل علامة للأمبراطور!! ولكنّ الله لم يعط أيّة إشارة تدلّ على اهتمامه بأسقف القسطنطينيّة.

وطلب الأمبراطور الإسراع في تنفيذ الحكم. كذلك الأغنياء والنبلاء. ولكنّ الأمبراطور كان يسوّف ويماطل. صحيح أنّ الله لم يغضب. وهذا أكيد. ولكنّ الحذر يقضي بالتروي. فقد يجيء غضب الله متأخّرًا. لماذا لا ينتظر؟ أركاذيوس يؤخّر تنفيذ النفي، ويسعى إلى البقاء صديقًا مع الله والذهبيّ الفم. وأرسل أركاذيوس مساعدًا يعرض على القدّيس الهدنة. الأمبراطور من جهته لا يعمل شرًّا بالقدّيس، ولا بالفقراء الذين يحميهم القدّيس.

والذهبيّ الفم من جهته، لا يدخل الكنيسة، طيلة مدّة الهدنة، لتجنّب العنف ولمنع إراقة الدماء. ويعرف القدّيس أنّه إذا رفض هذه الشروط، فالأمبراطور سيلجأ إلى القوّة. واللجوء إلى القوّة يعني إراقة الدماء. ورضي بألاّ يدخل الكنيسة. وحفظ القدّيس كلمته. وكذلك الأمبراطور. شروط الهدنة احترمها الفريقان. ولكنّ أعياد الفصح على الأبواب. وتطلّع القدّيس من نافذته فرأى الشعب، حارسه الأمين. فأحسّ بتعنيف الضمير. كيف يترك المؤمنين بدون راعٍ. يجب أن يدخل الكنيسة، وكلّ يوم، مهما كان الثمن. يجب أن يكون في الهيكل حتّى ولو دفع، ثمن وجوده في الهيكل، حياته وحياة المؤمنين. الموت ليس موضوع خوف للمسيحيّين. الموت ليس خطرًا. الخطيئة فقط هي الخطر. وبخاصّة في هذه الأيّام التي تسبق الفصح. يرتكب القدّيس خطيئة خطيرة، إذا ظلّ مبتعدًا عن الكنيسة وعن المؤمنين. وقرّر الذهبيّ الفم أن يدخل الكنيسة. وبدون تردّد، نقض وعده للأمبراطور. لا يريد أن يرضي الناس، بل الله، لا نقدر على أن نرضي الاثنين معًا. ودخل الكنيسة وخدم الذبيحة. وكان يوم السبت العظيم، سبت الآلام، سبت النور. وانتشر الخبر في المدينة. وأيقظت أفذوكيّا زوجها وقالت له: «واجبك أن تبعد عن الكنيسة هذا الدخيل. لا تقدر على أن تشترك مع هذا الإنسان، ولا تسمح لعائلتك وشعبك المؤمن بأن يشتركوا معه. المسؤوليّة تقع عليك». وتساءل أركاذيوس: «إذا كان الأسقف قدّيسًا فعلى من تقع الخطيئة؟» ولكنّ الله لم يظهر غضبه ليبرهن على صداقته للأسقف. إذًا، الله مع الأمبراطورة ضدّ الذهبيّ الفم. وخضع الأمبراطور: يجب إبعاد الأسقف عن الكنيسة.

كان الذهبيّ الفم يقدّم الذبيحة أمام الربّ. وقبل أن ينتهي جاءه الأمر الأمبراطوريّ بترك الكنيسة. وأجاب القدّيس رسل الأمبراطور: «لا أقدر على أن أترك الكنيسة. الله أعطاني هذه الكنيسة لأعتني بقطيعه. فلا أهجرها!» وهدّده الضابط باستعمال العنف. فأجابه القدّيس: «إذا كانت هذه رغبة الأمبراطور، فليخرجني بالقوّة لأنّ المدينة ملك له. العنف يكون

عذري أمام الله. لن أترك هذه الكنيسة بإرادتي. أبدًا».

واستدعى الأمبراطور الأسقفين اللذين حكما بالموت على الذهبيّ الفم: أنطيوخوس وأكاسيوس. وقال لهما: «قولا لي ما يجب أن أفعل». لأنّ الأمبراطور لا يرضى أن يلّوث يديه بالدم في هذا السبت العظيم، سبت الآلام الخلاصيّة. الأمبراطور يخاف الله. ويخاف أيضًا زوجته الجميلة. فلا يريد إغضاب الله واستعمال القوّة داخل الكنيسة. ولكنّ الأسقفين أقلّ مسيحيّة وإيمانًا من الأمبراطور. فأكّدا لأركاذيوس أنّهما على علاقة وثيقة بالله «لأسباب مهنيّة». ونصحا الأمبراطور باستعمال القوّة على مسؤوليّتهما «فلتنزل الدينونة على رأسينا».

في هذه الحال لا يخسر أركاذيوس شيئًا. وأمر بمباشرة المجزرة في الكنيسة. إنّ يديه نظيفتان. غدًا، أمام منبر المسيح، لن تظهر على يديه آثار الدماء. لأنّ الخطيئة والدم مسؤول عنهما الأسقفان. وهكذا تبقى العلاقات طيّبة بين الأمبراطور والله! إذًا، صدرت الأوامر بتوقيف القدّيس وكلّ من يعارض أوامر الأمبراطور.

وتمّ استنفار الجنود. تدجّجوا بالسلاح كأنّهم في ساحة الوغى وذهبوا لاحتلال الكنيسة.

في هذا السبت المقدّس، كانت الكنيسة تعجّ بالمؤمنين. وكان يوجد أيضًا بعض الآلاف من الموعوظين، مرتدين ملابس بيضاء، ينتظرون اقتبال سرّ العماد للدخول في الإيمان الجديد. ولمّا ظهر الجنود المسلّحون كان قسم من الموعوظين في الماء، في جرن المعموديّة، ينالون نعمة الروح القدس. ولكن حينما ظهر الجنود، حاملين الأمر باستعمال القوّة، فهناك الدماء والتقتيل والجثث... وهجم الجنود، أوّلاً، على جرن المعموديّة فرموا بالكهنة في الماء ثمّ حوّلوا المياه إلى خمر: عفوًا، إلى شيء أحمر اسمه دم! «مياه إعادة ولادة البشر أحمرّت بدماء البشر». وهرب من هرب، بعضهم عراة، عبر الشوارع. وتقدّم الجنود خطوة ثانية فوصلوا إلى الهيكل. الجنود مطلوب منهم تصفية العدوّ. والعدوّ يعني الكهنة والمؤمنين والموعوظين

الطالبين معموديّة المسيح. المؤرّخون المرهفو الإحساس لا يجرؤون على ذكر ما حدث في تلك المذبحة، «أصمت لكيلا أكشف للوثنيّين ما هو شنيع في داخلنا»، قال المؤرّخ سوزومين. ولم يمضِ وقت قصير حتّى أقفرت «آجيا صوفيا» من الأحياء. واختبأ قسم، وقسمٌ قرّر متابعة الخدمة الإلهيّة حتّى النهاية. والموعوظون يطلبون تعميدهم: تحدٍّ رائع لأوامر الذبح الصادرة عن الأمبراطورة!

وبينما الجنود يأخذون الذهبيّ الفم، مقيّدًا مثل المجرمين، كان الكهنة يتابعون الصلوات في الشوارع وفي الحمّامات العامّة. لأنّ الموعوظين مصمّمون على أخذ معموديّة المسيح. كانوا يرتّلون وينشدون، وآثار الوحشيّة الأمبراطوريّة بادية على جسومهم: جراحهم طريّة ودماؤهم تسيل، ومع ذلك فهم مؤمنون بالمسيح المصلوب. فهل يتركون الشيطان يمنعهم من نوال النعمة الإلهيّة بالمعموديّة؟

وإذ علم الأمبراطور بأنّ الدماء سالت في الكنيسة، خاف وارتعد من غضب الله. ولكنّه نال تطمينًا من الأساقفة بأنّهم يتحمّلون هذه الخطيئة. الأساقفة على اتّصال بالله مستمرّ. وهم يرتّبون القضيّة. الله يغفر. الله رحيم. ومع ذلك فقد خاف الأمبراطور. والأساقفة لم يكونوا خائفين بل غير «مبسوطين»، والسبب أنّ المذبحة لم تكن نشيطة، ينقصها الشدّة والعنف. لم يُذبح المؤمنون حتّى آخرهم. ولأنّ الكهنة والمؤمنين والموعوظين لم يموتوا جميعًا، فإنّ الأساقفة يعتبرون أنّ العمل فاشل. الجنود مسؤولون عن عدم تنفيذ أمر الأمبراطور حتّى النهاية. وذهب الأساقفة عند محافظ المدينة، وطلبوا منه متابعة تنفيذ أمر الأمبراطور، لأنّ كثيرين من المؤمنين ما زالوا أحياء، وها هم يعتمدون في حمّامات «كونستانس»، وينالون نعمة المسيح. وتردّد المحافظ، واسمه أنتيميوز، لأنّه يخاف الله. المحافظ لم يكن أسقفًا فيسمح لنفسه بكلّ شيء أمام الله. لذلك تردّد عندما طلب منه الأساقفة متابعة ذبح المؤمنين العراة في الحمّامات. وهدّده الأساقفة بشكايته للأمبراطور مثل جبان لا ينفّذ أوامر الأمبراطور. عندما

رأى أنتيميوز مقدار الحقد والبغض والوحشيّة في نفوس الأساقفة، ارتعد!! كان يعرف أنّ أيّ قائد عسكريّ لا يخلو قلبه من الشفقة والإنسانيّة، كما هي قلوب الأساقفة. في الجيش الأمبراطوريّ برابرة وثنيّون. ولكنّ ضابطًا وثنيًّا بربريًّا، غير جدير بهذه الوحشيّة الظاهرة عند الأساقفة، رجال الله. وقال المحافظ للأسقفين أنطيوخوس وأكاسيوس: أنا أضع بتصرّفكما الجنود ولكن بشرط أن تستلما القيادة بنفسكما. أنا غير مستعدّ لأن أقود مذبحة تزهق فيها أرواح المسيحيّين. يظهر أنّ الأساقفة أكثر جدارة في قيادة المجازر من القادة.

وكانت الفرحة كبرى عند الأساقفة والكهنة. لقد نالوا ما يصبون إليه. كان ينقصهم الجنود. وها هم يتصرّفون بالجنود كما يشاؤون. فلماذا لا يفرحون؟ ولم تشهد القسطنطينيّة، في عمرها، مشهدًا مماثلاً لما جرى في تلك الساعة: أساقفة وكهنة وشمامسة، أجل رجال الله، يقودون الجنود المسلّحين ويأمرون بذبح الموعوظين الطالبين المسيح والاتّحاد بالمسيح. أليس طريفًا أن يموت طالب المسيح على يد خليفة المسيح؟! وتوجّه الجنود بقيادة الأساقفة إلى حمّامات كونستانس، ليقتلوا النساء والرجال، أثناء الاحتفال بسرّ المعموديّة المقدّسة. كان ذلك يوم السبت المقدّس. يجب أن تتمّ تصفية جميع المؤمنين بالمسيح، قبل انتهاء يوم السبت. لأنّ الغد يوم الفصح.

الأمبراطور في قصره، فريسة للقلق. والأمبراطورة تحاول انتشاله من تعنيف الضمير. ولم تجد صعوبة في الترفية عن الأمبراطور المنزعج. الهواء الطلق هو الدواء الشافي لمن يعاني كابوس القلق. وأقنعت زوجها بالقيام بنزهة لاستنشاق الهواء النظيف. وفيما الأمبراطورة منشغلة بتسلية زوجها، ظهر أمام العربة الأمبراطوريّة اثنان وأربعون أسقفًا مع العديد من الكهنة والشمامسة. وركع الأساقفة الاثنان والأربعون والكهنة والشمامسة، ركعوا جميعًا أمام العربة الأمبراطوريّة، يستعطفون أركاذيوس أن يأمر بإنهاء المذبحة. كان الأمبراطور قد عاد إلى الهدوء. فارتاح

ضميره. الهواء النقيّ فعل فعله بضمير الأمبراطور! فهو ينام. كان يرى الإكليروس ويسمعهم كما في المنام. ولكنّ أفذوكيّا، هنا، لا تنام. تنتصب رافعة رأسها. تسمع وترى. الذين ماتوا والذين يموتون والذين سيموتون، ذبحًا وتقتيلاً، يستحقّون ما ينزل بهم. يستحقّون القتل والذبح، لأنّهم انتقدوا تمثال الأمبراطورة. وقال لها أحد الأساقفة: «أشفقي على أولادك ولا تشوّهي فصح المسيح المقدّس بإراقة الدماء».

ونظرت إليه الأمبراطورة باحتقار وازدراء، وأمرت «العربجي» أن يسير. وبقي الاثنان والأربعون أسقفًا على الأرض كأنّ صاعقة نزلت بهم، أو كأنّهم تحوّلوا إلى جماد. ظنّوا أنّ نفس الأمبراطورة من حجر. ولكنّ الأمبراطورة لم تكن من حجر. بل كانت امرأة، مجرّد امرأة أُهين تمثالها وهي الآن تنتقم. إنّ المرأة المنتقمة أكثر صلابة من الصخر.

وإذ ابتعدت العربة قليلاً عن الأساقفة الراكعين، فتح الأمبراطور عينيه. فأبصر، عبر الحقول، جماعة من الناس في ملابس بيضاء. إنّهم الناجون، الباقون أحياء من مجزرة الحمّامات، تلك المجزرة التي قادها أساقفة وكهنة وشمامسة. هؤلاء الوثنيّون يطلبون معموديّة المسيح: في الكنيسة منعهم الجنود، وقتل منهم من تيسّر قتله؛ فهربوا إلى الحمّامات حيث كانت المذبحة الثانية فمات قسم آخروبقي هؤلاء، الذين أمام ناظري الأمبراطور، على قيد الحياة. ولكنّهم يتابعون المراسيم الدينيّة لينالوا نعمة المعموديّة. إنّهم يريدون أن يصيروا مسيحيّين مهما كان الثمن: حتّى الدم. وتجب الملاحظة هنا أنّ احتفالات المعموديّة كانت تدوم أيّامًا كثيرة.

وسأل الأمبراطور زوجته: من يكون هؤلاء الرجال والنساء البيض؟ فأجابت أنّهم هراطقة. وتذكّر أركاذيوس أنّه أمبراطور أرثوذكسيّ مستقيم الرأي، وواجبه كأمبراطور مسيحيّ أن يدافع عن كنيسة المسيح ضدّ الأعداء والهراطقة. وقرّر الأمبراطور بحكمة وتعقُّل، كما يليق بأمبراطور أرثوذكسيّ مستقيم الرأي، أن تصير إبادة جميع الهراطقة. والأمبراطور عسكريّ. ومن الطبيعيّ أن يلجأ إلى الجيش. وجاء الخيالة الأمبراطوريّون ينفّذون أوامر

الأمبراطور. ولكن يوم السبت لم ينته بعد، ولن ينتهي. فالمذابح استمرّت في الأيّام اللاحقة.

وعلم أمبراطور الغرب أونوريوس، شقيق أركاذيوس، بالفظائع الجارية في القسطنطينيّة. فأرسل يقول لشقيقه إنّ الجريمة التي ارتكبت ليلة الفصح هي بشعة، مقيتة؛ وأنّ العادة جرت أن يفتح الأباطرة المسيحيّون أبواب السجن، ليلة الفصح، مطلقين المساجين إلى الحرّيّة. «هوجمت الكنائس فجأة في القسطنطينيّة وسُجن الكهنة، وعوض أن تفتح أبواب السجون في القسطنطينيّة لإطلاق السجناء، فقد ملأتَ سجونك بخدّام شريعة المحبّة والسلام... وذبحت المؤمنين حتّى في الكنائس... والأسرار الجليلة تلوّثت بالدماء البشريّة»، وكان بين الكهنة والمؤمنين، المساجين، الذهبيّ الفم الأسقف القدّيس.

الطريق المؤدّية الى السماء، تمرّ في السجن أيضًا. والذهبيّ الفم يتابع طريقه إلى السماء عبر السجن.

الفصل الثاني عشر

الذهبيّ الفم في السجن. الحراسة مشدّدة. أرادوا إغلاق فمه الذهبيّ، ومنعوه من الاتّصال بالخارج. ورغم الاحتياطات البوليسيّة فقد توصّل القدّيس إلى خرق الحصار، وإرسال كتاب إلى أخيه بالربّ أسقف رومية إينوسنشيوس، يطلب فيه مساعدته؛ لا أن يساعده هو، أي الذهبيّ الفم، بل أن يساعد الكنيسة، التي تسعى أفذوكيّا إلى توسيخها وتلطيخها.

«نظنّ أنّ أخبار الجريمة وصلت إلى مسامعك قبل قراءتك هذه الرسالة. لقد كانت الجريمة فظيعة حتّى إنّ كل بقعة في العالم انزعجت وتألّمت. في كلّ زاوية من العالم حداد ودموع وعويل».

وحمل هذه الرسالة أربعة أساقفة واثنان من الشمامسة. وروى القدّيس في رسالته تفاصيل ما جرى في القسطنطينيّة. وذهبت البعثة إلى روما في طريق البحر، خوفًا من الوقوع في أيدي أفذوكيّا ورجالها. وجاء موقف إينوسنشيوس أسقف روما، كما يجب أن يكون موقف أسقف مسؤول. فقد أكّد للذهبيّ الفم أنّ المجمعَين اللذين حكما عليه غير شرعيّين. وهو سيدعو إلى عقد مجمع يؤكّد براءة القدّيس، لأنّه سيكون مجمعًا حسب شرائع الكنيسة الأرثوذكسيّة، كما سيدعو ثيوفيلوس لحضور هذا المجمع، ولكن كشاهد وليس كرئيس.

أمّا في ما يتعلق بآلام القدّيس المعنويّة والجسديّة، فقد كتب الأسقف إينوسنشيوس يقول: «أنت، الراعي المعلّم، لست بحاجة إلى من يعلّمك بأنّ الأتقياء، هم أكثر الناس تعرّضًا للتجارب، لكي يظهروا غير

منقهرين من الألم، غير متزعزعين إزاء الأتعاب القاسية وإزاء المظالم».

وعرض أسقف روما على أمبراطور الغرب أونوريوس قضيّة الذهبيّ الفم. ووعد حاكم روما بمساعدة القدّيس، فكتب إلى أركاذيوس ينذره، حتّى لا نقول يأمره، بأنّ ينصف الأسقف الذهبيّ الفم. وتحالف الغرب كلّه مع الأسقف إينوسنشيوس، لإعادة الحقّ إلى نصابه، وإنصاف القدّيس أسقف الشرق. ولكن هل تحمّس أمبراطور الغرب للذهبيّ الفم فقط من أجل القدّيس، أم لأنّ له مصلحة خاصّة من وراء ذلك؟ الحكّام ورجال السياسة لا يكونون أبدًا متجرّدين. هذه حقيقة. يريد أونوريوس استغلال قضيّة القدّيس، العادلة، ليتسرّب عبرها إلى الشؤون الداخليّة للأمبراطوريّة الشرقيّة. وكان لهذا التدخّل مبرّر نبيل: رفع الحيف النازل بالقدّيس. وأدركت أفذوكيّا، ومعها رجال السياسة في القسطنطينيّة، نيّات الأمبراطوريّة الغربيّة. ودبّ الرعب وانتشر الهلع في بلاط أركاذيوس. المجمع الذي يعقده أسقف روما هو ضربة رهيبة ضدّ أمبراطوريّة الشرق. ونصحوا أركاذيوس أن يحول دون انعقاد هذا المجمع، مهما كلّف الامر، بأيّة وسيلة. ولكن هل يقدر أركاذيوس على أن يمنع أسقف روما من إظهار الحقّ؟؟

وجاءت الفتوى، من أنيقات البلاط، بسيطة ونسائيّة: تصفية الذهبيّ الفم. فإذا ذهب القدّيس، ذهب معه المجمع، إذ لا يبقى مبرّر لانعقاده. وفي بلاط أركاذيوس تعطّلت جميع الأعمال من جميع الأنواع، إلاّ الاهتمام باغتيال القدّيس. المشكلة الفريدة التي تشغل أمبراطوريّة الشرق، حاليًّا تكمن في اغتيال سرّيّ وسريع، وينتهي الذهبيّ الفم، ويرتاح بال الأمبراطورة.

الأمبراطورة والأنيقات، في انتظار الأسقفين أنطيوخوس وأكاسيوس، ليطلعهما على خطة الاغتيال. وتوّد الأمبراطورة أن تعرف إذا كان قتل القدّيس يجلب عليها، وعلى الأنيقات، غضب الله. النساء، في طبيعتهن الخوف. تستطيع المرأة أن تحبك خيوط مؤامرة لأفظع اغتيال. ولكن، في

مرحلة التنفيذ فإنّها تجبن، تخاف. هكذا هي الطبيعة النسائيّة. لقد رسمت النساء تفاصيل الخطّة لاغتيال القدّيس. ولكنّ تنفيذ الاغتيال يغضب الله!! وجاء الأسقفان يطمئنان الأمبراطورة وزمرتها، بأنّ قتل الذهبيّ الفم لا يعني شيئًا بالنسبة إلى الله؛ لقد شهد الله كثيرًا من الاغتيالات، فأضحى الاغتيال أمرًا تافهًا في نظر الآب السماويّ. وعلاوة على ذلك، فالله في جوهره رحيم. الله يغفر كلّ شيء. فهل يرفض أن يسامح هذه المرّة؟

وارتاح بال الأمبراطورة ونسائها. وبدأ الاستعداد لتنفيذ الاغتيال.

وسريعًا جدًّا وجدت الأمبراطورة «قاتلاً محترفًا». إنّ أمثال هذا القاتل موجودون في جميع المدن الكبرى. وجاءت الشرطة بالرجل القاتل. وأعجبت به الأمبراطورة. إنّه ماهر، ولا شكّ. وتمّ الاتّفاق. وقبض أوّل دفعة على الحساب. هكذا كانت، وما زالت، العادة. القاتل محترف، وتاليًا صاحب خبرة. ومع ذلك فقد اصطدم بعقبات صعبة. القصر الأسقفيّ، حيث يقيم القدّيس إقامة جبريّة، كأنّه في السجن، محروس من الجنود. وجاءت التعليمات إلى رجال الشرطة أن «لم سمعنا، لم رأينا»، وأن يساعدوا القاتل على الدخول. هذه العقبة سهلة، ولكنّ الأسقف كان محروسًا من غير الشرطة. الشعب المؤمن يقوم بالحراسة داخل القصر، وفي غرفة القدّيس. حتّى في الشوارع المحيطة بالقصر الأسقفيّ. الشعب لا يتساهل في المحافظة على حياة محبوبه، الفقراء يحبّون بإخلاص. بتفانٍ. بتضحية. كانت الحراسة، حراسة الشعب طبعًا، شديدة. وصعب على أيّ قاتل، ولو محترفًا، أن يتسرّب خلال المدافعين الصادقين عن القدّيس.

أسابيع عدّة مرّت والقاتل يحاول التسلّل عبر الحراس الفقراء. وكان الفشل نصيبه. ولكنّ الأمبراطورة مستعجلة. تريد رأس القدّيس بسرعة. وأنذر القاتل بألاّ يتأخّر... فلجأ إلى الحيلة: ارتمى على الأرض أمام باب الأسقفخانة، بيت الأسقف، كأنّه أصيب بنوبة صرع، داء النقطة. كان الناس ينظرون إليه يتلوّى ويتمرّغ بالتراب، وواحد منهم لم يتوقّف عن سيره. هذا المشهد متواتر في القسطنطينيّة. لا حاجة إلى سيّارة الإسعاف

أو الطبيب. لا ينفع مع «المصروع» إلاّ الوقت. عندما تنتهي النوبة ينهض، وينفض الغبار عن ثيابه ويسير كأنّ شيئًا لم يحدث. هذا ما فعله القاتل المحتال. فلم يأبه له أحد. وبهذه الحيلة دخل، أو بالأحرى زحف، إلى الدار الأسقفيّة حتّى وصل إلى غرفة القدّيس. وفتح الباب. وهمّ بالدخول. ولكنّ خادمًا أمسك به. وأثناء استجوابه لم يتردّد في كشف الحقيقة: استأجرته الأمبراطورة ليقتل القدّيس. وأراهم آلة القتل: الخنجر، الذي به كان سيقضي على القدّيس. وطلب الغفران لأنّه فقير، والفقير مجبور على أن يشتغل بأيّ مهنة ليكسب رزقه ورزق عياله.

وانتشر الخبر في المدينة، وعمّ الأمبراطوريّة كلّها: محاولة اغتيال الذهبيّ الفم. وتمركز الشعب، الفقراء، حول بيت الأسقف. وتضاعف عدد الحراس، المؤمنين طبعًا... وصار صعبًا أن يدخل عصفور إلى غرفة القدّيس.

وكان لا بدّ من تدخّل البوليس، نعم البوليس نفسه الذي اشترك في مؤامرة الاغتيال. من الضروريّ إنقاذ المظاهر على الأقلّ. وكبّل رجال الشرطة القاتل وساقوه إلى السجن. وثار الغضب في نفس أفذوكيّا حتّى الغليان. إلاّ أنّ القدّيس كان هادئًا، إلى وقت. لقد أفلت من الموت بالصدفة. وبما أنّه على قيد الحياة، فعليه أن يتابع الجهاد من أجل الكنيسة. وطلب ورقة وقلمًا. وكتب استرحامًا قدّمه لمحافظ المدينة، لإطلاق سراح الرجل الذي حاول اغتياله. ووافق المحافظ، وعاد المجرم إلى الحرّيّة، سريعًا...

في هذا الوقت، كان أسقف روما قد وجّه دعوات إلى الأساقفة، لعقد مجمع لإنصاف الذهبيّ الفم. وازداد الرعب في قلوب نساء القصر، لمجرّد فكرة رجوع الأسقف إلى ممارسة حقوقه. إنّهنّ خائفات من وقفة القدّيس على المنبر. هذه المرّة، سيكون القاتل أمهر إنسان حمل خنجرًا، واستنجدت النسوة بالأساقفة. يظهر أنّ الأساقفة أخبر من البوليس في معرفة القاتلين. فاختاروا خبيرًا محترفًا «عتيقًا».

هل تعلمون من الذي اتّفق مع القاتل الجديد؟ إنّه الكاهن

إلبيذيوس. وكانت الدفعة الأولى، وعلى الحساب طبعًا، خمسين قطعة ذهبيّة، ولم ينسَ الكاهن أن يتمنّى للقاتل النجاح والتوفيق. أليست صلاة الكاهن مقبولة عند الله؟

وتخفَّى القاتل بملابس بائع متجوّل. ودخل القصر الأسقفيّ بهدوء ورباطة جأش. واستوقفه أحد الفقراء- الحراس ليفتّشه. فتوقّف قلب الفقير، لقد انغرز فيه الخنجر... وتابع البائع المتجوّل طريقه كأنّ شيئًا لم يحدث، نحو غرفة القدّيس. وكان أمام الباب أربعة من المتطوّعين. وأرادوا تفتيش البائع. وانطلقت يد القاتل تفتّش عن قلوبهم. من قلب إلى قلب، حتّى أتى على الأربعة. حدث كلّ هذا بسرعة فائقة لم يتمكّن معها أحد من الاستنجاد. وهكذا ترك القاتل وراءه أربعة قتلى وجريحًا. ذلك بأنّ واحدًا من الحراس الأربعة أخطأ الخنجر قلبه ببضعة ملّمترات. فلم يمت فورًا. واستطاع قبل أن يلفظ روحه أن يصرخ. وجاءت النجدة. وحاول القاتل أن يفتح له ممرًا بين الجماهير التي احتشدت فقتل اثنين. فكانت حصيلة هذه المحاولة الفاشلة سبعة فقراء، ماتوا فداء عن قدّيسهم. وتمكّن الشعب المتجمهر من القبض على المجرم. فوجدوا معه ثلاثة خناجر لأنّ خنجرًا واحدًا لا يلبّي في تقتيل سبعة أو أكثر. واعترف القاتل بأنّ الكاهن إلبيذيوس استأجره لقتل القدّيس، وأنّه استلم من يد الكاهن القدّيس خمسين ليرة ذهبيّة، وأنّ بقيّة الأجر سيدفعها له الكاهن بعد التنفيذ. ولم ينس القاتل أن يقول لهم، إنّ الكاهن تمنّى له النجاح وصلّى من أجل ذلك!

هذه المرّة لا يحتاج الذهبيّ الفم إلى أن يطلب العفو عن المجرم. لأنّ رجال الشرطة اقتادوا «البائع المتجوّل» خارج القسطنطينيّة وأطلقوا سراحه.

محاولات الاغتيال التي رسمتها الأمبراطورة وأنيقاتها، والتي باركها الكهنة والأساقفة، لم تنجح. ولمّا رأى الأساقفة أنّ اغتيال القدّيس مستحيل، حضروا عند الأمبراطور وقالوا له: «أنت أمبراطور مقام من الله حتّى تفعل كلّ ما يحلو لك. فلا تكن حليمًا أكثر من الكهنة، وقدّيسًا أكثر

من الأساقفة».

وسألهم أركاذيوس ماذا يقصدون وماذا يريدون؟ فأجاب الأساقفة أنّهم يطلبون تصفية الذهبيّ الفم. واعترض الأمبراطور على قتل إنسان. القتل خطيئة. وبخاصّة قتل أسقف وقدّيس. في هذه اللحظة دخلت أفذوكيّا وطمأنت زوجها المحبوب جدًّا، بأنّه إذا كانت تصفية القدّيس خطيئة، فإنّ الأساقفة يتحمّلونها، وأنّ الأمبراطور يقدرعلى أن يتقدّم من منبر المسيح نظيف اليدين، فيخصّص له الله مكانًا مريحًا في الفردوس.

وابتسم الأمبراطور. لقد اطمأنّ. كان يتحرّق شوقًا إلى بلوغ الفردوس حيث الراحة والهدوء، وحيث لا انزعاج من مراجعات الأساقفة والوزراء والبطانة... والأمبراطورة الجميلة. إلاّ أنّ الأمبراطور، في كلّ حال، لا يوافق على القتل، بل على النفي. وفرح الأساقفة. فقد نالوا مأربهم.

ابتعاد القدّيس عن قصره يعني الموت. وهذه غاية المنى!

في السابع من حزيران السنة ٤٠٤ أي بعد خمسة عشريومًا من عيد العنصرة، حلول الروح القدس، استيقظ الذهبيّ الفم وتطلّع من النافذة: الشعب هنا لا يتزحزح. وبعد صلاته الصباحيّة انتظر القدّيس أن تكمل مشيئة الله. وعند الظهيرة قدم إلى الدار الأسقفيّة موظّف أمبراطوريّ اسمه باتريسيوس. قال للقدّيس: «سلّم أمورك للربّ واخرج من هنا حالاً».

وظل الذهبيّ الفم هادئًا. القدّيس هادئ حتّى إزاء الموت. وفسّر باتريسيوس للأسقف: «أكاسيوس وأنطيوخوس وسيرينوس وسيفريانوس، وهم أساقفة طبعًا، يتحمّلون مسؤوليّة القضاء عليك».

وأبدى القدّيس رغبته في دخول الكنيسة للصلاة. فلم يعارض باتريسيوس. ودعا الذهبيّ الفم أساقفته وكهنته وشمامسته لمرافقته إلى الكنيسة، «تعالوا فنصلّيَ ونستأذن ملاك هذه الكنيسة».

للمرّة الأخيرة صلّى القدّيس في هذه الكنيسة. قال له باتريسيوس أن يستعدّ للمنفى. ولكنّ القدّيس يعرف أنّ هذه حيلة. الأمبراطورة أفذوكيّا تريد قتله أثناء السفر. سينتهي كلّ شيء. ويموت. وأطال القدّيس صلاته.

وماذا يقدر على أن يقول القدّيس للآب السماويّ، غير الذي قاله يسوع على جبل الزيتون: «لتكن مشيئتك»؟ وبينما القدّيس يصلي، جاء شمّاس ودسّ في يده ورقة: صديق يستعطف الذهبيّ الفم أن يقطع صلاته حالاً، فالقائد العسكريّ لوسيوس تلقّى أمرًا من أفذوكيّا باختلاق مقاومة مزعومة من قبل القدّيس، فيهاجم الكنيسة ويقتل الأسقف. الصديق، كاتب هذه الورقة، يستعطف القدّيس أن يخرج من الكنيسة، ويحبط خطّة أفذوكيّا الإجراميّة، وينجو بحياته.

وقطع القدّيس صلاته. وأوّل ما خطر في باله تجنّب إراقة الدماء. الذهبيّ الفم يحبّ الفقراء والعراة، ويموت مع كلّ مائت منهم. يريد إنقاذ حياتهم. لذلك، أمر القدّيس بتحضير مركوبه أمام الباب الغربيّ استعدادًا للرحيل. فإنّ الشعب، عند رؤية الحصان أمام الباب الغربيّ يتجمّعون في ذلك المكان، في حين يترك القدّيس من الباب الشرقيّ. ثمّ تقدّم الذهبيّ الفم من الأساقفة مقبّلاً اثنين منهم قائلاً: «أقبّلكم جميعًا إذ أقبّل هذين الأسقفين. أبقوا في الهيكل حتّى أستعيد شيئًا من الهدوء قبل السفر».

القدّيس متفلّت من كلّ ما هو أرضيّ. رغم هذا الانفلات، فإنّ اللحظة التي يقول فيها القدّيس: «وداعًا» لهي مفجعة، مثل لحظة الوداع عند أيّ شخص. لأنّه، حسب قول الذهبيّ الفم نفسه، من الصعب أن يعتاد الناس الموت، مع أنّ الموت قديم، قديم مثل الأرض. وفي كلّ مرّة ينظرون إلى الموت كشيء جديد. وبكى الأساقفة والكهنة والشمامسة. بكوا عندما قال لهم القدّيس: وداعًا.

وترك الأسقف أخوته في الهيكل. وتوجّه منفردًا نحو الشمّاسات. قال: «تعالَين يا بناتي واسمعن جيّدًا ما أقول. في ما يتعلّق بي، أعتقد أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأنّ شوطي قد كمل». وتابع القدّيس وسط بكاء الشمّاسات: «وصيّة واحدة أوصيكنّ: ألا تخالف واحدة منكنّ الاحترام المفروض للكنيسة. من يأتي بعدي، بالطريقة الشرعيّة وبدون دسائس، هو خليفتي فاخضعن له كما لي، لأنّ الكنيسة يجب ألاّ تبقى بدون

أسقف». وأنهى القدّيس كلامه برجاء خاصّ إلى الشمّاسات: «اطلبن الرحمة لي، واذكرنني يا بناتي في صلواتكن». وارتمت الشمّاسات على قدمي القدّيس، وتمسّكن بثيابه محاولات منعه من الذهاب. الدموع تنهمر من جميع العيون. والنحيب يكاد يمزّق الحناجر. حتّى القدّيس تبلّلت عيناه. ولم يقدر القدّيس على أن يُفلت فاستنجد بأحد الكهنة ليساعده خوفًا من أن «يهيّج حزنهنّ الشعب».

ومشى القدّيس. بخطى ثابتة. متمهّلاً هادئًا. وترك الكنيسة. الشعب ينتظره أمام الباب الغربيّ. والحصان أيضًا هناك. وخرج القدّيس من الباب الشرقيّ. واستلمه الجنود فلفّوه برداء لئلا ينكشف أمره للشعب. وانغلق الباب الشرقيّ وراءه.

كتب الأسقف بلاذيوس، صديق القدّيس وكاتب سيرته، يقول: من الباب الشرقيّ ترك ملاك الكاتدرائيّة الكنيسة: «ملاك الكنيسة ذهب معه».

الفصل الثالث عشر

الجماهير المتراصّة أمام الباب الغربيّ لم تشاهد الذهبيّ الفم يخرج من الكنيسة. لأنّه خرج من الباب الشرقيّ. ولكنّ الانتظار لم يطل. فإنّ صراخًا سُمع في الداخل مع تأوّهات: بدأ الجنود يطردون الشمّاسات والكهنة والشمامسة. الجنود يحاولون تنظيف الكنيسة من أخصّاء الذهبيّ الفم. ولكنّ تدخّل الجنود يعني الضرب والجرح والتقتيل. والإنسان المضروب يصرخ. فسمع الشعب الصراخ وظنّ أنّهم يعذّبون الأسقف. وحاول الشعب دخول الكنيسة لتخليص القدّيس من التعذيب. ولكنّ الأبواب موصدة. واشتد الصراخ. وارتفعت حرارة الشعب الذي هدم الجدران. الشعب يفعل المدهشات. وانفجر الاصطدام بين الجنود والشعب. الجنود ينفّذون أوامر أفذوكيّا: الدفاع عن الكنيسة ضدَّ أحبّاء الذهبيّ الفم، والجماهير، هنا، لتنقذ حياة حاميها والمدافع الوحيد عنها. لم يكن الذين هدموا الجدران من المسيحيّين فقط، بل من اليهود والوثنيّين أيضًا. لأنّ الذهبيّ الفم كان يدافع عن المظلومين إلى أيّة ملّةٍ انتسبوا، وأيّة عقيدة اعتنقوا. الذهبيّ الفم حامى عن الجميع، وجاء الجميع، حتّى الوثنيّون، يردّون له الجميل ويحامون عنه. ولكن، سبق السيف العذل، وجاء تدخّلهم متأخّرًا. القديس ليس في الكنيسة، والمعركة، في الداخل، كانت بين الجنود والشمّاسات والكهنة. وفجأة هبّت عاصفة هوجاء، آتية من الشمال، من البحر الأسود. عاصفة اقتلعت قرميد البيوت. واستمرّت المشاجرة بين الشعب والجنود عنيفةً كالعاصفة. وفي هذه اللحظة

اندلعت النيران. اشتعل أوّلاً المنبر حيث كان يقف الذهبيّ الفم مدافعًا عن الحقيقة. وانتقلت النار إلى المذبح فالتهمته. ثمّ تحولت الكنيسة كلّها إلى رماد. وحملت رياح الشمال ألسنة النار إلى البيوت المجاورة حتّى أدركت بيت المحافظ. وكان سقف البيت من المعدن، فأذابته النيران وسال كما من فوهة بركان. وخيّل إلى الناس أنّ النار كانت تقصد قصر الأمبراطور فتلتهم أفذوكيّا وزمرة النساء الأنيقات، اللواتي أرسلن الذهبيّ الفم إلى المنفى، إلى الموت.

وفي حين النار تلتهم نصف المدينة، كان الجنود يواكبون الذهبيّ الفم، كمجرمٍ، إلى مدينة نيقيا.

قسم كبير من القسطنطينيّة تحوّل إلى رماد. ثمّ انطفأت النيران. وتوقّف العراك بين الجنود والشعب. ولكنّ عمل الجنود لم ينتهِ. بل نقدر على أن نقول إنّ عملهم، الآن ابتدأ. نشاط الجنود ظهر في تفتيشهم عن الذين أحرقوا الكنيسة. يجب أن يمسكوا بالذي أعطى الشرارة الأولى. الشيء الأكيد أنّ النار اندلعت من المنبر. هناك غير احتمال في تفسير اشتعال المنبر، حسب ما أورد المؤرّخ سوزومين. والاحتمال الأقرب إلى التصديق هو أنّ النار نشبت حين ترك القدّيس، مع الملاك، كنيسة القسطنطينيّة. وأرادت أفذوكيّا، ولا مردّ لإرادتها، أن تعرف مُنشئ الحريق. ومن العشرين سببًا التي أوردها سوزومين اعتمد محافظ المدينة أربعة:

أ. الاساقفة، مؤيّدو الذهبيّ الفم، إذ رأوا رئيسهم يقوده الجنود خارج الكنيسة، أحرقوا المنبر حتّى يقطعوا الطريق على خليفته، فلا يلقي المواعظ من حيث كان يلقيها القدّيس.

ب. اليهود والوثنيّون هم الفاعلون. كثير من المعابد اليهوديّة والهياكل الوثنيّة، أحرقها المسيحيّون. وقد يكون اليهود والوثنيّون استغلّوا المشاجرة بين الجنود والمسيحيّين فأحرقوا الكنيسة.

ت. وقد يكون الشعب، الذي رأى حاميه يُنفى، ثار غضبه فانتقم وأشعل النار.

ث. الله تعالى أعلن سخطه لنفي القدّيس، فأرسل نارًا تلتهم المنبر والتوابع...

ولم يتجنّب المحافظ الوقوع في الحيرة. المتّهمون كثيرون: اليهود، الوثنيّون، الكهنة، الشعب. ولا ننسى الله!! فهل يقدر المحافظ على أن يوقعهم جميعًا؟ وارتأى، ولا نعرف لماذا، أن يلقي القبض على الأصدقاء الأقرباء من القدّيس. ولكنّ هؤلاء الأخصّاء ليسوا في المدينة، ولم يكونوا حتّى في الكنيسة عندما اندلعت النارهم في الطريق إلى المنفى. لقد أبوا أن يذهب صديقهم القدّيس إلى المنفى وحيدًا فرافقوه. وأمر أستوديوس وهو المحافظ بأن يلحق الخيالة بموكب القدّيس ويسترجعوا جميع مرافقيه.

انتقل موكب القدّيس من القسطنطينية إلى خلكيدونية ثمّ إلى نيقيا. ولحق الجنود الخيالة بالموكب فأدركوه قبل وصوله إلى نيقيا. وأخذ الجنود الأسقفين سيرياكوس وأوليسيوس وقيّدوهما بالحديد، كما ألقوا القبض على الكهنة والشمامسة الذين يرافقون القدّيس. واحتجّ القدّيس وطلب من الجنود أن يقيّدوه هو أيضًا. «لن افترق عن أخوتي». وأجاب الرسول الأمبراطوريّ أنّ أصدقاء القدّيس متّهمون بإحراق الكنيسة. وصرخ القدّيس: «إذا كانوا مذنبين فأنا مذنب أيضًا. إذا كانوا أداة الجريمة فأنا مسبّب الجريمة وخالقها». واستعطف الذهبيّ الفم الرسول الأمبراطوريّ أن يضع يديه ورجليه في الحديد، كما فعل بأصدقائه، «يجب أن أستجوَب لكي يعرف أصدقائي وأعدائي، إذا أنا أحرقت الكنيسة أم لا».

وكان جواب الرسول الأمبراطوريّ أن أخذ أصدقاء القدّيس وقفل راجعًا. وبقي الذهبيّ الفم وحده بين الجنود. بدون صديق واحد إلى جواره. وشعر القدّيس بالانفراد، بالعزلة القاسية. القدّيس إنسان أيضًا، يحسّ بأنّه وحيد عندما يجرّدونه من أصدقائه. ومرض القدّيس بالحمّى. برفقة الجنود، يحسّ الإنسان بالوحشة والحزن، كما لو كان في الكهوف المظلمة.

ولكنّ الإنسان القدّيس يرى مع التجربة المخرج. لقد استطاع الذهبيّ الفم أن ينفذ عبر الحديد الذي يغطّي جسوم الجنود ورؤوسهم،

إلى داخلهم، وأن يكتشف الإنسان الكامنَ فيهم. وأدرك القدّيس أنّ الجنود ليسوا مجرّدين من العاطفة الإنسانيّة. لقد عاملوه معاملة لطيفة، شفوقة، مخالفين أوامر أفذوكيّا الأمبراطورة الجميلة. كانوا يأتونه بالخبز والماء والحليب. وعرفوا أنّ القدّيس يأخذ حمامًا كلّ يوم فصاروا يؤمّنون له الماء الكافي لهذه الحاجة، يملأون برميلاً ويتركون للقدّيس حرّيّة الاغتسال. وهكذا صارت الصداقة تكبر بين القدّيس والجنود، حتّى عاد لا يشعر بأنّه أسير أو منفيّ. وانقلب الجنود إلى خدّام محبّين للقدّيس يضحّون براحتهم ليؤمّنوا له الراحة. لقد أظهر القدّيس الإنسانيّة الدفينة في الجنود. وهذه عجيبة لا يقدر على أن يفعلها إلاّ القدّيسون، لأنّه ليس من السهل اكتشاف النفس البشريّة عبر الثياب العسكريّة. هل يتحوّل الحجر إلى خبز؟ ولكنّ الذهبيّ الفم صنع العجيبة. طيبة الأسقف وقداسته ملكتا على الجنود روعهم، وصار الجنود بشرًا! هذه العجيبة، على طريق المنفى، لم يصنع مثلها إلاّ الرسول بولس: لقد هدى الجنود المكلّفين بتعذيبه.

بعد اختطاف القدّيس، بدأ اضطهاد أصدقائه في القسطنطينيّة. وأصدقاء القدّيس هم المسيحيّون الفقراء، الكهنة، الشمامسة، الأساقفة والشمّاسات، أي الذين لا يخافون الموت. وانزعج المحافظ أستوذيوس لأنّه يعذب أناسًا لا يرهبون الموت! الجنديّ يغضب إذا ضرب أحدًا ولم يسمع استعطافًا أو بكاءً... لذلك أصبح المحافظ في قلق وانزعاج. وتابع تعذيب أنصار الذهبيّ الفم بدون حماس أو لذّة. ما أثار الأساقفة أعداء الذهبيّ الفم، الذين اصطحبوا الأمبراطورة في زيارة إلى الأمبراطور، وقدّموا له شكوى ضدّ المحافظ، الذي يبدي شيئًا من طول البال مع الذين يعذّبهم. وطلبوا إلى الأمبراطور أن يعزل أستوذيوس، ويسميّ خلفًا له، مَن تكون فيه الجدارة أن يعذّب المؤمنين بالمسيح. وفتّشوا عن محافظ يعرف أن يقطّع لحوم البشر، ويمزّق جلودهم، حتّى ينتزع إقرارهم بما يطلب منهم الإقرار به. وعملاً بنصيحة الأساقفة، عيّن الأمبراطور محافظًا جديدًا، فيه الكفاية، اسمه أوبثاثيوس. والمحافظ الجديد ذكيّ ومثقّف. وهو يُشغّل

عقله. والذين يُعملون عقلهم هم أصلح الناس لوظيفة البوليس، لأنّهم لا يكتفون بتعذيب الأجسام بواسطة الأدوات، بل يعتمدون على ذكائهم وثقافتهم، لاختلاق أنواع جديدة من التعذيب. فبعد تسمية أوبثاثيوس محافظًا، أعلن هذا عزمه على قيادة الأعمال التعذيبيّة بنفسه. وأصدر بلاغًا يدعو الناس إلى مشاهدة حفلات التعذيب. لأنّ التعذيب أمام الجماهير يكسب مفعولاً أقوى في نفوس المعذّبين. كما أنّه يزيد هيبة الدولة في نفوس الشعب. وهذه طريقة ذات نفع مزدوج، حسب رأي المحافظ المثقّف الذكيّ. واختار الساحة العامّة مسرحًا لإظهار عبقريّته الإجراميّة. وجلس الحاكم، واضعًا إلى جانبه خزانة حاوية جميع أنواع الأدوات التعذيبيّة. ولكلّ آلة خبيرٌ يحسن استعمالها، والتفنّن بها. هناك آلة لطحن العظم، وأخرى لقلع الأظافر، وثالثة لسلخ الجلد، ورابعة... وخامسة... مجموعة الاختصاصيّين في التعذيب أمام أدواتهم، عن يمين الحاكم الجديد أوبثاثيوس، في الساحة العامّة. الأساقفة الأربعة، مع النساء الأنيقات، يرغبون في مشاهدة المسيحيّين يتعذّبون. وحُجزت لهم أماكن للجلوس.

يقول المؤرّخ سوزومين وزميله بلاذيوس إنّ أوّل المتقدّمين إلى التعذيب هو أفتروبيوس، ذلك الشابّ الأمين للذهبيّ الفم. كان في سنّ الصبا المبكر. لحيته لم تنبت بعد. وطلب الحاكم من الشابّ أن يروي لهم كيف أحرق الذهبيّ الفم الكنيسة. وقال الشاب الحقيقة: لم يشاهد لا القدّيس ولا الأساقفة ولا الشمّاسات يحرقون الكنيسة: «لا أعرف شيئًا ممّا تقولون»، كان الشاب رائعًا في جوابه.

وأمر الحاكم بتعذيب الشابّ. وبعد استعمال كلّ آلة، وإنزال كلّ نوع من التعذيب، يسأل أفتروبيوس، وهذا الشابّ الأمين يكرّر كلامه الأوّل. ويلاحظ بلاذيوس أنّ جواب أفتروبيوس لم يتغيّر: «لا أعرف شيئًا ممّا تقولون»، لا كلمة زائدة ولا كلمة ناقصة. وأخيرًا مات الشابّ. واستمرّ تعذيبه بعد موته. كأنّ أوبثاثيوس، الذكيّ المثقّف، يريد أن يأخذ الإقرار من

الأموات، الذين هو قتلهم. إنّه محقّق ذكيّ! وبقيت جثّة الشابّ طيلة ذلك النهار في الساحة العامّة، على مرأى من جميع الناس. لأنّ الأساقفة، زمرة أفذوكيّا، لا يجرؤون على نقل الجثث في وضح النهار لئلا يمزّقهم الشعب. كان هؤلاء الأساقفة يأتون ليلاً وينقلون الجثث ليدفنوها.

الشخص الثاني الذي قدّمه أوبثاثيوس إلى المعذّبين، كان الراهب تيفريوس الذي قضى حياته عبدًا يجمع المال ليشتري حرّيّته، ثمّ قدّم حياته للكنيسة، فقبله الذهبيّ الفم في سلك الكهنوت، إنّه تيفريوس الذي يحبّ الذهبيّ الفم أكثر من الحياة. ولا شكّ في أنّ المحافظ اقترف غلطة كبرى باستدعائه العبد المتحرّر. فإنّ تيفريوس يتمنّى أن يقطّع إربًا إربًا في سبيل الذهبيّ الفم، الذي قبله في الكهنوت. لقد عذّبوه كثيرًا. أنزلوا به جميع أنواع العذاب. وأمام زمرة أفذوكيّا من أساقفة وأنيقات، كان تيفريوس يجهر، بصوت يزيده التعذيب قوّةً، بمديح الذهبيّ الفم القدّيس.

وتكدّر أوبثاثيوس من نتيجة تيفريوس. وفتّش عن فريسة جديدة. وكان دور سيرابيون، شمّاس الذهبيّ الفم. سيرابيون كان الساعد الأيمن للأسقف القدّيس. وقد تمكّن من الهرب إلى الكربات، (رومانيا حاليًّا)، حيث يحبّون الذهبيّ الفم حبًّا جمًّا. فاختبأ في أحد الأديار. ولكنّ المحافظ تمكّن من القبض عليه، وقاده إلى ساحة التعذيب، وعامله بوحشيّة خاصّة. علاوة على التعذيبات العاديّة فقد أمر الحاكم بسلخ الجلد عن جبهة سيرابيون وترك جمجمته عارية. ولم يتلفّظ سيرابيون بكلمة واحدة ضدّ أسقفه. ولم يستسلم الحاكم ولم يقرّ بعجزه أمام سيرابيون. ولكنّه، بعد استعمال جميع أنواع التعذيبات، فكّر بأنّ أسقفًا ربّما كان أكثر منه خبرة في فنون التعذيب. وهكذا أرسل سيرابيون إلى ثيوفيلوس، الفرعون المسيحيّ، الذي حكم بالموت على الذهبيّ الفم.

وبينما يتابع الحاكم حملة التعذيب في الساحة العامّة، جرى انتخاب أسقف جديد خليفة للذهبيّ الفم، اسمه (Arsace) عمره ثمانون سنة، وهو شقيق الأسقف الأسبق نكتوريوس. قال بلاذيوس عن أرساس

إنّ له «فصاحة السمك وحماس الضفادع في الخطابة». وظلّ المسيحيّون في القسطنطينيّة أمناء للذهبيّ الفم، وامتنعوا عن الذهاب إلى الكنيسة حيث يخدم الأسقف الجديد. وكان الشعب يقول إنّ صاعقة انقضّت على الكنيسة فأحرقتها. ولكن أوبثاثيوس يفتّش عن شهود ليكتشف الذين أحرقوا الكنيسة. هو لا يقدر على أن يقبض على الصاعقة، ولا يقدر أيضًا على أن يقبض على الله الذي أرسل الصاعقة. وإزاء عناد الرجال في قول الصدق، لجأ إلى تعذيب النساء. على الإجمال، النساء يتكلّمن بأكثر سهولة من الرجال. وأوّل امرأة تقدّمت إلى الاستجواب كانت أوليمبياس. عمرها خمس وثلاثون سنة، جمالها رائع وفضيلتها أكثر روعة. وبلغ إعجاب الشعب بها حدّ الأسطورة. كانت تنام ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، وتأكل لتعيش... وكلّ نشاطها في خدمة الفقراء والمؤسّسات المسيحيّة. ثيابها الرثّة، البالية، لها تأثير أقوى من كلّ زينة عالميّة. كانت نبيلة المولد، غنيّة الثقافة، ذكيّة. وإيمانها كبير حتّى إنّ اسمها كان معروفًا ليس فقط في جميع أنحاء الأمبراطوريّة الرومانيّة، بل حتّى حدود البرابرة. هذه المرأة كانت أوفى صديقة للذهبيّ الفم. وأتى بها أوبثاثيوس وأراها آلات التعذيب فابتسمت. هي قدّيسة. تعرف أنّ العذاب هنا وقتيّ زائل. يقول سوزومين إنّ الحاكم سأل أوليمبياس: لماذا أحرقت الكنيسة؟ وارتسمت ابتسامة على فم الشمّاسة وأجابت: «حياتي، في جميع مراحلها، تكفي لدحض هذه التهمة. كنت أملك ثروة طائلة، ويعلم الجميع أنيّ استعملت ثروتي لبناء الكنائس وتزيين بيوت الله. فهل تعمير الكنائس يعلّم إحراقها؟».

- أعرف الكثير عن حياتكِ. قال الحاكم.

- إذا كنتَ تعرف حياتي، قالت الشمّاسة بهدوء رائع، إذا كنت تعرف حياتي، فانزل إذًا عن هذا المنبر، حيث تجلس حاكمًا، وتعالَ اجلس هنا كمتّهمٍ. وليأتِ حاكم آخر يفصل بيننا».

- أنتِ مجنونة إذ لا تعترفين بالأسقف الجديد.

وابتسمت أوليمبياس. وسألت الحاكم إذا كان يتّهمها بإحراق

الكنيسة، أو هو يتّهمها بالهرطقة.

وعلّق المحافظ التحقيق. وطلب من أوليمبياس أن تعود إليه في ما بعد. وكانت أوليمبياس تعرف أنّ جريمة إحراق الكنيسة، أخفّ من جريمة عدم الاعتراف بالإسقف الجديد.

في تلك الأيّام كان دين الأمبراطور مفروضًا على جميع الرعايا. وطالما أنّ أركاذيوس يعترف بشرعيّة انتخاب أرساس، فكلّ من لا يعترف به هو ضدّ الأمبراطور. ويتعرّض تاليًا إلى أحكام القانون. أوليمبياس تعرف أنّ هذه جريمة كبرى. إلاّ أنّها لا تنكر الذهبيّ الفم. وهي مستعدّة لأن تتحمّل عواقب الجريمة: لن توافق الأمبراطور إذًا.

أثناء المقابلة الثانية كانت أوليمبياس رائعة. أكثر روعة من المرّة الأولى. قالت إنّها لن تعترف بالأسقف الجديد، وإنّها تتمسّك بالذهبيّ الفم. لذلك صدر الحكم عليها بالنفي، مع جميع الشمّاسات اللواتي ساعدن الذهبيّ الفم على خدمة الفقراء والمؤسّسات المسيحيّة. الشمّاسات إلى المنفى.

الفصل الرابع عشر

بعد مسيرة عشرة أيّام، برفقة الجنود، وصل الذهبيّ الفم إلى نيقيا. نحن في أواخر حزيران السنة ٤٠٤، ولم يكن القدّيس يعرف إلى أين يسير. في حالة النفي لا يقولون للمنفي إلى أيّ مكان يتوجّهون به. في ضواحي نيقيا بحيرة اسمها أسكانيوس. وأحسّ القدّيس بانتعاش من رطوبة الجوّ. وارتاح جسده إلى هذه الرطوبة «هواء نيقيا أنعشني». ولأوّل مرّة بعد خروجه من القسطنطينيّة، تمتّع القدّيس بسرير يستلقي عليه بعد عناء المسير. وقدّموا له ماءً نظيفًا وخبزًا طيّبًا. واستطاع القدّيس أن يستحمّ. وهذه المرّة أخذ حمّامًا بالمعنى الصحيح. إلاّ أنّ أفراح القدّيس لا تكتمل. فقد جاءته الرسائل من القسطنطينيّة، تحمل إليه أخبار الأحداث الجارية فيها، فنغّصت عليه راحته، وحالت دون استمتاعه بما تيسّر له في نيقيا. فكتب إلى الأسقف سيرياكوس: «اطّلعت على ما جرى بسبب أرساس، هذا الخرفان السخيف، الذي رفعته الأمبراطورة إلى العرش الأسقفيّ». وفي الرسالة عينها يقول: «بلغني ما يصنعه أرساس المرذول، ضدّ إخوتي، الذين رفضوا التعامل معه، والذين مات عدد منهم في السجون دفاعًا عن قضيّتي. أرساس ذئب في لباس خروف، زانٍ يلبس قناع أسقف. إنّ المرأة التي تضاجع رجلاً غريبًا، وزوجها حيّ تُدعى زانية؛ كذلك أرساس فإنّه زانٍ، ليس حسب الجسد، بل حسب الرسول لأنّه، وأنا حيّ، أخذ كنيستي التي أنا زوجها».

هذه الأخبار السيّئة توّجها أمر الأمبراطور بمتابعة السير. وفي

الصباح الباكر، الساعة الرابعة، أيقظ الجنود الذهبيّ الفم. ولكن هذه المرّة أخبروه إلى أين يتوجّه. ولم تكن هذه المعاملة من باب الاحترام، بل ليزيدوا غمَّه إذ إنّ اسم (Cucuse) يلقي الرعب في أوصال المنفيّين. هذه القرية واقعة على حدود الأمبراطوريّة، في أرمينيا الصغرى. وهي مؤلّفة من بضعة بيوت. مجرّد اسمها يعني الموت. الذي ينقمون عليه يبعدونه إلى (Cucuse)، يعني أنّهم يقرّرون موته. ولمّا قالوا للذهبيّ الفم إنّهم يأخذونه إلى هذه القرية، عرف أنّه مائت لا محالة.

وأوّل محطة في طريق المنفى كانت أنقره (أنسير) في غلاطية العليا. وعرف أسقفها ليونتيوس بمرور الذهبيّ الفم، فأراد أن يكسب عطف الأمبراطورة أفذوكيّا، ففكر بتقديم هديّة قيمة لها. وأيّة هديّة تحوز رضى أفذوكيّا أكثر من رأس الذهبيّ الفم. وأرسل عصابات من القاتلين المأجورين ليأتوه برأس القدّيس. ولكنّ الجنود دافعوا عن أسيرهم، ولم ينجح ليونتيوس في نوال مأربه. وبقي رأس الأسقف على كتفيه. وكتب الذهبيّ الفم إلى أوليمبياس: «لقد نجوت من الغلاطيّين».

ووصل الذهبيّ الفم إلى بلاد الكبادوك وكيليكيا. واستقبله الشعب، ليس كالعصابات التي استأجرها الأسقف ليونتيوس، لقتل القدّيس، بل معبّرين عن كلّ احترام وتقدير. القضاة، الكهنة، الموظّفون، جميع السكّان على مداخل المدن يستقبلون القدّيس بالبكاء والتنهّدات والحسرات. وكتب الذهبيّ الفم إلى سيرياكوس: «عند وصولنا إلى الكبادوك وكيليكيا، استقبلتنا أجواق من الناس القدّيسين، من الرهبان والراهبات، بدموع غزيرة كانوا يبكون لمرآنا نسير إلى المنفى، ويقولون في ما بينهم: ألم يكن أولى بالشمس أن تتجرّد من أشعتّها، ولا يصمت فم الذهبيّ الفم؟ هذا المشهد حزّ في نفسي ومزّقني». ولمّا بلغ الموكب قيصرية (الكبادوك) استقبله وفد من قبل الأسقف فريتريوس يقول: «السيّد فريتريوس ينتظرك، بل هو في الطريق لئلا ينحرم ملاقاتك لأنّه لا يتمنّى شيئًا أكثر من رؤيتك وتقبيلك. والسيّد فريتريوس يجمع رهبان المدينة للاحتفال بقدومك». واشتدّ

تأثّر الذهبيّ الفم حتّى نفرت الدموع من عينيه. وبكى الجنود أمام هذه الاستقبالات الملوكيّة التي يلقاها أسيرهم. ولاحظت الجماهير أنّ الذهبيّ الفم مريض. وجاء أشهر أطبّاء المدينة يقدّمون الخدمات للقدّيس. أمّا حاكم قيصريّة فقدم للقدّيس بيتًا مريحًا. الأطبّاء في خدمته. والحاكم يكرّمه، والشعب يبجّله. وهو أسير!

ولكنّ الأسقف فريتريوس رجع عن عزمه على استقبال القدّيس. قد يكون خاف غضب الأمبراطورة، وقد يكون الحسد وراء هذا الإحجام. لم يستقبله ولم يقم بزيارته. بل أكثر من ذلك. فإنّ أسقف قيصريّة راح يهدّد القدّيس بمغادرة المدينة حالاً وسريعًا. واتّفق أنّ البرابرة الأيزوريّين هاجموا المدينة في ليلة اليوم المقرّر لاستئناف السير. فاضطرّ الجنود إلى تأجيل السفر. ولكنّ فريتريوس، الأسقف، جنّد الرهبان ليخرجوا بالقوّة الذهبيّ الفم، مهدّدين إيّاه بالقتل.

وحاول الجنود إفهام الرهبان أنّ السير صعب لأنّ القديس مريض ولأنّ الأيزوريّين يهاجمون المدينة. فلم يفهم الرهبان. وجاء الحاكم فأقنعهم. ولكن ما كاد ليل ذلك النهار يتقدّم، حتّى أعاد الرهبان الكرّة. وأخيرًا خرج القدّيس معرّضًا حياته لخطر البرابرة. خير له أن يقع في أيدي البرابرة من الوقوع في أيدي الرهبان وأسقفهم فريتريوس. ولحقت بالموكب امرأة تقيّة واستعطفت القدّيس أن يقبل دعوتها، ويبيت تلك الليلة في بيتها. وقبل القدّيس. ولكنّ فريتريوس عرف بالأمر فهدّد المرأة إذا لم تطرد الذهبيّ الفم من بيتها فورًا، فإنّه يعلنها ضدّ الأمبراطورة. وخافت المرأة ولكنّها لا تجرؤ على طرد القدّيس. فأعطت مفتاح بيتها للأسقف وفوّضت إليه أمر التصرّف بالقدّيس المنفيّ. فأرسل أحد كهنته للقيام بالمهمّة! ووصل الكاهن ودخل على الذهبيّ الفم، وأنذره بالإسراع في الخروج من البيت، لأنّ الأيزوريّين يحاوطون البيت. ولم يكن هجوم البرابرة على البيت، إلاّ من بنات خيال الكاهن وأسقفه. بهذه الخدعة خرج القدّيس في تلك الليلة الظلماء، وعرّض حياته لخطر الموت.

ومشى القدّيس سبعين يومًا ثمّ وصل إلى (Cucuse). «أنا الآن في كوكوز. وأنا في أمان. لا تخافوا عليَّ من الأيزوريّين. أمّا أنا فلا أرهب أحدًا، الأساقفة، أستثني القليل منهم. كتب القدّيس في رسالة إلى أوليمبياس.

انتهى الذهبيّ الفم إلى المنفى، واضطهاد أنصاره لم يعرف الهوادة في القسطنطينيّة. كلّ من لا يعترف بالأسقف أرساس تحجز أرزاقه ويخضع للتعذيب، حتّى الموت. ووجد أصدقاء القدّيس أنفسهم بلا كنائس، فراحوا يقيمون الخدم الإلهيّة في البيوت. ولكنّ السلطة تصادر كلّ بيت تجري فيه خدمة إلهيّة، لا يتبع القائمون بها الأسقف الجديد. ولجأ المؤمنون إلى الغابات. وحتّى في الغابات كانت السلطة تلاحقهم...

وتوقّف التحقيق في إحراق الكنيسة. الأمبراطور نفسه اقتنع بأنّ الله هو مرتكب هذه الجريمة. إلاّ أنّه يفرض على أتباع الذهبيّ الفم: الكهنة والأساقفة والشمامسة والشمّاسات والمؤمنين، يفرض عليهم جميعًا الاعتراف بأنّ القدّيس هو المجرم. الأديار التي لا يوافق رهبانها أو راهباتها على تجريم الذهبيّ الفم تحاصر، فلا يدخلها طعام ولا شراب: إمّا الموت جوعًا وعطشًا، وإمّا الاعتراف بأنّ الذهبيّ الفم يستحقّ الظلم النازل به. يقدر الإنسان على أن يصمد على الجوع والعطش، ولكن إلى حين. وصار الناس يتراجعون عن وفائهم للقدّيس المنفيّ. الشمّاسة أوليمبياس لم توافق، لم تتراجع. وتعرّضت لموجة يأس عارم كاد يهلك نفسها، ولكنّها لم تنكر صديقها القدّيس.

وأخيرًا جاء العون الإلهيّ لأنصار القدّيس. وبدأ عمل الله.

الإنسان الأوّل الذي نزل به قصاص الله بسبب نفي الذهبيّ الفم كانت أفذوكيّا. كانت حاملاً، للمرّة الخامسة. ومات الجنين في بطنها. وعجز الأطبّاء والقابلات عن إخراج الجثّة من جوفها. وأنتنت الجثّة. وأنتنت أحشاء الأمبراطورة وانتشر فيها الفساد. وتحمّلت آلامًا لا يقدر قلم على وصفها. كان القصاص قاسيًا. وككلّ شيء قاسٍ، استمرّت الآلام طويلاً. ثمّ... ماتت الأمبراطورة. وأرجعوها إلى التراب، في الثاني عشر من تشرين

الأوّل السنة ٤٠٤.

الشعب مؤمن، بكلّ تأكيد، بأنّ الله عاقب أفذوكيّا، إلاّ أخصام الذهبيّ الفم، فلم يروا علاقة لآلامها وموتها بقضيّة القدّيس! فتابع الله ضرب الخصوم واحدًا بعد الواحد، لعلّهم يرعوون ويعترفون بأنّ هذا تدبير الله، وليس وليد الصدفة. كلّ الذين أسهموا في إرسال القدّيس إلى المنفى نالوا جزاءً عادلاً. وعدل الله شديد.

واضطرب أركاذيوس. خاف أن تبتلعه الأرض، خاف أن يأكله الدود. خاف أن يقع عن متن جواده. خاف أن ينتفخ لسانه. خاف أن تهترئ رجلاه أو أحشاؤه. خاف... ألم يرَ من مات؟ واستنجد الأمبراطور بالقدّيس نيليوس، الناسك، ليشفع به أمام الربّ.

كان نيليوس من الأثرياء المخلصين. وكان حاكم الشرق في عهد ثيوذوسيوس. وكان له ولدان. وفي يوم، أخذ نيليوس واحدًا من ولديه وانعزل في الصحراء، تاركًا كلّ شيء. ذهب إلى جبل سيناء، حيث عاش حياة تقشّف وجهاد في سبيل القداسة.

وأرسل إليه أركاذيوس رسولاً يستعطفه للشفاعة به لدى الله، كيلا يجازيه كما جازى سائر الذين اشتركوا بالحكم على الذهبيّ الفم. وأعطى نيليوس جوابه صريحًا: «كيف تريد أيّها الأمبراطور أن أجرؤ على الصلاة من أجل مدينة تستحقّ، بذنوب كثيرة، عدالة الله النازلة بها؟ القسطنطينيّة مدينة تعتمد فيها الجريمة على سلطة الشرائع، وقد حكمت على يوحنّا، عمود الكنيسة ومصباح الحقيقة وبوق السيّد. أتطلب منيّ الصلاة لأجلها؟ ولكنّك نسيت أنّك تطلب من روحٍ أرهقها الحزن الناجم عن السيّئات التي اقترفتها القسطنطينيّة».

وأعاد الأمبراطور الكرّة. وأرسل مسترحمًا القدّيس نيليوس فأجاب الناسك: «لقد قاصصت يوحنّا، النور العظيم في الأرض، بدون حقّ، منقادًا لنصائح سيّئة يسديها إليك أساقفة روحهم غير نظيفة. لقد حرمت، بهذا العمل الكنيسة الأرثوذكسيّة من تعاليم يوحنّا الطاهرة العابقة بالقداسة.

فكّر في نفسك، واعترف بخطيئتك، واندم».

ولكنّ أركاذيوس لم يفكّر ولم يندم. بل لجأ إلى ثلاثة أساقفة، بطاركة شرقيّين، ليدعموه في سياسته ضدّ الذهبيّ الفم. هؤلاء الثلاثة هم أرساس، أسقف القسطنطينيّة، وبورفيريوس، أسقف أنطاكية، وثيوفيلوس أسقف الإسكندريّة الفرعون المسيحيّ. وبعد شهر وأسبوع، صدر قانون جديد يفرض على الحكّام في المقاطعات، أن يمنعوا التجمّعات الدينيّة التي يقوم بها أشخاص، لا يعلنون تجريم الذهبيّ الفم، ولا يعترفون بأرساس وبورفيريوس وثيوفيلوس. ونتج من تطبيق هذا القانون، اضطهاد جميع أتباع الذهبيّ الفم، وملاحقتهم ومصادرة أملاكهم.

وقضى الذهبي مدّة من الزمن في كوكوز مرتاحًا، بقدر ما كان جسده يتحمّل ذلك المناخ القاسي المتقلّب. أمّا معاملة السكّان للقدّيس فكانت مثاليّة. لقد غمروا القدّيس بالعطف والمحبّة، وقدّموا له كلّ ما يمكن أن يوجد عندهم. ولم يشذّ أسقف هذه المقاطعة عن شعبه، بل أظهر من المحبّة للقدّيس، ما جعل الذهبيّ الفم يكتب إلى سيرياكوس: «لقد أظهر أسقف كوكوز من الطيبة وحسن الضيافة ما جعلني أتساءل: «إذا لم يكن مستعدًّا لأن يقدّم لي عرش أسقفيّته!»

حتّى حاكم تلك المنطقة قدّم للقدّيس كلّ محبّة واحترام. ولكنّ وجود الذهبيّ الفم في كوكوز عاد بالنفع الجزيل على أهالي المنطقة. فإنّ الهدايا كانت تتوافد على القدّيس من أنحاء العالم، فيوزّعها على الفقراء. وجميع السكّان فقراء.

وجاء فصل الشتاء. الذهبيّ الفم عاش في الصحراء ستّ سنوات، ومارس جميع أنواع التقشّف. ولكنّه لم يصادف في حياة البرّيّة مثل قساوة الشتاء في كوكوز. ما عاد قادرًا على الخروج من البيت، حتّى من الفراش. وأخفقت كلّ المحاولات للتخفيف من وطأة البرد على الجسم النحيل. وأصابه الأرق فكان يقضي ليالي متتالية بدون أن يذوق للنوم طعمًا.

ومع قدوم الربيع دبّ النشاط في جسم القدّيس. إلاّ أنّ مصيبة

جديدة حلّت بتلك المنطقة. في الربيع تقوم قبائل الأيزوريّين بالهجمات الموسميّة لتأمين مؤونة الشتاء القادم. وكانت في كوكوز حامية عسكريّة. ومع ذلك فإنّ البرابرة دخلوا المنطقة وأهرقوا الدماء البشريّة، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم. وهرب القدّيس مع الشمّاسة سابينيا (وهي أخت أبيه، عمرها ثمانون سنة) وأحد الكهنة. ووصلوا إلى قلعة أرتابيسوس. وامتلأت القلعة باللاجئين. إلاّ أنّ مرض الطاعون جاء يمدّ يد المساعدة للبرابرة، منتشرًا في الناس انتشارًا ذريعًا. ولم يتراجع البرابرة أمام الحصون والقلاع بل دخلوا قلعة أرتابيسوس. وقتلوا وسلبوا. وكان القدّيس نائمًا. فلم يمت قتلاً، على أيدي الأيزوريّين.

أمّا الرسالة التي وجّهها الذهبيّ الفم إلى أسقف روما، فقد أسفرت عن ثمرٍ طيّب. فلم يتراجع الأسقف إينوسنشيوس عن عقد مجمع في تسالونيكيا، يعيد الذهبيّ الفم إلى منصبه المغتصب. وقد نصح مستشارو الأسقف عليه بعدم التدخّل في أمور كنيسة الشرق، وبإهمال قضيّة الذهبيّ الفم. وكان بين المستشارين القدّيس أوغسطينوس والقدّيس إيرونيموس. إلاّ أنّ مثل هذه النصيحة لم تصادف تجاوبًا عند إينوسنشيوس، الذي أرسل أساقفة من الغرب، مع الأساقفة الشرقيّين رسل الذهبيّ الفم، إلى القسطنطينية للتهيئة للمجمع المنويّ عقده. كما قرّر أن يكون ثيوفيلوس حاضرًا، ولكن بصفة شاهد لا بصفة حاكم.

وحاول أساقفة أركاذيوس المغبوطون تطويق فكرة أسقف روما وعرقلة أهدافه. وهكذا أمسكوا أساقفة الشرق، وعذّبوهم محاولين إرجاعهم عن الاعتراف بالذهبيّ الفم. وإذ لم يفلحوا قتلوهم وارتاحوا منهم. ولكنّهم لا يقدرون بل لا يجرؤون على قتل الأساقفة الغربيّين، فعذّبوهم ثمّ أرجعوهم إلى روما، حاملين في جسومهم آثار المحبّة التي خصّهم بها أركاذيوس وزمرته.

رغم كلّ هذا، فإنّ أساقفة أركاذيوس متأكّدون من أنّ أسقف روما لن يتراجع عن عزمه. وقرَّ الرأي على أن ينتهوا من الذهبيّ الفم ويرتاحوا منه

إلى الأبد. وأقنعوا أركاذيوس بأنَ خطيئة قتل الذهبيّ الفم تقع عليهم. ألم يأخذوا على رؤوسهم جميع الخطايا السابقة؟

وارتاح أركاذيوس إلى هذا الحلّ، وأطلق أيديهم ليتصرّفوا كما يحلو لهم. وبالطبع فرحوا.

الفصل الخامس عشر والأخير

واندفع أساقفةُ الأمبراطورة في تنفيذ مخطّطهم الإجراميّ. لقد أطلقت يدهم. وساعدهم بوليس القسطنطينيّة على إيجاد شخصين لا يخافان الدم: قاتلين خبيرين. وبعد إجراء امتحان صارم وقع اختيار الأساقفة على ضابطين من الحرس الأمبراطوريّ. وفحصوا قلبيهما فوجدوهما من حجر! وأعطيت الأوامر والتعليمات: إخراج الذهبيّ الفم من قلعة أرتابيسوس ونقله إلى سفح جبال القوقاز. ولم ينسَ الأساقفة أن ينبّهوا الضابطين إلى أنّ القدّيس يجب ألاّ يصل إلى هذه المنطقة وهو حيّ! كما وعد الأساقفة الضابطين بما يوهب عادةً في مثل هذه الحالات: المال، الترقية، إجازة وأوسمة!

وأسرع الضابطان إلى تنفيذ مهمّتهما. لأنّ الأساقفة كانوا «مستعجلين». يجب أن تنتهي هذه القضيّة. هم يخافون الذهبيّ الفم، ولكي يتخلّصوا من هذا الخوف، يريدون أن يقتلوا القدّيس سريعًا.

كتب بلاذيوس، عن لسان أحد الأساقفة، عن الذهبيّ الفم: «أرأيتم هذا المائت المخيف الذي ينزل الرعب في قلوب الأحياء أصحاب السلطان، كما يُرعبُ قناع «البربارة» الأطفال الصغار. شيء غريب. الذين يعتمدون على ساعد الحكومة وعلى غنى الكنيسة، والذين لهم السلطان على فعل كلّ ما يريدون، نراهم يرتجفون شاحبين خائفين أمام هذا الكاهن الأعزل، الذي لا وطنَ له، المريض، المنفي».

قداسة الذهبيّ الفم ترعب الأساقفة. تقضُّ عليهم مضجعهم. لذلك أصدروا أمرهم بقتله.

وصل الضابطان إلى قلعة أرتابيسوس في منصف حزيران السنة ٤٠٧، وأرياه القرار القاضي بنقله إلى (Pityonk)، ولم يندهش القدّيس. الإنسان لا يندهش إزاء الأشياء المرتقبة. منذ زمنٍ بعيد والذهبيّ الفم يترقّب ظهور المكلّفين بقتله. ولم يندهش أيضًا عندما علم أنّ الرحيل يجب أن يكون في الحال، وبدون أيّ تأخير. لم يكن للقدّيس حوائج. قام وسار بين الضابطين حالما طُلب إليه ذلك. وتأكّدت للقدّيس نيّات القتل نهائيًّا، إذ رأى الضابطين يتركان الطريق المسلوك ويسيران على «القادوميّة»، على ممرٍّ لا يتّسع إلا لشخص واحد. ومع ذلك فقد مشى القدّيس بشجاعة على الطريق الوعرة الصاعدة نحو قمم الجبال. وكان على الضابطين أن يتجنّبا المرور في المدن والقرى، وألاّ يدعا إنسانًا يراهم. القدّيس يجب ألاّ تقع عيناه على حيّ يسعى.

وسار الذهبيّ الفم في الإتجاه الذي رسمه له الضابطان. مشى حتّى أدرك القمّة ثمّ بدأ بالانحدار. وصعد ثانية ثمّ انحدر... وكان الأسقف الشيخ، من وقت لآخر، يودّ التوقف. الضابطان معهما أوامر بألاّ يتركا سجينهما يرتاح دقيقة واحدة. عليه أن يظلّ سائرًا حتّى يموت. هذه هي مهمّة الضابطين: إتعاب القدّيس حتّى يسقط ميتًا على الطريق. ولكن حدث ما لا تفسير له: لم يتعب القدّيس. كان يبدي من النشاط أكثر من الضابطين الشابّين. وتحمّل الجوع. وتحمَّل العطش. واندهش أحد الضابطين، وصاريميل إلى الاعتقاد بأنّ عجيبة حدثت. وحاول أن يحسّن المعاملة مع القدّيس، إلاّ أنّ الضابط الثاني لا يلين. إذا لم يمت القدّيس في الطريق فإنّ المكافأة «تطير»: لا مال ولا ترقية ولا إجازة. ولهذه الغاية، صار يُبعد مسافات الاستراحة، حتّى كاد هو نفسه يسقط إعياء. ولكنّ القدّيس يمشي مثل الشباب، ولا يطلب دقيقة استراحة. ولا يشعر بالتعب. وابتكر الضابط الثاني طرائق جديدة للإجهاز على مناعة السجين. أجبره

على السير تحت وطأة الشمس مكشوف الرأس، إلاّ أنّ حرارة الشمس لم تقدر على شيء. قال بلاذيوس: «بسبب الحرّ الشديد أصبح رأس الأسقف، الأصلع، أحمر مثل البندورة». ولكنّ القدّيس ما أصيب بلفحة شمس، وفي وقت المطر كان القدّيس مجبورًا على السير تحت خيوط الماء. ومع ذلك فلم يُصَب «بذات الرئة»، ولا التقط الزكام.

في هذه الأثناء، كان أسقف روما يحاول إنقاذ الذهبيّ الفم، وهو يجهل تمامًا أنّ القدّيس في طريقه إلى الموت. كما أنّ الذهبيّ الفم وهو في طريقه إلى الموت، لم يكن يعلم بالجهود التي يبذلها أسقف روما. ولم يكن يعلم بأنّ اثنين من رفقائه في القداسة، أسقفين، أخوين له في المسيح، يكتبان للأسقف إينوسنشيوس يقنعانه بعدم التدخّل في شؤون الشرق، وبإهمال قضيّة الذهبيّ الفم. أوغسطينوس وإيرونيموس لم يوافقا على الخطوة، التي يودّ أسقف روما الإقدام عليها. في هذا الوقت كان الذهبيّ الفم يمشي بشجاعة، عارفًا أنّه نحو السماء يسير. يعرف أنّ طريق السماء تمتدّ تحت الأمطار وشمس حزيران المحرقة، وفي منعرجات الجبال الوعرة. الذهبيّ الفم يمشي في طريق القداسة منذ شبابه، ويعرف أنّ هذه الطريق قاسية. ولكنّه لا يبالي. إنّه بطل للمسيح.

طلب الله من الذهبيّ الفم تضحيات قام بها قبله أيّوب. وأعطى يوحنّا لله كلّ شيء بإيمان. والآن، الله راضٍ عن مقاومة بطله يوحنّا، والله لن يطلب من الذهبيّ الفم أكثر من هذا. لقد بلغ الثامنة والخمسين من العمر. هو جلدٌ على عظم. وكان مستعدًا لمتابعة الجهاد، لكنّ محبّة الله رأت أن يرتاح هذا المناضل العنيد. وفي ١٣ أيلول السنة ٤٠٧ كان القدّيس ينام، فأرسل الله إليه القدّيس بازيليكوس الشهيد، الذي تقام كنيسة على اسمه في منطقة كومان. قال الشهيد للقدّيس: «تشجّع يا أخي يوحنّا، غدًا سنكون معًا»، ثمّ حضر الشهيد عند كاهن الكنيسة وقال له: «هيّئ مكانًا لأخي يوحنّا لأنّه آتٍ ولن يتأخّر».

وأيقظ الضابطان الذهبيّ الفم لمتابعة المسير ليلاً. واستعطفهما

القدّيس أن يتمهّلا عليه حتّى بزوغ الفجر لأنّه سيموت في الصباح. وضحك الضابطان وأرغماه على المسير. ومع الفجر شعر القدّيس بأنّ موته دنا. وطلب من الضابطين أن يرجعا به إلى كنيسة القدّيس بازيليكوس، لأنّهم لم يقطعوا مسافة طويلة. وقبل الضابطان هذه المرّة. وفي طريق العودة كان الذهبيّ الفم يسير بنشاط وهمّة. كمن يأتي إلى محبوبه. وخلع ثيابه وارتدى قميصًا أبيض طويلاً. واستلقى على بلاط الكنيسة. وتناول جسد الربّ ودم الربّ. ثمّ قال: «المجد لله على كلّ شيء. آمين».

ومات الذهبيّ الفم.

الفهرس


AN-NOUR COOP

